مشاهير قادة العالم

الجنرال كوتوزوف

١٧٤٥ - ١٨١٣

تأليف

بسام العسلي

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

مشاهير قادة العالم

الجنرال كوتوزوف

١٧٤٥ - ١٨١٣

تأليف

بسام العسلي

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقيا "موكيالي بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨١

الجنرال كوتوزوف

١٧٤٥ - ١٨١٣

تأليف

بسام العسلي

كوتوزوف

كوتوزوف يخطب في الجيش

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

عندما اجتاحت جحافل الغزاة الالمان - النازيين - أقاليم الاتحاد السوفييتي ، حدث انهيار معنوي في وسط مواطني الاتحاد السوفييتي ، وأسرعت القيادة العليا - تحت زعامة ستالين - باتخاذ كل التدابير الممكنة لأيقاف الغزو النازي ، واستيعابه ، تمهيداً للانتقال من مرحلة الصد - الدفاع - إلى مرحلة الهجوم . وعادت القيادة السوفييتية في الوقت ذاته إلى تجاربها القتالية السابقة وإلى تراثها التاريخي في محاولة لاستخلاص الدروس المفيدة من (التجربة التاريخية للأمة) .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تتعرض فيها البلاد للغزو الخارجي ، فقد جابهت أيام بطرس الأكبر غزو الأسوجيين - السويديين - (١٧٠٩) وتمكنت من إحباطه ، وجابهت في سنة (١٨١٢) غزو الجيش الافرنسي الكبير بقيادة نابليون بونابرت ، وتمكنت من قهره . وهنا برز اسم (القائد الروسي الكبير كوتوزوف) الذي طبق استراتيجية رائعة تمكن بواسطتها من استنزاف قدرة الجيوش الافرنسية ، وتعطيل تقدمها ، ثم إرغامها على الانسحاب تحت ضغوط قوية . ولقد تبدلت الأسلحة التقليدية ، وتطورت كثيراً ، خلال الفترة

من سنة (١٨١٢) إلى سنة (١٩٤٢) غير أن أسس السياسة الاستراتيجية ومبادىء الحرب ، تبقى قريبة من الثبات ومحتفظة بكل أهميتها وفائدتها ، فلا غرابة بعد ذلك أن تطبق القيادة السوفييتية في سنة ١٩٤٢ ما كان كوتوزوف قد طبقه بنجاح في حربه ضد نابليون بونابرت ، وتقديراً من القيادة السوفييتية لدور هذا القائد ، وبهدف الاعتماد على أصالة الأمة في مواجهة التحديات الخارجية ، أحدثت القيادة السوفييتية وساماً رفيعاً حمل اسم (وسام كوتوزوف) تقرر منحه لأبطال الصمود والمقاومة ، مع احداث وسام آخر باسم (وسام سوفوروف) أستاذ كوتوزوف ، ومن كبار القادة المصلحين - الجنرالات - في عهد روسيا القيصرية .

لقد استطاع كوتوزوف تحطيم كبرياء نابليون أمام أبواب موسكو ، ودمر له قدرته العسكرية وحرمه ، لأول مرة ، من الاستمتاع بنشوة النصر . ومهد لهزيمة نابليون النهائية . وعلى الرغم من ذلك كله ، فلم يكتسب كوتوزوف قدراً من الشهرة العالمية التي اكتسبها نابوليون في حروبه . غير أن حرمانه من الشهرة العالمية ، لم يحرمه من تقدير شعبه ، ولعل من أبرز ظواهر هذا التقدير تلك (الالياذة) التي كتبها الكاتب الروسي (ليوتولستوي) تحت عنوان (الحرب والسلام) والتي أبرز فيها بشكل رائع دور كوتوزوف التاريخي في الدفاع عن روسيا ، وقهر قوات الغزو النابوليوني .

لقد وقف العجوز - كوتوزوف - وهو يقترب من السبعين عاماً (٦٧ عاماً على وجه التحديد) ويحمل على كاهله أعباء العمر الشاقة ، بالاضافة إلى ما أفقدته الحروب من جسمه - من فقد لعينه وبتر لذراعه - وهو يجابه شاباً مغامراً ، فكان انتصار كوتوزوف انتصاراً للعقل على العاطفة ، وانتصاراً لحكمة الشيخوخة على اندفاع الشباب . وكان

كوتوزوف قد خاض معركة (أوسترليتز) سنة ١٨٠٥ وهي المعركة التي خرج منها نابليون منتصراً على القوات المتحالفة ، غير أن هزيمة كوتوزوف فيها لم تضعف من إرادته بقدر ما زادته رغبة في الانتقام . وعندما توافرت له الفرصة المناسبة ، خاض معركته الحاسمة ، وسجل انتصاره الرائع ، ومحا من سجل حياته تلك النقطة السوداء التي علقت به في ميدان (أوسترليتز) . وضحك كوتوزوف العبوس ، من غير أن يردد : « ان من يضحك أخيراً يضحك كثيراً » .

لقد أفاد كوتوزوف من محصلة العوامل المؤثرة على الصراع ، فكان منها الامتداد الجيو- استراتيجي لمسرح العمليات . وكان منها عامل المناخ - وقسوة الطبيعة - وكان منها الكبرياء القومي الذي ساعد على زج مجموعات الأنصار لضرب قوات الغزو ، والهجوم على مؤخراتها وإزعاجها بصورة مستمرة . وهكذا نجح كوتوزوف في تحقيق ما عجزت عن تحقيقه القيادات الاوروبية المتحالفة ضد نابليون . وكان انتصار « كوتوزوف » في وجه من وجوهه ، انتصاراً لمبدأ (وحدة القيادة) على مبدأ (تعدد القيادات المتحالفة) والتي لا تستطيع ، إلا في حالات معينة ، العمل بانسجام كامل ، وتوافق تام .

لم يصل كوتوزوف إلى قمة مجده بسهولة ويسر ، وإنما بالعمل الدؤوب ، والجهد المستمر ، وبالعقل المتفتح على أبواب العلم والمعرفة ، وقد أسهم خلال عمله في إدارة الكلية الحربية بتطوير المعرفة العسكرية لقادة المستقبل - في وسط الشعب الروسي - فحفظ له طلابه وتلامذته جهوده ، وعملوا على تطويرها ، فبقي اسم كوتوزوف - وأستاذه سوفوروف - في طليعة معلمي الشعب الروسي أسس (فن الحرب) .

هناك عدد كبير من القادة لمعوا في سماء فن الحرب كالشهب

المضيئة ، وهَناك من خانهم الحظ فلم يبلغوا مرتبة الشهرة العالمية بالرغم مما توفر لهم من الكفاءة العالية . وبين الفئتين – فئة ثالثة – أدركت قسطاً من المجد يتناسب مع ما بذلته من جهد وما قدمته من تضحيات ، وإلى هذه الفئة ينتسب الجنرال كوتوزوف ويكائيل ايلاريونوفيتش ، بطل احباط الحملة الافرنسية على روسيا ، وقاهر نابوليون بونابرت .

بسام العسلي

الوجيز في حياة كوتوزوف

1745 — 1813

١٧٤٥	ولادة كوتوزوف في سانت بيترسبورغ ، من أب جنرال خدم تحت قيادة بطرس الأكبر .
١٧٥٧	دخول كوتوزوف مدرسة (مهندسي المدفعية) .
١٧٥٩	تخرج كوتوزوف من مدرسة مهندسي المدفعية برتبة عريف .
١٧٦١	ترفيعه لرتبة ضابط .
١٧٦٤	إرساله للخدمة في بولونيا - بولندا - حتى سنة ١٧٦٩ .
١٧٧٠	نقله إلى الجبهة التركية بناء على طلبه ، واكتسابه خبرة ميدانية واسعة ومعرفة عسكرية بعمله تحت قيادة قائدين عظيمين هما (رومانتسيف) (*) وسوفوروف (**) .
١٧٧٤	إصابته بجرح خطير في رأسه وفقده لاحدى عينيه - وقد خدم بعد نقاهته لمدة (٦) سنوات في (القرم) تحت قيادة سوفوروف .

(*) رومانتسيف : GEN . RUMYANTSEV .

(**) سوفوروف : A . V . SUVOROV .

١٧٧٧	ترفيعه لرتبة عقيد (كولونيل) .
١٧٨٢	ترفيعه لرتبة لواء .
١٧٨٤	ترفيعه لرتبة فريق .
١٧٨٧ - ١٧٩١	بروز شخصية كوتوزوف القيادية في الحروب الروسية - التركية ، وإصابته مرة ثانية بجراح خطيرة في معركة (أوشاكوف) (*) وخوضه معركة (اوديسا) (١) و (بندر) (٢) و (اسماعيل) (٣) .
١٧٩٣ - ١٧٩٨	تعيين كوتوزوف سفيراً لروسيا في تركيا ، ثم حاكماً عاماً في فنلندا ، ثم مديراً للكلية الحربية في سانت بيترسبورغ .
١٨٠٢	اصطدام (كوتوزوف) بالسلطة ، واعتزاله في قريته .
١٨٠٥	الامبراطور (الكسندر الأول) (٤) يعين كوتوزوف قائداً عاماً للقوات الروسية المكلفة بإيقاف زحف قوات نابليون على ڤيينا ، وانتصار نابليون على القوات المتحالفة في (اوسترليتز) .
١٨٠٦	غضب القيصر على كوتوزوف وتعيينه حاكماً عسكرياً على كييف .
١٨٠٩	تعيين كوتوزوف قائداً عسكرياً على (فيلنيوس) (٥) .
١٨١١	تعيينه قائداً عاماً في مولدافيا - بعد انفجار الحرب

(*) أوشاكوف : OCHAKOV .

(١) أوديسا : ODESSA .

(٢) بندر : BENDER .

(٣) اسماعيل : IZMAIL .

(٤) الاسكندر الأول : ALEXANDER : 1 .

(٥) فيلنيوس : VILNIUS .

الروسية - التركية وانتصار كوتوزوف ، وتوقيع معاهدة (بوخارست) مع الأتراك ، ومنحه لقب كونت على أثر هذا النجاح .

١٨١٢ تعيين كوتوزوف قائداً عاماً لايقاف زحف جيوش نابليون . وانتصار كوتوزوف في (بورودينو) [٦] وترفيعه إلى رتبة مارشال .

١٨١٣ وفاة كوتوزوف في سيليزيا ، وهو يقود جيوشه في بولونيا .

---

(٦) بورودينو : BORODINO

١ - النبأ العظيم :

تناقل أهالي (موسكو) يوم ٩ آب - أغسطس - ١٨١٢ ما أطلقوا عليه (النبأ العظيم) : لقد انتهت الخلافات كلها الآن ، وأصبح الأمير (كوتوزوف) ماريشالاً . وكان قادة روسيا - ماريشالاتها - وفيهم (سالتيكوف) و (اراكتشييف) و (فيازميتينوف) و (لوبوجين) و (كوتشوبيي) قد عقدوا اجتماعاً في اليوم السابق للتداول في المسيرة العامة للأعمال القتالية الروسية - الافرنسية . وقرروا بأن سبب عجزهم عن صد غزو الجيش الكبير الذي يقوده (نابليون) هو صراع القادة الروس للفوز بالقيادة العليا ، وعرضوا على القيصر تعيين كوتوزوف قائداً أعلى للجيوش كلها ، وذلك بالرغم مما يعرفونه من نفور القيصر واعراضه عن (كوتوزوف) الذي كان يعمل في ذلك اليوم بالذات ، رئيساً لمتطوعي العاصمة (بيترسبورغ) فيستقبل المتطوعين في ديوان الخزينة . غير أن (أقدم قادة روسيا) و (الرجل ذا الميزات الكثيرة) لم يكن يمارس الدور الذي يتناسب مع إمكاناته وميزاته في تلك اللحظات التاريخية التي وقفت فيها روسيا وجهاً لوجه أمام مصيرها ومستقبلها . فثارت حمية القادة واتخذوا قرارهم بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب . فقرروا اللجوء (إلى كوتوزوف) رجل الساعة . وكان هؤلاء وهم يتخذون قرارهم التاريخي يعرفون بأن القيصر كان قد أصدر مرسوماً يوم ٢٩ تموز - يوليو - منح بموجبه القائد كوتوزوف لقب أمير . ولم يكن ذلك إلا تمهيداً لايقافه عن العمل في المجال العسكري ، وكف يده . غير أنه لم يكن باستطاعة قيصر رفض طلب القادة . فأصدر المرسوم بترفيع كوتوزوف إلى رتبة (ماريشال) وتعيينه قائداً أعلى للقوات الروسية .

كان (كوتوزوف) قد بلغ يومها السابعة والستين من عمره ، كما كان قد فقد إحدى عينيه ، مما دفع خصومه للكيد له والقول : « هل يعقل تعيين رجل لا يستطيع امتطاء صهوة جواده ليكون قائداً أعلى ، وليقود القوات الروسية ضد نابليون الذي هزم أوروبا كلها ؟ وهل يمكن تعيين قائد أعلى ينام في المجلس الاستشاري ، وهو فوق كل هذا رجل متهتك ؟ وهل يمكن حقاً في هذه اللحظة الحرجة أن نضع على رأس جيشنا رجلاً عاجزاً وأعمى ، نعم ، أعمى بكل معنى الكلمة ؟ سيكون ذلك جميلاً ، جنرالٌ أعمى ، انه لا يرى شيئاً مطلقاً ، أبداً . . . ليذهب ويلعب التغماية » .

لقد طرقت مثل هذه المقولات سمع الماريشال (كوتوزوف) وآلمته أشد الايلام ، غير أنها لم تضعف من إرادته أو تنل من تصميمه ، وكانت معرفته بانتماء أصحاب هذه المقولات لانصار فرنسا في البلاط الروسي حافزا له للانتقام منهم عن طريق قهر بطلهم (نابليون بونابرت) . كما أن هزيمته السابقة (في أوسترليتز سنة ١٨٠٥) زادته قناعة بضرورة البحث عن النصر ، واعداد الطرائق والأساليب الكفيلة بذلك .

ما ان تسلم كوتوزوف قيادة الجيوش الروسية ، حتى مضى إلى قرية (تساريفو - زائيميختيه) ليقيم فيها استعراضه الأول . وتوقفت عربة (عظيم الرفعة - وهو اللقب الذي راح الناس كلهم يطلقونه على كوتوزوف) عند باب منزل كاهن القرية . حتى إذا ما أزفت ساعة العرض ، مضى كوتوزوف إلى الساحة العامة ، وهناك دوى صوت قوقازي كان يقوم على حراسة باب الفناء : ها هو ذا يصل ! هذا هو . وكانت مفرزة من الجنود قد وقفت بالباب ، انها حرس الشرف . وتقدم كوتوزوف ممتطياً صهوة جواد كميت صغير ، تواكبه حاشية كبيرة من

الجنرالات - القادة - بينما راحت طائفة من الضباط تجري إلى جانب الموكب وهم يهتفون : (هورا) وتقدم المساعدون العسكريون ودخلوا إلى الفناء . وراح كوتوزوف يستحث بنفاذ صبر جواده الذي كان يهملج منحنياً تحت وزن فارسه ، وهو لا يني يحني رأسه ويرفع يده إلى عمرته البيضاء الخاصة بالحرس الراكب ، وهي عمرة بيضاء ذات حاشية حمراء لا طرف لها . ولما وصل إلى حذاء حرس الشرف المؤلف من نخبة من الجنود البواسل ، يحمل معظمهم الأوسمة ، شخص إليهم فترة طويلة وهم يحيونه بالسلاح ، بنظرته النافذة كقائد ، ثم التفت إلى الضباط الذين كانوا يحيطون به . وفجأة اتخذ وجهه طابع الازدراء ، وهز كتفيه بحركة تدل على الدهشة ، ثم قال : (ومع مثل هؤلاء الفتيان - لا نكف عن التقهقر ؟) . ثم دفع حصانه نحو البوابة بينما ارتفعت أصوات الجنود من خلفه وهي تحييه : هورا - هورا - .

ووصل كوتوزوف إلى منزل كاهن القرية ، حيث كان يريد النزول ، ووقف أحد القادة القدامى من رفاق كوتوزوف يتأمله طويلاً : إنه اليوم أضخم جثة وأثقل وزناً ، وأكثر ترهلاً مما كان عليه قبل سنوات قليلة ، بينما لم تتبدل فيه عينه البيضاء ، وذلك الجرح المندمل ، وتلك المظاهر المنهكة التي كان يعرفها حق المعرفة . وكان كوتوزوف ، يتمنطق بسوطه فوق بزته ، وقد تدلى إلى سير جلدي رقيق ، كما كان متهاوياً على ظهر جواده الصغير الباسل ، يتأرجح بتثاقل ، وعندها ، أراد - كوتوزوف - الترجل ، فسحب ساقه اليسرى من الركاب ومر بها من فوق السرج بحركة دائرية من كل جسمه ، وقد قطب حاجبيه استجابة للمجهود ، وانطوى على ركبتيه ، ثم تهاوى وهو يزمجر بين أذرع القوقازيين والمساعدين العسكريين الذين أخذوا يسندونه . ولم يلبث أن انتصب من جديد . ومضى إلى فناء المنزل - منزل الكاهن - حيث أقبل صاحب المنزل وزوجته للترحيب (بعظيم الرفعة) .

اختار (كوتوزوف) كوخاً خشبياً يقع إلى جوار سكنه ، وجعله مقراً لقيادته ، واستدعى إليه الجنرال المناوب ، واستمع إليه وهو يقدم تقريره عن نقاط الضعف في مركز (تساريفو- زائيميختشيه) ثم انصرف إلى توقيع البريد . وكان التعليق الوحيد الذي ذكره هو ذاك الذي سجله على تقرير يتعلق بقيام القطاعات بأعمال السلب والنهب ، حيث قدم له (أمراً إدارياً) ينص بإلقاء المسؤولية على عاتق قادة القطعات عن الأضرار التي يسببها رجالهم ، للتوقيع عليه ، وكان ذلك بناء على طلب أحد الملاكين الذين حصد له الجنود زرعه وهو لا يزال أخضر ، فهز كوتوزوف رأسه ، ورفض التوقيع على الأمر وهو يقول : « . . . إلى النار ، إلى الموقد ، أقول لك للمرة الأخيرة يا عزيزي ، كل هذه الأمور إلى النار ! ليحصدوا قمحاً ، وليحرقوا خشباً ما شاؤ وا . إنني لا أمر به ولا اجيزه . لكنني لا أغرم أحداً . إنه أمر لا يمكن تجنبه ، لا يستطيع المرء أن يحضر العجة دون أن يكسر البيض » .

تكاثر النصحاء وأصحاب الرأي من حول (كوتوزوف) وكلهم يقدم اجتهاداته وآراءه لما يجب عمله في مجابهة أزمة الحرب . واستمع (كوتوزوف) إلى الجميع بصبر نافد ، حتى إذا ما خلا إلى مستشاره الخاص ، بادأه بالقول : « **إن الناصحين كثر في كل وقت لكن الرجال الحقيقيين ينقصوننا . . . ما علينا . . . اتبع الطريق التي رسمها لك الله . انني أعرف أنها طريق الشرف . هل تذكر حملة تركيا ؟ كم من اللوم وجهوه إلي على سير الحرب وعقد الصلح ! مع ذلك فان المشكلة قد انتهت نهاية طيبة وفي الوقت المناسب. إن كل شيء يتم على ما يرام بالنسبة إلى من يحسن الانتظار . . . آه من الناصحين ؛ الناصحين . . . إننا لو أصغينا لهم جميعاً لما وضعنا حداً للحرب ، ولما عقدنا الصلح ! تبعاً لأقوالهم كان يجب العمل بسرعة ، لكن العمل بسرعة يعني غالباً الاطالة . . . ان الصبر والوقت هما كل ما يلزم . لقد احتللت في تركيا**

عدداً كبيراً من المعاقل باللجوء إلى الصبر والوقت ، وجعلت الأتراك يأكلون لحم الجياد . . . وصدقني انني سأطعم الافرنسيين مثل ذلك . . . صدقني يا عزيزي انه ما من شيء يساوي هذين الجنديين : الصبر والوقت ، انهما اثنان يستطيعان أن يعملا كل شيء . لكن الناصحين لا يتقبلون هذا الرأي ، وهذا هو الأمر السيئ » .

كانت القوات الافرنسية قد اجتاحت سمولنسك ، وانسحبت منها الحامية الروسية ، وهي تحمل معها (ايقونة عذراء سمولنسك النفيسة) ، حتى إذا ما وصلت بانسحابها إلى (بوردينو) تقرر إيقاف الانسحاب . وأقيمت في كنيستها البيضاء صلاة الابتهال ، ووقف الراهب والشماس وجموع المواطنين الروس والجنود وقادتهم . وألقى الكاهن ابتهاله : « أيتها القديسة أم الله انقذي خدامك من البلاء . . . لأنه تبعاً للتعاليم السماوية ، نلجأ كلنا إلى شفاعتك ، ونعتمد عليك كما نعتمد على جدار لا يتزعزع » . وفجأة ، تقهقر الحشد الذي كان متكاتفاً حول الايقونة . ودلت هذه العجلة في الانتظام في صفوف على قدوم شخصية رفيعة المقام ولا ريب . ولم تكن هذه الشخصية إلا (**عظيم الرفعة – كوتوزوف**) الذي جاء ليتفقد الموقع ويعود إلى (تاتارينوفو) . ولما علم بإقامة الصلاة ، أسرع للمشاركة فيها ، وأطل على الجماهير بجسمه الضخم ملفوفاً في قميص طويل يظهر منه ظهره المحدودب وقد بدا رأسه الأبيض الحاسر ، وعينه المطفأة الغارقة ، في وجه رهلٍ . وتقدم بمشيته الغاطسة المتأرجحة ، وتوقف وراء الراهب مباشرة ، ثم رسم إشارة الصليب بحركة آلية ، ولمس الأرض بيده ، وبعد أن أطلق زفرة عميقة ، أحنى رأسه الأصلع . حتى إذا ما انتهت الصلاة ، اقترب كوتوزوف من الأيقونة ، وتهاوى على ركبتيه ، ثم سجد حتى بلغ الأرض . وظل طويلاً دون أن يستطيع النهوض بسبب ثقل وزنه وضعفه حتى تقلص وجهه من الجهد . أخيراً ، نهض وقرب شفتيه بصورة ساذج

طفولي ، وطبع قبلة على الصورة ، ثم انحنى من جديد ولمس الأرض بيده فاقتدى به الجنرالات كلهم ، ثم الضباط ومن بعدهم الجنود فالمتطوعون وهم يتدافعون ويتناحرون ، لاهثي الأنفاس ، يعلو التأثر وجوههم .

ومضى كوتوزوف لمتابعة واجباته .

٢ - كوتوزوف تلميذ سوفوروف :

وصل كوتوزوف إلى أرفع منصب في امبراطورية روسيا . غير أن وصوله كان متأخراً جداً ، فقد بلغ السابعة والستين من عمره . ولم يعد المنصب يثير شهيته . كما أن ظروف تسلمه لهذا المنصب جعلته مغرماً أكثر منه مغنماً . فهل كان حافزه لقبول المنصب هو رغبته في الانتقام من هذا الشاب المغامر (نابليون بونابرت) والذي مرغ شرفه العسكري في التراب عندما ألحق به الهزيمة في (أوسترليتز) ؟ أم تراه قبل الاضطلاع بالمسؤولية في أصعب الظروف وأقساها شعوراً منه بتلبية نداء الواجب واستجابة لمشاعر حب الوطن ؟ أم هو ذلك الشعور بأنه يمتلك من الكفاءة والقدرة ما هو غير متوافر لسواه ، مما يجعله أكثر استعداداً لمجابهة التحدي المفروض على وطنه ؟ . قد تكون هذه العوامل وأمثالها من الحوافز التي حملت (كوتوزوف) على ركوب المركب الخشن ، وعلى كل حال ، فإنه لم يكن باستطاعته ، وهو ابن القائد الذي طالما أخلص في خدمة بلاده أيام بطرس الأكبر ، أن يتقاعس عن اداء الواجب ، أو أن يتهرب من حمل المسؤولية . وقد تكون علاقته بالقيصر (الكسندر) [1]

---

(١) القيصر الكسندر : (ALEXANDRE 1) قيصر روسيا ، ولد سنة ١٧٧٧ وأصبح قيصراً سنة (١٨٠١) ومات سنة (١٨٢٥) . خاض الحرب ضد نابليون في معارك =

علاقة جيدة ، غير أن ولاءه للوطن كان أكبر من ولائه للقيصر . ثم ان ثقة قادته وجنده بقيادته كانت أكبر من كل تقويم ، وقد قرر هؤلاء القادة أن يعهدوا إليه بقيادتهم ، فكان من المحال عليه التخلي عن هذه الثقة .

لقد عاش (كوتوزوف) منذ أن فتح عينيه على الدنيا ، الحياة العسكرية ، وعرف أن (الثقة) هي رصيده الأول والأساسي لنجاحه في حرفته . وقد سلخ أحلى سنوات العمر ، وأجمل أيام الشباب في جهد دائم ، وعمل مستمر ، للحصول على هذه (الثقة) وخرج من ميادين الحرب بأوسمة حقيقية رسمت آثارها على جسده في عاهات مستديمة . ولم تكن هذه العاهات إلا عربون (الثقة) . فهل من المعقول أن يضحي (عظيم الرفعة - كوتوزوف) بهذه الثقة ، استجابة لنداء الجسد الذي بات يجنح للحظة من الراحة بعد رحلة سنوات العمر الشاقة ؟

هنا ، قد يكون من المناسب المرور سراعاً ببعض ملامح الرحلة التي سارها (كوتوزوف) حتى صار (عظيم الرفعة) .

لقد ولد (كوتوزوف) في (بيترسبورغ) سنة ١٧٤٥ . ودخل مدرسة مهندسي المدفعية ولما يتجاوز الثانية عشرة من عمره . حتى إذا ما أمضى أربعة أعوام في خدمته العسكرية ، حصل على رتبة ضابط . ثم أرسل إلى بولونيا حيث أمضى في الخدمة هناك خمسة أعوام (١٧٦٤ - ١٧٦٩) . وأثناء ذلك كانت الجبهة التركية ملتهبة بالصراع الدائم على الحدود التركية - الروسية . فما كان من (كوتوزوف) إلا أن تقدم

= (إيلو EYLAU) و(أوسترليتز) و(فريدلاند) . وتصالح معه في معاهدة (تيلسيت TILSIT) ثم عاد إلى حربه سنة ١٨١٢ . وأعاد (آل بوربون) إلى ملكية فرنسا سنة ١٨١٤ ووقع مع الدول المتحالفة سنة (١٨١٥) ما عرف باسم (الحلف المقدس) .

بطلب إلى القيادة لنقله إلى الجبهة التركية . وتم له ذلك ، فأتيحت له الفرصة لاكتساب الخبرة على يد القائد الروسي الكبير (سوفوروف) .

كان (سوفوروف)[1] قد احتل مكانة مرموقة في روسيا ، واكتسب شهرة واسعة بسبب نشاطاته العسكرية المتنوعة . وقد عرف عنه كونه أستاذاً كبيراً في تربية وخلق الروح المعنوية العالية لدى القوات . وكان أسلوبه في التربية يعتمد على الفهم الصحيح لدور الانسان في الحرب باعتباره العامل الرئيسي فيها . وكان (سوفوروف) يقول : « **إن الجندي إنسان قبل كل شيء ، وليس مجرد آلة ميكانيكية ، وان النصر يتعلق أبداً بالحالة المعنوية للمحارب ، وانه من المحال ربح الحرب بجنود لا عقول لهم** » وقد أعار الأهمية الأولى للتربية الوطنية والاعتزاز القومي والتضحية لتنفيذ الواجب . وأبرز في مؤلفه المشهور (العلم ينتصر) ضرورة الاهتمام الأول لاثارة الشجاعة والجرأة والثبات لدى المحاربين ، وكذلك خلق المبادأة والدهاء والفطنة والثقة في النفس . ودرب (سوفوروف) قواته ليس للعرض بل للحرب ، وقال : « **بأن المحارب خلق للحرب حتى في أيام السلم** » وكان تدريبه في السلم يعتمد على الاعمال الحاسمة والجريئة ، وعلى المناورة في مختلف الأراضي والفصول ، وفي الليل والنهار . وكان يهتم بشكل خاص خلال التدريب بالمشاريع الهجومية ذات الجانبين . . . كما كان يدرب قواته دائماً في الظروف القريبة جداً من ظروف المعركة ، وكان يردد باستمرار : « **ان على القوات الروسية أن تحصل على النصر ليس بكثرة العدد بل**

---

(١) سوفوروف (SOUVOROV — ALEXANDRE) قائد روسي من مواليد موسكو (١٧٢٩ - ١٨٠٠) قضى على الثورة البولونية سنة ١٧٩٤ . وحارب جيوش الثورة الافرنسية في ايطاليا. وقد اعتبره الروس مجدداً لامعاً في فن الحرب ، وصاحب نظريات هامة ، واعترافاً بمآثره القيادية البارزة ، أحدث خلال الحرب الوطنية العظمى (سنة ١٩٤٢) وسام دعي (وسام سوفوروف) كما أطلق اسمه على عدد من المدارس العسكرية السوفييتية .

بالكفاءة ».واعتمد على التدريب الشاق والمستمر ، من أجل رفع مستوى الكفاءة القتالية لقواته ، فكان بذلك يثبت شعاره الذي طالما كان يردده ، وهو : « **الصعب في التدريب سهل في الحرب ، والسهل في التدريب صعب في الحرب** » .

وكان (سوفوروف) استراتيجياً عبقرياً ، إذ كان يعتبر مهمته الأساسية هي تدمير قوات العدو تدميراً كاملاً في الموقعة الميدانية . وكانت مناوراته الجريئة والحاسمة موجهة دوماً لهدف واحد ، هو الهجوم على العدو وتدميره بشكل حاذق . واتصفت استراتيجية (سوفوروف) بالطابع الهجومي الحاسم ، وكانت تهتم بشكل خاص بانتقاء اتجاه الضربة الرئيسية . وكان يركز على هذا الاتجاه القسم الأكبر من القوى والوسائط . وكان الهجوم الحاسم والجريء والهادف إلى توجيه ضربة قوية على الاتجاه الحاسم من القواعد الأساسية في عمل سوفوروف . الذي قال : « **بأن القاعدة الحقيقية في فن الحرب هي الهجوم المباشر والحاسم على أضعف مكان لدى العدو** » .

وقد اعتبر (سوفوروف) أن أهم مبادىء فن الحرب هي : تقدير الموقف ، والسرعة في الحركة ، والهجوم . وأظهر اهتماماً بموضوع (تقدير الموقف) فكان يقول : « **بأنه لا يجوز للقائد أن يربط نفسه بمجريات الظروف والأحوال ، بل يجب عليه إخضاع هذه الظروف لارادته** » . وكان يؤكد على ضرورة دراسة موقف العدو باستمرار ، وبشكل صحيح ، فكتب ما يلي : « **لا يجوز أبداً الاقلال من شأن العدو ، بل يجب دراسة قواته وأساليبه القتالية ، ونقاط ضعفه وقوته** » . ومن أقواله : « ان السرعة والهجوم هما روح الحرب » . ولقد طبق (سوفوروف) نظرياته هذه تطبيقاً عملياً ناجحاً في حروبه ، حيث تميزت تحركاته بالسرعة المذهلة . فعند العمل في (بولونيا) سارت قواته

عام (١٧٧١) وخلال (١٧) يوماً ، مسافة (٧٠٠ كم) أي أكثر من (٤٠) كيلومتراً في اليوم . وفي شمال ايطاليا ، سارت هذه القوات (٨٠ كم) خلال (٣٦) ساعة ، وكان المسير ينفذ ليلاً ونهاراً . وفي ذاك الزمن لم يستطع أي جيش أن يمر بالمسالك والأمكنة التي مرت بها قوات (سوفوروف) والتي مرت بالغابات ، واجتازت المستنقعات والجبال .. وكان سوفوروف يقول : « **حيث يمر الوعل يمر الجندي ، وحيث يمر الجندي يمر فوج بأكمله** » . وكانت مسيراته تتصف بالدقة والتنظيم ، وللحصول على إمكانية تنفيذ المسير السريع ، لم يكن سوفوروف يتقيد بأسلوب (تنظيم المستودعات التموينية) الذي كان سائداً في عصره ، وإنما كان يعتمد على التموين المحلي وهذا ما زاد من خفة حركته ، ومكنه من تنفيذ الضربات المباغتة والحاسمة .

وكان (سوفوروف) يقدر عامل الزمن تقديراً عالياً ، فكان يقول : « **إن الزمن أغلى من كل شيء . فدقيقة واحدة قد تقرر مصير المعركة ، وساعة واحدة قد تقرر مصير الموقعة ، ويوم واحد قد يقرر مصير الدولة** » .

ويعتبر الروس أن (سوفوروف) كان قائداً مجدداً ومبدعاً في (فن الحرب) لأنه رفض الأخذ بالتكتيك الخطي الذي لم يعد يتلاءم مع الشروط الجديدة للعتاد والتسلح ، وأخذ بتكتيك جديد هو (تكتيك الارتال - أو - التكتيك الضارب) المبني على الحسمية وعلى المناورة العميقة ، وعلى ربط النار بضربة الحراب وعلى التعاون بين صفوف القوات وكذلك بين أجزاء الترتيب القتالي. ولقد توصل القائد الكبير (سوفوروف) إلى الربط الماهر بين المناورة والنار وضربات الحراب . وقد أكد التكتيك الضارب المبني على الضربات الساحقة للحراب تفوقه الكامل على التكتيك الخطي . وكانت توصيات (سوفوروف) عند وضع

خطة الحرب هي التالية .

١ - لا شيء سوى الهجوم .

٢ - السرعة في الحملات والحسمية .

٣ - التقدير الصحيح للموقف وتجنب الجمود والتقليد .

٤ - منح القائد السلطة الكاملة .

٥ - الهجوم على العدو وضربه في أرض المعركة .

٦ - عدم إضاعة الوقت بالحصار ، والاستيلاء على القلاع والحصون بالاقتحام أو المعركة المكشوفة .

٧ - تجنب توزيع القوى لحراسة النقاط المختلفة إذا تجاوزها العدو ، والسماح لهذا العدو بالتقدم حتى يتم تدميره في النهاية .

٨ - عدم إضاعة الجهود بالمناورات التي لا طائل تحتها ، أو في المسيرات المعاكسة التي لا تناسب إلا خريجي الأكاديميات المساكين .

ذلك هو القائد الذي تتلمذ (كوتوزوف) على يديه ، والذي تأثر به أشد التأثر ، سواء في تفكيره ، أو في طريق إدارته للحرب .

لقد وصل كوتوزوف إلى الحدود التركية في سنة (١٧٧٠) . وكانت القوات الروسية في تلك الفترة تحت قيادة قائد آخر اسمه (روميانتسوف) اكتسب شهرة نافس بها شهرة (سوفوروف) . وكانت الجبهة التركية قد أصبحت هي الجبهة الرئيسية لعمل القوات الروسية . ذلك أن النصف الثاني من القرن الثامن عشر عرف تطوراً كبيراً في ملكية النبلاء الروس للأراضي ، كما استمر التطور الصناعي والتجاري . الأمر الذي أدى إلى ظهور أزمة اجتماعية واقتصادية ، فأخذت الحكومة القيصرية في البحث عن مخرج لمأزقها ، لم تلبث أن

وجدته في تفجير الصراع مع تركيا . فنشطت السياسة الخارجية للامبراطورية الروسية ، وعملت على توجيه الحرب طوال عشرين عاماً . واستطاعت روسيا في حربيها (١٧٦٨ - ١٧٧٤) و(١٧٨٧ - ١٧٩١) ، تحقيق انتصارات ضخمة ضد القوات العثمانية ، واستولت على جزيرة القرم والقسم الجنوبي من أوكرانيا .

عمل (كوتوزوف) في البداية تحت قيادة (روميانتسوف) في الحروب التركية - الروسية . والتي كان من أبرزها (موقعة كاجول - ١٧٧٠) ومع انتهاء هذه المرحلة من الحرب (سنة ١٧٧٤) أصيب كوتوزوف إصابة بالغة في رأسه ، وفقد إحدى عينيه . ثم عاد إلى الجبهة - بعد نقاهته - ليخدم تحت قيادة سوفوروف طوال ستة أعوام (حيث دارت مجموعة من المعارك للاستيلاء على القرم (١٧٨٧ - ١٧٩١) وكان من أبرزها (كينبورن وفوكشاني وريمنك واسماعيل) . وكان من أبرزها حملة (١٧٩٠) التي انتهت بالاستيلاء على مدينة (اسماعيل) .

لقد بدأت هذه العملية عندما تلقى (سوفوروف) أمراً بالسفر إلى مدينة اسماعيل يوم ٢٥ - تشرين الثاني - نوفمبر - ١٧٩٠ ، واستلام قيادة القوات فيها . ويذكر أن المجلس الحربي للقوات الروسية ، كان قد اجتمع في يوم ٢٦ تشرين الثاني - نوفمبر - قرب مدينة اسماعيل ، واتخذ قراراً بوقف الأعمال الهجومية ضد مدينة اسماعيل الحصينة نظراً لفشل كل المحاولات لاحتلالها . وبدأت بعض الوحدات الروسية بالانسحاب تنفيذاً لهذا القرار . غير أن وصول (سوفوروف) في يوم ٢ كانون الأول - ديسمبر - قلب الموقف رأساً على عقب ، إذ أصدر القائد الجديد - سوفوروف - أمره بالاستعداد فوراً للهجوم .

كانت مدينة (اسماعيل) مدينة محصنة قوية وقد بنيت عام (١٧٧٤) وفق أحدث نظريات التحصين الهندسي ، وقد أفاد

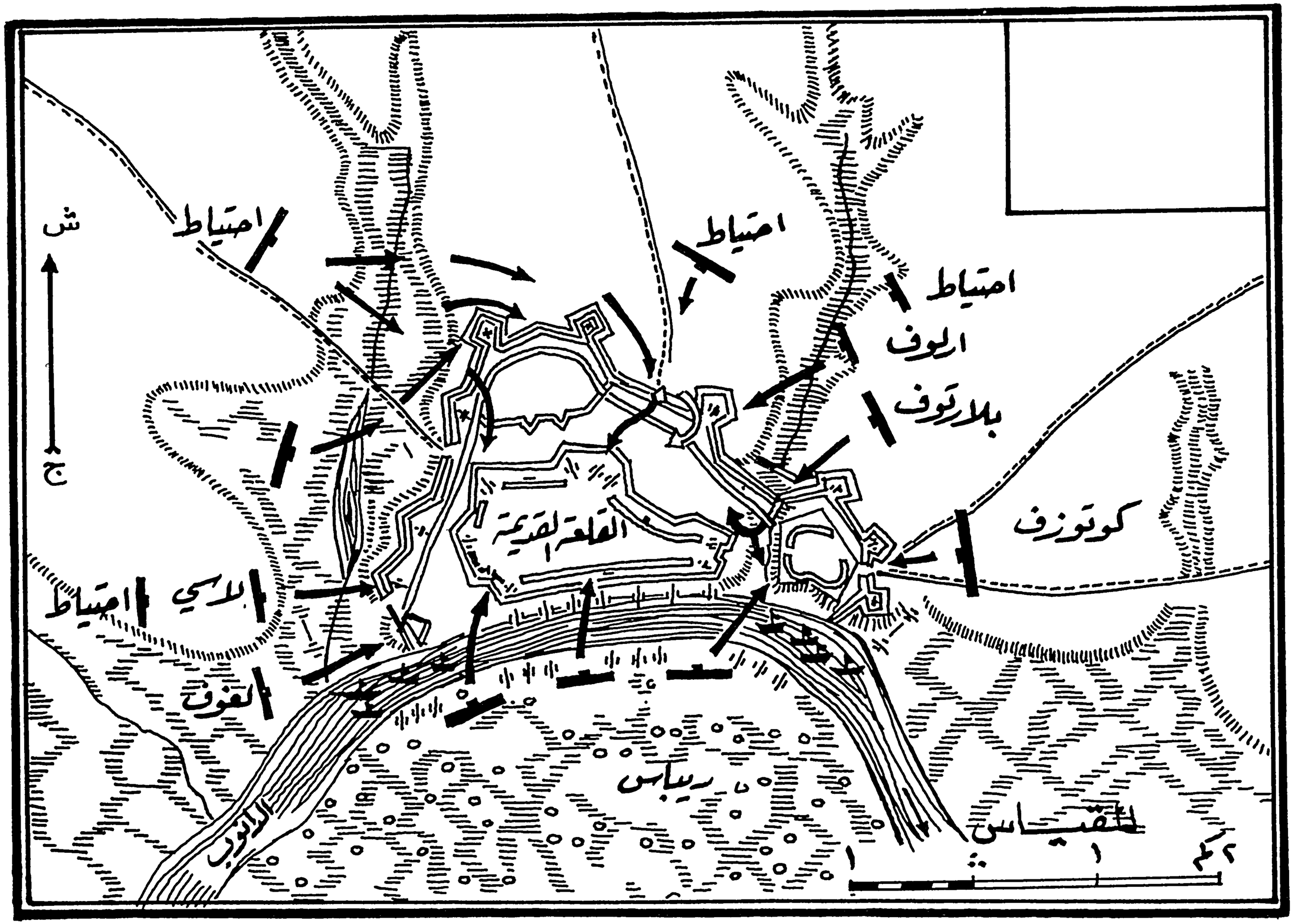

اقتحام مدينة اسماعيل عام ١٧٩٠

العثمانيون في بنائها من موقعها الحصين طبيعياً ، فوق هضبة منحدرة على الدانوب بميل حاد . وكان الجدار الخارجي للمدينة يمتد على مسافة (٦ - ٧) كم . ومن (٧) حصون حجرية وترابية و (٤) بوابات تحيط بالمدينة من ثلاث جهات من الشمال والغرب والشرق . وكان القسم الجنوبي من المدينة محميا بالدانوب الذي يبلغ عرضه هنا حتى (٥٠٠ م) . وبلغ ارتفاع الجدار الخارجي من ٦ - ٨ أمتار . وكان الخندق المحيط بالمدينة بعرض (١٢م) . وعمق من (٦ - ١٠ م) . وكان هناك عدد من الأبنية الحجرية المنيعة في داخل المدينة . وكان تعداد القوات التركية في اسماعيل يقدر بـ (٣٥) ألف جندي . أما القوات الروسية فكان عددها حوالى (٣١) ألف رجل .

كان جيش دار الخلافة الاسلامية ، في تلك الفترة ، من الجيوش العالمية القوية ، وكانت الخيالة - الفرسان - تشكل القوة الضاربة الرئيسية . وقد استطاعت قيادة الجيش العثماني خلال الحرب العثمانية - الروسية حشد (١٠٠) ألف مقاتل في معركة (ريمنيك) . وكانت الخيالة تعمل خلال المعركة بشكل سريع وحاسم . كما كانت القوات العثمانية - الاسلامية تعتمد على بناء المعسكرات المحصنة خلال المعارك . وأما المشاة ، فكانت تتمركز في الحفر والخنادق ، ومنها كانت تخوض المعركة ، ومنها كانت تنطلق أيضاً في هجومها المضاد على قوات العدو . وكانت الخيالة تهاجم العدو بمجموعات كبيرة . حيث كان عدد الفرسان يزيد على عدد المقاتلين في الصفوف الأخرى .

كان الوقت قليلاً أمام (سوفوروف) لتحضير الهجوم على مدينة (اسماعيل) . إلا أنه بالرغم عن ذلك فقد استطاع قبل (٩) أيام من الاقتحام أن يعبىء كافة القوى والوسائط المتوافرة لديه . وعمل على تدريب القوات على عملية الاقتحام ببناء جدار مشابه لجدار المدينة ،

وبحفر خندق أمامه مشابه للخندق الحقيقي . وأخذ بتدريب القوات ليلاً على عملية اقتحام المدينة والقتال فيها .

حدد (سوفوروف) يوم ١١ كانون الأول - ديسمبر - ١٧٩٠ موعداً للهجوم . كما قرر اقتحام المدينة من عدة جهات في وقت واحد : بستة أرتال (١٩,٥٠٠) رجل من ناحية البر ، وبأرتال ثلاثة (بامرة ريباس) من جهة الدانوب (٩) آلاف رجل ، وقد وجه الضربة الرئيسية على القسم القريب من النهر ، حيث ركز هناك ثلثي القوى (قوات ريباس ، وارتال كوتوزوف ، ولفوف ، ولاسي) . وكان ترتيب القتال كما يلي : في الأمام الرماة ، وخلفهم فرق العمال (المهندسين) مع المعاول والرفوش والبلطات . ومن ثم أرتال المشاة ، وخلف هذه الارتال وضع الاحتياط على شكل مربعات بمهمة صد هجوم الخيالة التركية في حال هجومها من القلعة . وكان ترتيب الأسطول النهري أيضاً على خطين ، وتألف من (١٤٥) زورقاً مع قوات الانزال . وكان هناك حوالى (٥٨) زورقاً كبيراً في الخط الثاني مهمتها تغطية انزال القوات على الشاطىء بنيران المدفعية :

قامت المدفعية الروسية المكونة من ستمائة مدفع تقريباً بقصف تحصينات مدينة (اسماعيل) وأسوارها طوال يوم ١٠ كانون الأول - ديسمبر - وفي الساعة (٣٠٠) من فجر يوم ١١ كانون الأول - ديسمبر - تجمعت القوات في المناطق المحددة لها . وأعطيت شارة بدء الهجوم بواسطة الشهب . وفي الساعة (٥٣٠) - قبل أول ضوء - انطلقت القوات للاقتحام . وعند اقتراب الارتال من القلعة ، فتحت المدفعية التركية نيران أكثر من (٢٥٠) مدفعاً على قوات العدو الروسي .

استمرت معركة استيلاء القوات الروسية على الجدار الخارجي

للمدينة حتى الساعة (٨٠٠) صباحاً قام خلالها الأتراك بهجمات معاكسة قوية من القلعة . وقد استمر الهجوم بشكل ناجح أيضاً ، من جهة الدانوب ، إذ استطاعت ثلاثة أرتال الاستيلاء على مواقع القوات التركية بعد اشتباكات دموية قاسية ، ودخلت المدينة . وقد تم تدعيم قوات الانزال بنيران مدفعية الزوارق الثقيلة .

بدأت معركة رهيبة بالشوارع ، بعد سقوط التحصينات المحيطة بالمدينة ، وذلك حتى الساعة (١٦٠٠) وقامت القوات العثمانية بالدفاع بثبات عن المدينة ، وقاتلت بحماسة لا توصف عند كل شارع ، وفي كل ساحة وبيت ، وزجت كل الاحتياطات في القتال الأمر الذي أدى إلى تحول القتال إلى مذبحة جماعية . وأظهر (كوتوزوف) كفاءة عالية في إدارة حرب الشوارع ، كما أظهر شجاعة فائقة مما دفع جنوده لخوض الصراع بحماسة كبيرة حتى أمكن تحقيق النصر .

انتهت المعركة ، وخسرت القوات العثمانية فيها (٢٦) ألف قتيل و (٩) آلاف جريح . كما خسرت كل مدفعيتها وحوالى (٤٢) مركباً . ومقابل ذلك ، خسرت القوات الروسية (١٠) آلاف رجل منهم (٤) آلاف قتيل و (٦) آلاف جريح ، وقد قتل (٤٠٠) ضابط من أصل (٦٥٠) ضابطاً . وقد تم تعيين (كوتوزوف) حاكماً عاماً على المدينة ، نظراً لما أظهره من الكفاءة العالية في قيادة رتله ، وشجاعته الفائقة عند الاقتحام .

لم يتوقف الصراع عند حدود استيلاء القوات الروسية على مدينة اسماعيل . إذ قامت القوات البحرية الروسية - أسطول البحر الأسود - بتدمير الأسطول العثماني عند بحيرة تندرا . وتولى (كوتوزوف) مفاوضة (الصدر الأعظم) العثماني على شروط السلام . وأمكن في النهاية توقيع معاهدة الصلح (عام - ١٧٩١) بين روسيا وتركيا ، حيث

حصلت روسيا على ممر إلى البحر الأسود . وتم تعيين (كوتوزوف) على أثر ذلك سفيراً لروسيا في بلاط السلطنة العثمانية .

تنقل بعد ذلك (كوتوزوف) في عدد من الأعمال (الديبلوماسية) و (العسكرية) منها تعيينه حاكماً لفنلندا ثم مديراً للكلية الحربية في (بيترسبورغ) حتى إذا ما أقبلت سنة (١٨٠٢) حدث صدام بين (كوتوزوف) و (القيصر) أدى إلى اعتزاله وإقامته في قريته .

غير أن القيصر الاسكندر الأول (أو الكسندر) لم يكن ينكر على السيف المغمد كفاءته وقدرته ، فعندما انفجرت الحرب في أوروبا ضد (نابليون بونابرت) تم استدعاء (كوتوزوف) وإخراجه من عزلته وتعيينه قائداً للقوات الروسية المكلفة بالتعاون مع الحلفاء . وكان نجم (نابليون) لا يزال في صعود ، فانتصر في (اوسترليتز) سنة (١٨٠٥) وأصيب كوتوزوف بصدمة ، حيث أثارت هذه الهزيمة التي لم يكن كوتوزوف مسؤولاً عنها غضب القيصر الذي عمل على تعيين كوتوزوف في عمل إداري هو (حاكم كييف) .

٣ - تطور الجيوش :

استطاع (كوتوزوف) استعادة ما فقده من القدرة في (أوسترليتز) عن طريق ما حققه من انتصارات في مولدافيا ، بعد انفجار الحرب الروسية - التركية ، والتي انتهت باستيلاء القوات الروسية على (نيقوبوليس) و (سلستره) و (روسجق). غير أن ظهور احتمال قيام نابليون بالحرب ضد روسيا ، دفع القيصر للتفاوض مع العثمانيين ، وقام كوتوزوف بدوره حتى أمكن التوقيع على صلح

(بوخارست) في (٢٨ - أيار - مايو - ١٨١٢) وهو الصلح الذي تم فيه اعتراف الباب العالي (بنهر البروت) حداً فاصلاً بين بلاد الخلافة الاسلامية والبلاد الروسية . والتزم فيه قيصر روسيا بالاعلان عن رغبته في إيقاف كل توسع جديد في المستقبل على حساب البلاد الاسلامية .

يظهر من خلال ذلك أن هناك دولتين قاريتين كانتا تقودان الحروب التوسعية هما فرنسا وروسيا ، وكانت انكلترا تقود الحرب البحرية وتمارس دورها التقليدي في (ضرب القوى بعضها ببعض) مستثمرة كافة التناقضات لتحقيق أهدافها . ونتج عن ذلك تطوّر كبيرَ سواء في تنظيم الجيوش أو في إدارة الحرب أو في الأساليب التعبوية - التكتيكية - وقد يكون من المناسب استعراض بعض ملامح هذا التطور بين القوتين الرئيسيتين اللتين قدر لهما خوض حرب حاسمة في حملة سنة ١٨١٢ حيث ارتبط اسم القائدين الكبيرين بالتحول الحاسم - وهما كوتوزوف مقابل نابليون .

أ- تطور القوات الروسية :

استمرت القوات الروسية تطوراً ثابتاً ، حتى بلغ عدد أفراد القوات البرية الروسية قبل سنة (١٨١٢) بما فيها القوات الميدانية وحاميات المدن والقوات غير النظامية (القوزاق) وقرعات الخدمة الالزامية بما يقارب (٦٠٠) ألف رجل . وبلغ التعداد في القوات الميدانية حوالى (٤٨٠) ألف رجل و(١٦٠٠) مدفع . وكان الجيش النظامي يقسم إلى فيالق ، عدد أفراد الفيلق منها حوالى (٢٠) ألف رجل ، ثم إلى فرق وألوية . وكانت القوات البرية تقسم إلى جيوش ميدانية حسب عملها في مسارح العمليات المختلفة (انظر مخطط تنظيم الجيش الروسي) .

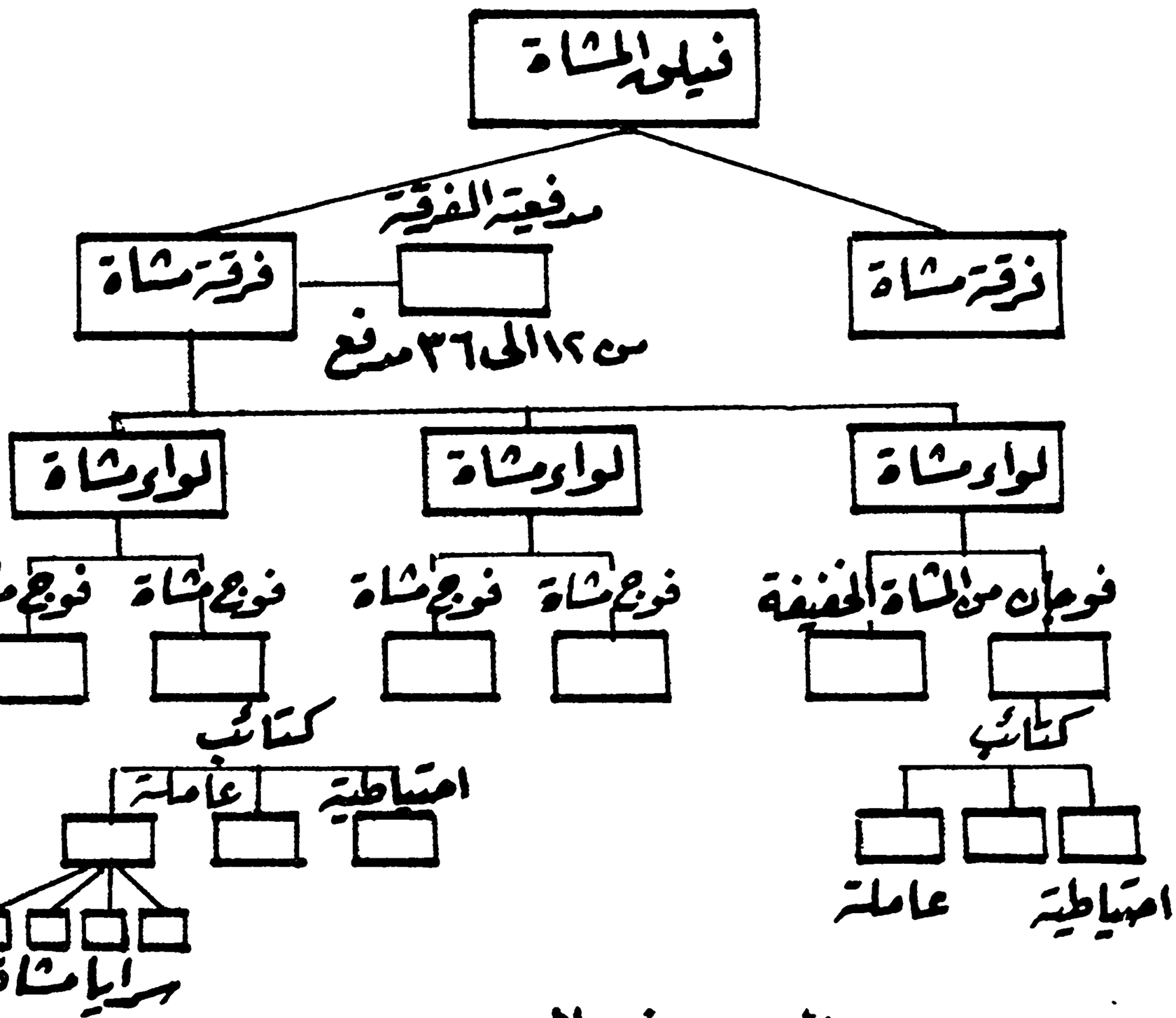

تنظيم الجيش الروسي

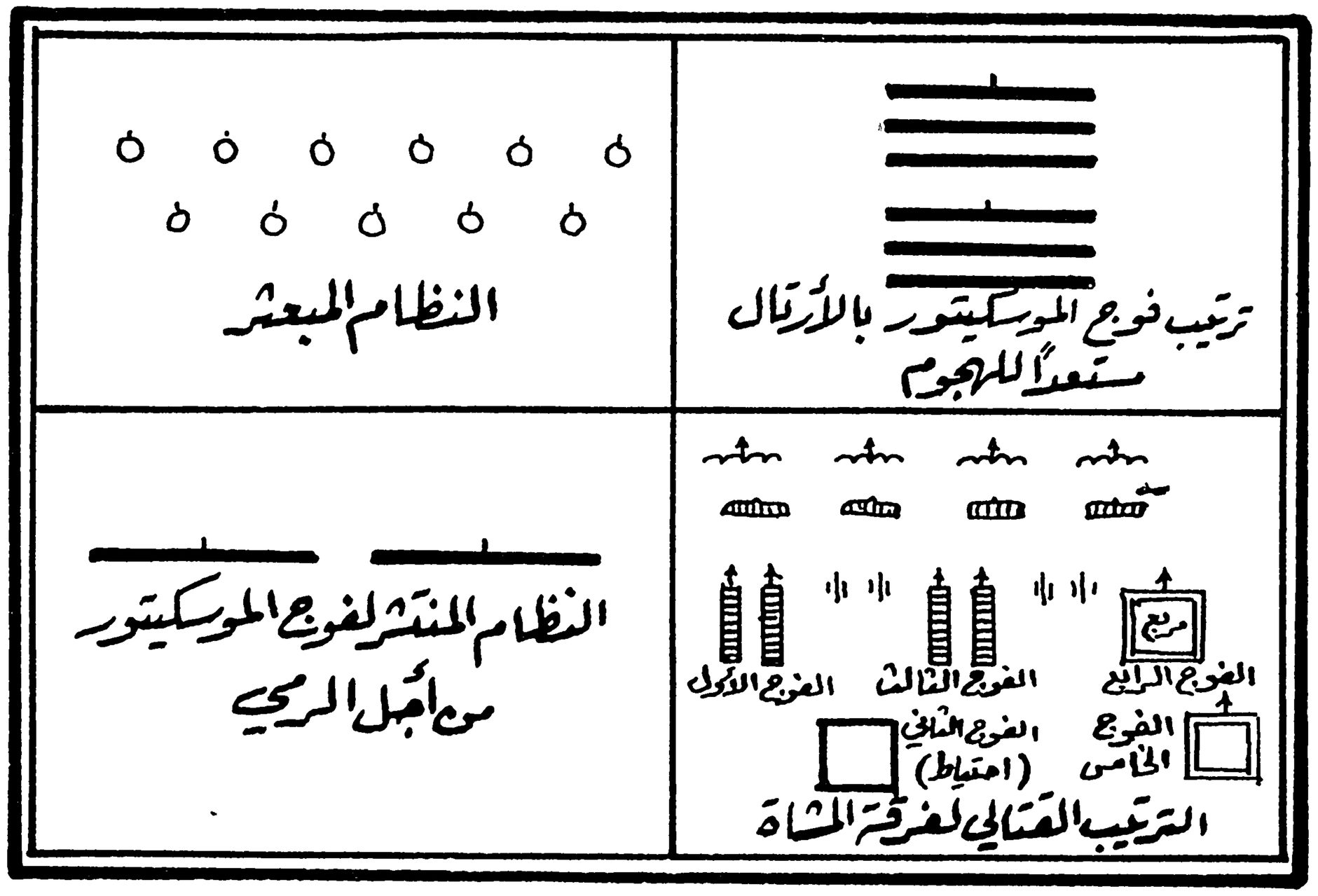

(التراتيب القتالية للمشاة الروسية)

تبع تطور القوات الروسية في مجال التنظيم ، تطور مماثل في طرائق القتال على مستوى العمليات وعلى المستوى التكتيكي - التعبوي - وذلك للافادة من قوة النيران ولتحقيق التكامل بين قتال الصدمة (الحراب) والرمي بالأسلحة (النار) . فزال النظام الخطي ليحل محله بصورة نهائية نظام الارتال الضاربة (انظر مخطط التراتيب القتالية للمشاة الروسية) .

كانت القوات الروسية عند بدء عدوان نابليون على الحدود الروسية الغربية ، مكونة من (٢٠٠) إلى (٢٢٠) ألف رجل ، مع حوالى (٩٥٠) مدفعاً . وقد قسمت هذه القوات إلى ثلاثة جيوش . الجيش الغربي الأول بامرة وزير الحربية (باركلاي دو تولي) وتعداده حوالى (١٢٥) ألف رجل مع (٦٥٠) مدفعاً . وكان الجيش الثاني بامرة (باغرايتون) وتعداده حوالى (٤٥) ألف رجل مع (٢٢٠) مدفعاً . أما الجيش الثالث فكان بقيادة الجنرال (تورماسوف) وتعداده حوالى (٤٥) ألف رجل و (١٧٠) مدفعاً ، هذا بالاضافة إلى فيلقين احتياطيين تمركز الأول قرب (توربتص) والثاني قرب (موزير) .

ب - تطور القوات الافرنسية :

لقد تطورت القوات الافرنسية بنتيجة الثورة وما رافقها من تطور في آفاق الصراع السياسي والمسلح . ومرت الثورة الافرنسية - على ما هو معروف - بثلاثة أدوار أساسية : الدور الأول يمتد من انتصار العصيان المسلح والاستيلاء على سجن الباستيل (١٤ تموز - يوليو - ١٧٨٩) وحتى (١٠ - آب - أغسطس - ١٧٩٢) حيث تمت الاطاحة بالملكية . أما الدور الثاني فيبدأ من نهاية الدور الأول ويمتد حتى

العصيان المدني في باريس (من ٣١ - أيار - مايو - إلى ٢ حزيران - يونيو - ١٧٩٣) حيث تولى الجيروندیون الحكم في هذه الفترة . وأعقب ذلك الدور الثالث - الذي يمتد حتى ٢٧ تموز - يوليو - ١٧٩٤) وفيه استلم اليعاقبة المتطرفون الحكم في فرنسا . ثم جاء التحول باستلام (المديرين - الديريكتوار) الحكم في فرنسا والذي امتد حتى سنة ١٧٩٩ . وانتهى بانقلاب نابليون (الحكم القنصلي) .

خلال هذه الفترة تشكلت سبعة أحلاف في الدول الاوروبية ، وعلى رأسها بريطانيا ، بهدف القضاء على الثورة الافرنسية ، ثم على حكم نابليون . وقد تشكل الحلف الأول من بريطانيا وبروسيا وبدأ أعماله عام ١٧٩٢ . وتشكل الحلف الثاني عام ١٧٩٨ . والثالث عام ١٨٠٥ والرابع عام ١٨٠٦ والخامس عام ١٨٠٩ والسادس عام ١٨١٣ والسابع عام ١٨١٥ .

لقد كان تطور القوات الافرنسية مرتبطاً بصورة أساسية (بنظام التجنيد) . انقض رعاع باريس على الباستيل يوم (١٣ - تموز - يوليو - ١٧٨٩) وذبحوا حاميته . وعندما نقل إلى (لويس السادس عشر) هذا النبأ . قال متعجباً : « إذن فهناك تمرد ! » فأجابه دوق ليانكور : « كلا يا مولاي ، إنها ثورة ! » وعندما وصل نبأ توقيف لويس السادس عشر في (فارين) [٣] يوم ٢١ حزيران - يونيو - ١٧٩١ إلى (ليوبولد الثاني) [٤] هذا التوقيف الذي وضع حداً لفراره من فرنسا صرح : « بأن هذه البادرة السيئة ، أساءت إلى شرف كل الملوك »

---

(٣) فارين : (VARENNES — EN — ARGONNE) بلدة تقع على نهر الموز في مقاطعة فردان (VERDUN) .

(٤) ليوبولد الثاني : (LEOPOLD II) من مواليد فيينا سنة ١٧٤٧ شقيق ماري انطوانيت - امبراطور المانيا (١٧٩٠ - ١٧٩٢) .

ودفعت ملك بروسيا (غليوم الثاني) إلى تقديم المساعدة إلى لويس السادس عشر وإلى الملكة (ماري انطوانيت) شقيقة ليوبولد الثاني . وكنتيجة لما حدث أعلنت فرنسا الحرب على النمسا في ٢٠ نيسان - ابريل - ١٧٩٢ . وكان ذلك ايذاناً لتحول من نموذج الحرب المحدودة التي باتت عتيقة وبالية ، إلى الحرب الشاملة بصورتها الجنينية المبكرة . وكان أول اختبار لهذا التحول هو ميدان (فالمي)[٥] يوم ٢٠ أيلول - سبتمبر - ١٧٩٢ .

لقد اكتسبت معركة (فالمي) أهميتها التاريخية ، لا بسبب قوة الاشتباك فيها ، ولا بسبب وصول المعركة إلى مرحلة الحسم ، وإنما بسبب حجم القوى التي اشتركت فيها . وفي الواقع . فعندما تقابل القائدان الافرنسي والبروسي ، حاول القائد البروسي المناورة بقواته لطرد القوات الافرنسية من مواقع فالمي ومرتفعاتها . وكانت مناورته رائعة حتى أن كلا الجيشين كان يواجه قاعدة الآخر عندما دارت المعركة . ومن الناحية العملية لم يحدث قتال فيما عدا التراشق العنيف بالمدفعية . وفي نهاية القتال ، وفي اللحظة التي كان البروسيون يستعدون فيها للانقضاض على ذرى هضبة (فالمي) جمع القائد البروسي فجأة مجلس الحرب ليصدر القرار الوحيد الذي اتخذه خلال الحملة . وكان هذا القرار هو التالي :

(اننا لن نقاتل هنا) .

وبعد ذلك عسكر بجيشه . ثم سحبه بمهارة من آخر ساحة من

---

(٥) فالمي : (VALMY) قرية في (المارن) قريبة من سانت مينهولد : — SAINTE MENEHOULD وفيها انتصر الجيش الافرنسي بقيادة (ديموريه : DUMOURIEZ) و (كليرمان : KELLERMANN) على الجيش البروسي الذي كان يقوده الدوق شارل غليوم فريدريك دوبرانسويغ سنة ١٧٩٢ .

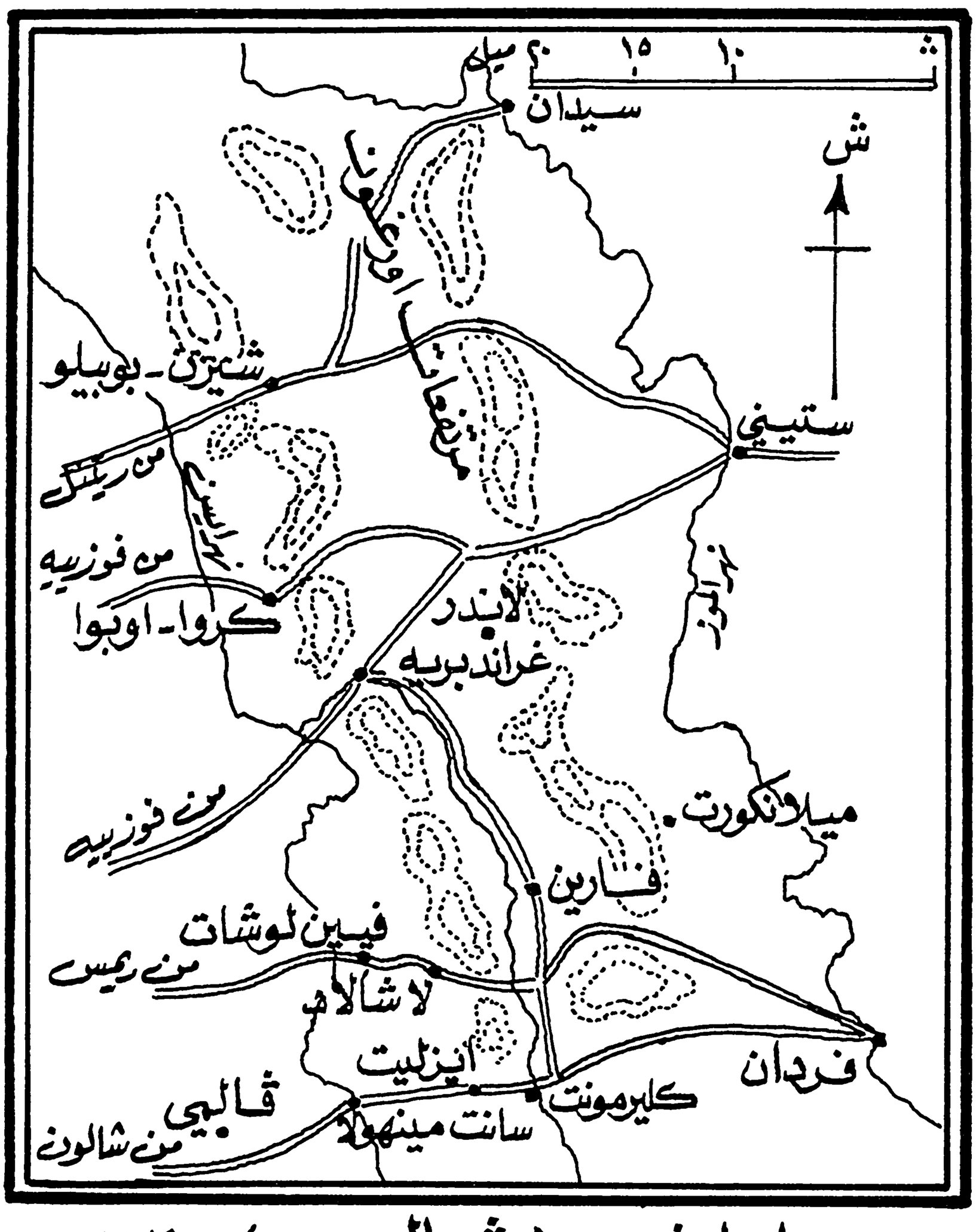

ميدان ارغون (قالمي) ۱۷۹۲

ساحات القتال في ليل (٣٠ - أيلول - سبتمبر - ١٧٩٢) بدون أي اشتباك ، وبدون أي سفك للدماء .

لقد كان الشاعر الالماني (غوته) يحضر هذه المعركة إلى جانب البروسيين ، وعندما ارتسمت أمامه لوحة القوات على الطبيعة ، أطلق مقولته الشهيرة :

« من هذا المكان ، وفي هذا اليوم ، يبدأ عصر جديد في تاريخ العالم وفي وسعكم جميعاً أن تقولوا انكم كنتم حاضرين عندما أشرق هذا العصر » .

وجاء فوش - الجنرال الافرنسي في الحرب العالمية الأولى - ليقول بعد مائة عام في وصف هذه المعركة : **« انتهت بمعركة فالمي حروب الملوك وبدأت حروب الشعوب »** .

انهال الفأس في يوم ٢١ كانون الثاني - يناير - ١٧٩٣ **« فأحدث صوتاً صامتاً مكتوماً وحسمت حياة ملك »** . وكانت حياة الملك التي حسمت هي حياة لويس السادس عشر وبحسمها صاح دانتون : **« إن تحالف الملوك يتهددنا . ونحن نلقي بين أقدامهم برأس ملك كرهينة للمعركة »** . ولكن أين هم الجنود الذين ترتب عليهم تنفيذ هذا التحدي المحزن ؟ لم يكن هناك سوى عدد قليل منهم . فأصدر (مجلس التوفيق - كونفانسيون) مرسوماً بتجنيد (٥٠٠) ألف جندي بصورة الزامية . وبسبب هذا انفجر العصيان في (الفاندي) [٦] وسارت

---

(٦) الفاندي : (VENDÉE) مقاطعة افرنسية تضم حوض بواتييه (POITOU) وقد اشتهرت بثورتها ضد الثورة الافرنسية والتي أطلق عليها اسم (حرب الفاندي) وقد قمعت الثورة الافرنسية تمرد الفاندي بوحشية . ويذكر عنها ما كتبه الجنرال - ويسترمان - في تقريره : « لقد سحقت الأطفال تحت سنابك الخيول ، وذبحت النساء حتى لا يلدن لصوصاً =

الجمهورية إلى الحرية على جثث رعاياها . وكانت هذه الخطوة هي المرحلة الأولى من مراحل التجنيد .

أصدر (مجلس التوفيق) مرسوماً يوم ٢٣ - آب - أغسطس - ١٧٩٣ ، أصبح التجنيد العام بموجبه إجبارياً . وقد نصت المادة الأولى من هذا القانون على ما يلي :

« يعتبر كل الافرنسيين مصادرين بصفة دائمة ، من هذه اللحظة ، وإلى أن يتم طرد كل الأعداء من أرض الجمهورية .

وسيذهب الشبان إلى القتال ، بينما يقوم الرجال المتزوجون بصنع الأسلحة ، ونقل التموين والاعاشة ، وتعمل النساء بصنع الألبسة والخيام والخدمة في المستشفيات . أما الأطفال فيعملون على تحويل الملابس القديمة إلى ضمادات صحية . وينقل المتقدمون في العمر إلى الميادين العامة لتأجيج شجاعة المقاتلين ، وإثارة الحقد ضد الملوك ، وللدعوة إلى وحدة الجمهورية . وتخصص الأسلحة ذات العيارات المناسبة لتسليح المواطنين الذين سيسيرون لملاقاة العدو . أما رجال الأمن الداخلي فسيسلحون ببنادق الصيد وبالسلاح الأبيض . وتصادر كل خيول الركوب لصالح قطعات الخيالة . أما خيول الجر التي لا تستخدم في الزراعة فانها ستجر المدفعية وعربات التموين . . . » .

لقد أثارت هذه المادة حماسة النواب إلى درجة هائلة ، حتى انهم طلبوا من مقرر المجلس إعادة قراءتها كاملة مرتين . وفي كل مرة منها كانوا يهللون لها ويصفقون . وهم يؤمنون بإخلاص بأنهم يحررون أنفسهم من الطغيان . وهذا ما أكده أحد النواب في رده على سؤال :

= بعد الآن . ولم آخذ أسيراً واحدا يوجه إلي اللوم . فقد أبدتهم كلهم . ان الطرق مزروعة بالجثث . ونحن لا نقبل مبدأ الأسر ، لأننا لو أسرناهم ، لاضطررنا إلى تغذيتهم بخبز الحرية » .

ماذا تريدون من هذه المصادرة ؟ فكان الرد : « قرعة من المجندين ، إن القرعة الافرنسية المجندة من أجل حريتها تتألف من كل المواطنين الافرنسيين ، ومن كل صناعاتهم ومن كل أعمالهم ، ومن عبقريتهم . فلنعلن حقيقة كبرى : ان الحرية أصبحت أمراً محققاً لكل المواطنين ، ويدين البعض لها بصناعتهم ، والبعض الآخر بثروتهم ، ويدين الكل لها بالدم الذي يجري في عروقهم » .

وهكذا صدر القانون الذي ليس هناك قانون - على الأرجح - من بين قوانين العالم ، ما كان له أثر ، أو كان مخصصاً ليمارس اثراً بعد صدوره على مستقبل البشرية ، أكثر من هذا المرسوم الافرنسي المجهول تقريباً .

استخدمت الثورة (الدعاية) لجذب آلاف المجندين وإرسالهم إلى ميادين القتال . وفي ٢٥ نيسان - ابريل - ١٧٩٢ ، ولأول مرة ، أخذ الجميع يغنون في فرنسا نشيد (المارسيليز) بهدف إثارة حماسة الجماعات . ولم يهمل الزعماء - الديماغوجيون - أية حركة من الحركات التي تستطيع إثارة المزاج القتالي للجنود ، وتغذية الحقد على أعدائهم إلا اتبعوها . ذلك انه بدون الحقد لا يمكن أن يكون هناك دعاية . وهذا ما ساعد على تعديل أسس الحرب . ذلك أن تكاليف الجيوش كانت مرتفعة جداً . غير أن تطبيق نظام التجنيد جعل سعر الجنود منخفضاً . وكانوا في الماضي يتجنبون المعارك ، فأصبحوا بعد التجنيد يفتشون عنها . إذ مهما كانت الخسائر كبيرة ، فإن في وسعهم تعويضها وذلك بإصدار مراسيم الدعوة إلى خدمة العلم لافراد جدد . وفي العام (١٨٠٥) كان نابليون يتبجح أمام مترنيخ (في شونبروم) بأنه يستطيع أن يسمح لنفسه بخسارة (٣٠) ألف جندي شهرياً . فقد كان سعر الجنود رخيصاً برخص روث الحيوانات .

استمر وجود الجيش الملكي خلال المرحلة الأولى من الثورة ، وتعرض لتبدلات هامة في تكوينه . أما قوات الشرطة فقد ألغيت تماماً . وفي الوقت ذاته ، تم تشكيل (الحرس الوطني) منذ الأيام الأولى للثورة في عام ١٧٨٩ . وكان هذا الحرس خاصاً بالثورة ومستقلاً عن الملك ، وقد شكل في باريس - أولاً - ثم انتشر تنظيمه في كافة المدن الأخرى . وقد عبىء هذا الحرس من المتطوعين الذين كانوا يؤدون الخدمة مجاناً ويعيشون في بيوتهم ، ويشترون السلاح والألبسة من حسابهم الخاص . ونظم (الحرس الوطني) في سرايا وكتائب . وكان لكل كتيبة علم ذو ثلاثة الوان (علم الثورة) كتب عليه من أحد الجانبين (الشعب الافرنسي) ومن الجانب الآخر (الحرية أو الموت) . وكان رجال الحرس يتدربون أيام الآحاد . وازداد تعدادهم مع تقدم الثورة ففي العام (١٧٩٠) بلغ هذا التعداد بضع مئات الألوف من الرجال . وفي منتصف العام (١٧٩١) بلغ هذا التعداد حوالى المليونين . وقد تطلب الخطر العسكري من جانب النمسا وبروسيا في النصف الثاني من العام (١٧٩١) زيادة تعداد الجيش الدائم عن طريق إنشاء كتائب المتطوعين الذين كانت تعبأ من متطوعي رجال الحرس الوطني . وكانوا يجندون لمدة عام واحد بناء على عقد موقع معهم ، ويتناولون راتباً شهرياً . وكانت مهمة كتائب المتطوعين الاشتباك مع العدو الخارجي ، أما الحرس الوطني فكانت مهمته العمل داخل فرنسا ، وكان يعتبر بمثابة احتياط للقوات العاملة .

حدثت تطورات هامة في تكوين الجيش الافرنسي خلال الدور الثاني للثورة . إذ دمجت الأفواج الملكية مع كتائب المتطوعين ، وفقاً لمرسوم ٢١ شباط - فبراير - ١٧٩٣ ، وقد استدعى ذلك ضرورة الغاء الجيش الملكي القديم . الذي كان قائماً إلى جانب الجيش الجمهوري الجديد . غير أن البناء النهائي لجيش الجمهورية لم يتم إلا في الدور

الثالث للثورة (عهد اليعاقبة) حيث صدر قانون ٢٣ - آب - أغسطس - ١٧٩٣ القاضي بتعبئة الرجال من سن (١٨) إلى سن (٤٠) وبذلك استطاعت حكومة اليعاقبة تعبئة وتسليح جيش يزيد عدده على المليون رجل . وزجت ضد الجيوش الأجنبية قوات مسلحة بلغت (١٤) جيشاً ، يضم كلَ جيش منها من (٤ - ٥) فرق . وقد عينت حكومة اليعاقبة ممثلين عن السلطة السياسية في القوات يدعون (الكوميساريين) بهدف دعم الجيش وزيادة قدرته القتالية . وإذا كان بعض هؤلاء الممثلين قد أرسلوا إلى الجيش حتى في الدور الأول للثورة ، فإن إرسالهم في عهد اليعاقبة أصبح وفق نظام دائم . وقد تمتع هؤلاء الممثلون بحقوق كبيرة ، وأصبحوا يقودون الجيوش مع القادة العسكريين ، الأمر الذي قيد من حرية العمل للقادة العسكريين ، فجاء نابليون وعمل على إلغائه .

عندما تولى نابليون السلطة ، كان نظام تعبئة الجيش لا يزال يعتمد على الخدمة الالزامية العامة والمفروضة منذ العام ١٧٩٣ . وكانت مدة الخدمة (٥) سنوات (من سن ٢٠ حتى سن ٢٥) كما كان يلجأ إلى استخدام المحاربين القدماء . وكان يستدعى حوالى (٨٠) ألف رجل إلى الجيش في العام الواحد . وقد ارتفع هذا العدد فيما بعد إلى (١٠٠) ألف رجل . وقد بلغ عدد.أفراد جيش نابليون في العام (١٨٠٢) حوالى (٤٥٣) ألف رجل منهم (٤٠٨) آلاف رجل في المشاة و(٤٥) ألفاً في الخيالة - الفرسان - . ثم تضاعف عدد الجيش في السنوات التالية . ففي عام ١٨١٢ ، بلغ عدد أفراد الجيش الافرنسي ، مع جيوش الدول المتحالفة معه ، في حملتهم على روسيا ، حوالى مليون رجل « ألف كتيبة مشاة يقدر عدد مقاتليها بثمانمائة ألف رجل ، و(٤٠٠) سرية خيالة يقدر عدد فرسانها بمائة ألف فارس . وأما قوات المدفعية والهندسة فكان عدد أفرادها يقدر بمائة ألف رجل » .

تعرض الجيش الافرنسي في عهد نابوليون إلى تبدلات هامة ، إذ قسم الجيش إلى فيالق . ولم يكن تنظيم الفيلق ثابتاً ، بل كان يتألف من فرقتي مشاة أو ثلاث فرق . وكانت الفرقة بدورها تضم لواءين أو ثلاثة ألوية . أما اللواء فكان يضم فوجين ، والفوج (٤) كتائب عاملة وكتيبة احتياط . وكانت الكتيبة تتألف من (٨٥٠) رجلاً موزعين على (٦) سرايا . وقد دخل في ملاك الفيلق بالاضافة إلى فرق المشاة - فرقة خيالة أو فرقتان ، أو فرقة ولواء - . وكانت فرقة الخيالة تتألف من لواءين واللواء من فوجين والفوج من أربع سرايا . وكان الفيلق يضم في تنظيمه حوالى (٢٤) مدفعاً ، تشكل مدفعية الفيلق بالاضافة إلى مدفعية الفرقة التي كانت تتألف على الغالب من بطاريتين في كل بطارية (١٦) مدفعاً مع بعض سرايا الهندسة .

لم يكن تعداد قوة الفيلق ثابتًا ، وتراوح عدد أفراده من (٣٠) إلى (٤٠) ألف رجل . وكان الفيلق يعتبر أعلى وحدة تنظيمية . وتدخل في ملاكه الصنوف الثلاثة : المشاة والخيالة والمدفعية . وكان قادراً على خوض الاعمالية بشكل مستقل . وكان يقوده ضابط برتبة مشير (مارشال) .

تعرضت الخيالة إلى إعادة تنظيم جديد أيضاً . فقد تشكلت وحدات من الخيالة كثيرة العدد ، إذ شكل نابليون فيالق من الخيالة ، تألف كل واحد منها من فرقتين إلى خمس فرق من الخيالة الخفيفة أو الثقيلة . وقد استخدمت لتنفيذ المهام الاستراتيجية أو التكتيكية وقسمت إلى ثقيلة وخفيفة . (انظر تنظيم جيش الامبراطورية الافرنسية الاولى - المرفق) .

وحدثت تبدلات كبيرة في المدفعية أيضاً ، أذ تحولت بطاريات المدفعية في الفيلق إلى العيارات الكبيرة ، وأصبحت تؤلف احتياط القائد

من المدفعية . ويعتبر تنظيم الاحتياطات القوية من المدفعية انجازاً ضخماً من انجازات نابليون . وقد أعار -نابليون -اهتماماً خاصاً لاقامة نوع من التوازن -أو العلاقة -بين الصنوف الثلاثة -المشاة والخيالة والمدفعية- . وذكر ان وحدات الخيالة يجب أن تشكل ربع وحدات المشاة . وأن المدفعية يجب أن تكون بمعدل مدفع واحد لكل ألف رجل . أو أن تكون وحدات المدفعية بمعدل ثمن (واحد إلى ثمانية) من وحدات المشاة .

كانت القوة الجبارة في الجيش الأمبراطوري هي قوة الحرس الذي كان يضم الجنود القدامى والمحاربين القدماء ذوي المآثر الخاصة . وبلغ عدد أفراد الحرس الأمبراطوري في العام (١٨٠٩) مقدار (١٠) آلاف رجل ، وفي العام (١٨١١) بلغ (٥٢) ألف رجل . وقد أطلق نابليون على حرسه الخاص اسم (الحرس القديم) وذلك منذ سنة (١٨٠٩) وكان تعداده (١٠) آلاف رجل من أجل تمييزه عن الحرس الذي شكل فيما بعد والذي دعي (بالحرس الجديد) .

نظم تموين الجيش خلال الحرب على أساس المصادرة المحلية ، وفقاً للمبدأ الذي طرحته الثورة وهو (**يجب على الحرب أن تغذي الحرب**) .وعن طريق بناءالقواعدوطرق المواصلات المحمية بالقوات . وتميز الجيش الافرنسي (باستعداده الدائم للقتال) و (بانضباطه) وقد دربت القوات على العمل ضمن الصف بكتل كبيرة وبحركة سريعة وبهجمات حاسمة .

لقد رافق هذا التطور ظهور مجموعة من التحولات في الاسس الاستراتيجية وعلى مستوى العمليات والتكتيك أيضاً . واعتمدت الأساليب التعبوية - التكتيكية -للجيش الأمبراطوري الافرنسي على إقامة تفوق في القوى على الاتجاه الحاسم للهجوم ، مع القيام بمناورة

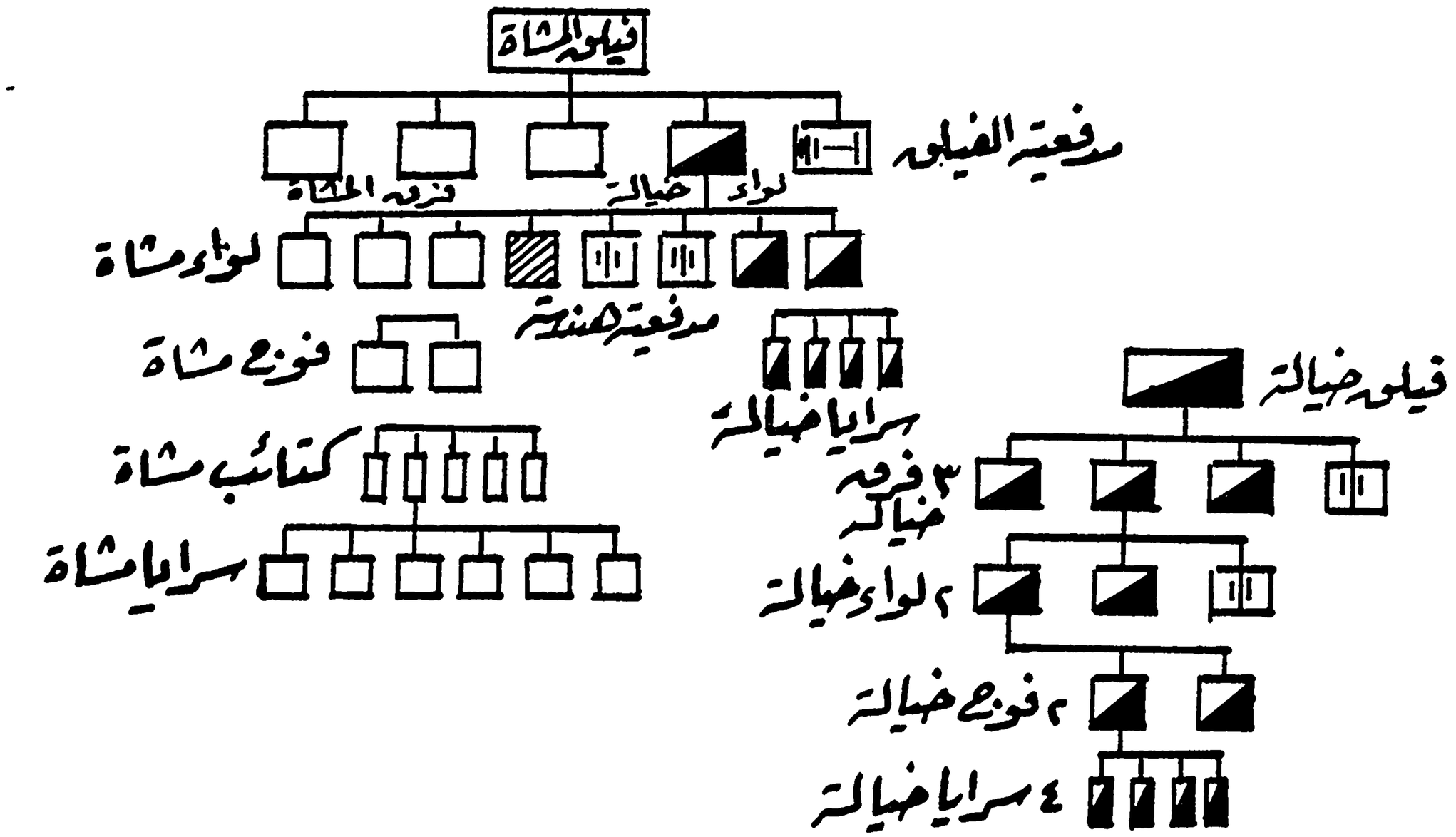

تنظيم جيش الامبراطورية الفرنسية الأولى

جريئة وعميقة ، وتخصيص قوات احتياطية كبيرة يتم زجها في الوقت المناسب . كل ذلك مع تنسيق جيد للتعاون بين عمل الأرتال ، والنظام المبعثر (سلسلة المشاة) ومع خطوط الكتائب المنتشرة . وكذلك تنسيق العمل بين قتال الصدمة (الحربة) والاشتباك بالنار . وكان نجاح الموقعة يتأمن بتعاون المشاة والخيالة والمدفعية . وكانت القوات تناور بسرعة على أرض المعركة ، وتقذف من مكان إلى مكان آخر بحسب تطور الموقف .

كانت المشاة تنتظم بالارتال وبالنظام المبعثر (سلسلة المشاة) وبالنظام المنتشر بعمق صفين أو ثلاثة صفوف (انظر مخطط التراتيب القتالية للقوات الافرنسية) وكانت المربعات هي التشكيلة المستخدمة للعمل ضد الخيالة -الفرسان- . وكانت المشاة تنتظم بالكتائب ، وهذه اما أن تكون أرتال الكتائب أو الكتائب المنتشرة في الخط . وكانت الكتيبة تعتبر الوحدة التعبوية -التكتيكية . وأما الخيالة فكانت تنتظم بالخطوط المنتشرة أو بالارتال وكانت الخيالة الخفيفة تتوضع بالنظام المبعثر أو المنتشر . أما الخيالة العادية فكانت تتوضع بشكل مجمع ضمن الترتيب القتالي على هذا الجانب أو ذاك . وأما المدفعية فقد كانت تتمركز في الأماكن المناسبة ، وفي الأمام ، وفي الثغرات الموجودة بين الخط الأول ، وفي النقاط الهامة لرمي العدو بنيران مركزة . وكانت البطاريات تغطى بسترة ترابية . كما كانت الأرض تحت المدفع ترفع بشكل اصطناعي عن الأرض المحيطة لرمي العدو من كل الاتجاهات .

وتبقى الظواهر المميزة الأساسية للنظام العسكري الافرنسي الجديد معتمدة على مبدأين :

١ - استخدام وسائط الهجوم التي تتكون من القدرة البشرية والخيالة والمدفعية على مستويات كبيرة ، أي القدرة العالية على حشد

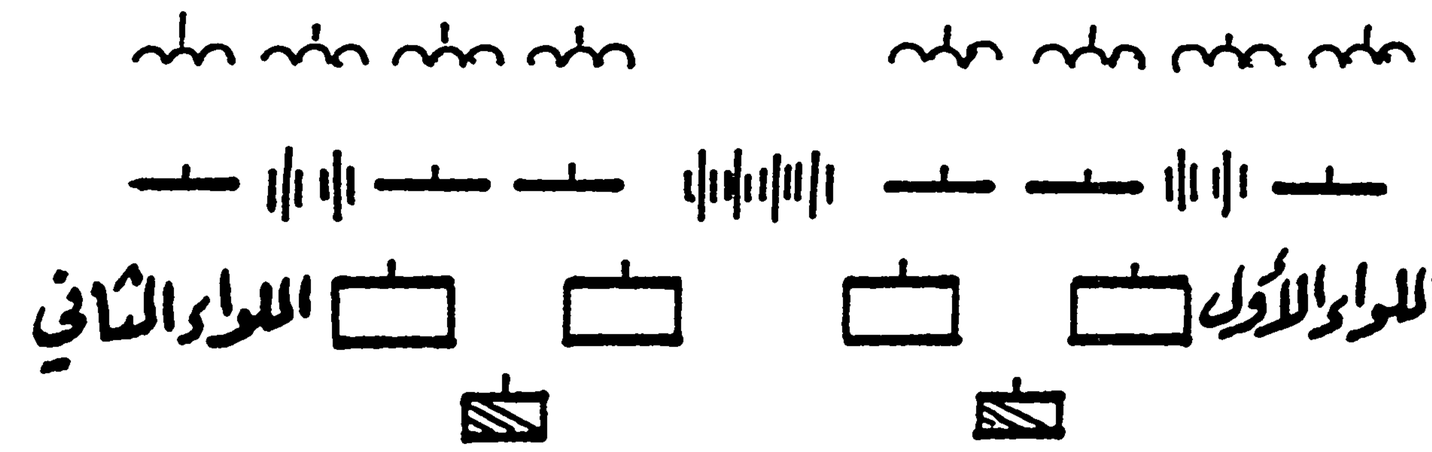

الترتيب القتالي للفرقة الفرنسية في موقعة اوسترليتز ١٨٠٥

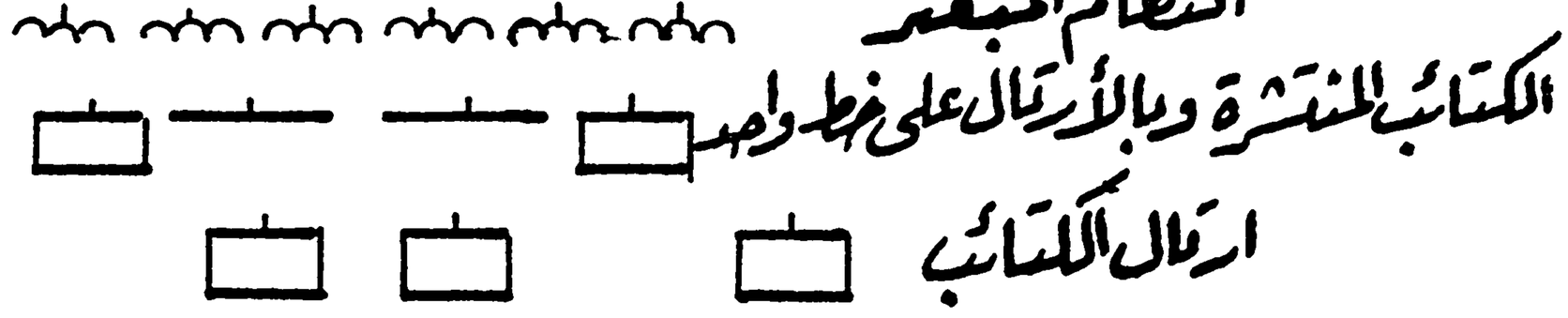

الترتيب القتالي للفرقة الفرنسية عند هجومها قرب بورودينو عام ١٨١٢

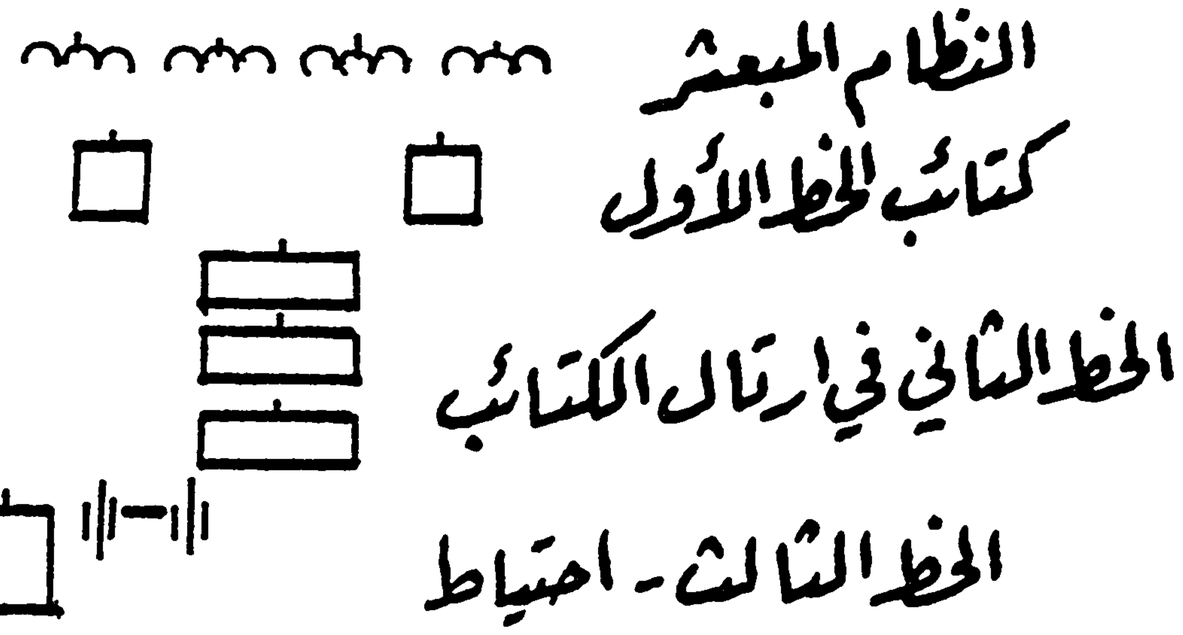

الترتيب القتالي المستخدم في ١٨١٢

الترتيب القتالي للقوات الفرنسية

القوى والوسائط .

٢ - الحركية العالية لهذه الوسائط الهجومية .

٤ - ذرائع الحرب :

مرت العلاقات الروسية - الافرنسية في عهد الأمبراطور نابليون بونابرت بظروف غير طبيعية . وكان القيصر الكسندر يميل في البداية الى تجنب المجابهة مع فرنسا حتى يتفرغ لحروبه التوسعية ضد دار الخلافة الاسلامية . غير انه ما لبث أن وجد نفسه متورطاً في (اوسترليتز - ١٨٠٥) حيث لحقت بقوته التي كان يقودها كوتوزوف ، ما يشبه الهزيمة . وانسحبت روسيا لتعقد صلحاً مع نابليون ما لبثت أن نقضته باشتراكها في الحرب ضد نابليون (عامي ١٨٠٦ و ١٨٠٧) ثم في حرب السويد (١٨٠٨ - ١٨٠٩) . وخلال ذلك كانت روسيا مشتبكة باستمرار في حرب طاحنة ضد الخلافة العثمانية (١٨٠٦ -١٨١٢) . وقد شهدت الفترات بين الحروب تحسناً في العلاقات الافرنسية -الروسية ، وبصورة خاصة بعد سنة ١٨٠٩ ، حيث تطورت تلك العلاقات إلى ما يشبه الصداقة (الحميمة) بين القيصر (الكسندر) والأمبراطور (نابليون) غير أن أسس هذه الصداقة كانت واهية نظراً لتناقض المصالح الشخصية والعامة . وأخذت العلاقات في التدهور بين البلدين ، بتأثير العوامل التالية :

١ - تقدم دوقية - وارسو - (بولونيا) وتطورها بما يناقض مصلحة روسيا .

٢ -عدم رضى نابليون عن تصرف روسيا وممارساتها خلال حرب سنة (١٨٠٩) .

٣ - زواج نابليون من النمساوية (ماري لويز) وما نجم عن ذلك من اضرار بمصالح روسيا .

٤ - استمرار الصراع الخفي بين الدولتين تجاه القسطنطينية وللسيطرة على الدانوب .

٥ - إقدام نابليون على عقد معاهدات مع امارات المانيا الشمالية (ودوقياتها) بما يتناقض مع مطامع الكسندر .

٦ - الأضرار التي لحقت بروسيا نتيجة الحصار القاري الذي فرضه نابليون ضد بريطانيا .

٧ - الشكوك المتبادلة بنوايا كل طرف تجاه الطرف الآخر نتيجة سباق التسلح .

وقد يكون من المناسب استعراض بعض ملامح هذه العوامل بصورة أكثر تفصيلاً .

أقام نابليون بموجب (معاهدة تيلسيت) [٧] دوقية (وارسو) من أقاليم بروسيا . وكان عدد مواطني هذه الدوقية (٢,٥) مليون مواطن تقريباً . وقد أخذ نابليون على عاتقه قضية إعادة (بولونيا) إلى سابق عهدها ، مع ما كانت عليه من القوة والرفاه . ولم يعط (دانتزيغ) لأحد ، بل جعلها مدينة حرة . وكان باستطاعته إبدال أقاليم (ايليريا)[٨] بما تبقى من (غاليسيا)[٩] بموجب معاهدة بينه وبين

---

(٧) تيلسيت : (TILSIT) وتعرف اليوم باسم (سوفييتسك : SOVIETSK) وهي مدينة سوفييتية في اقليم ليتوانيا تقع على نهر نيمن . وبها عقدت معاهدة تيلسيت يوم ٨ تموز - يوليو - ١٨٠٧ بين القيصر الكسندر الأول والامبراطور نابليون الأول .

(٨) ايليريا : (ILLYRIE) اقليم جبلي بلقاني يمتد على الادرياتيكي ويضم أستري وكارينث وكارينول . وقد شكل مع دالماتي : (DALMATIE) الاقليم الايليري في عهد نابليون (١٨٠٩ - ١٨١٤) وهو اليوم مقسم بين ايطاليا ويوغوسلافيا والنمسا .

(٩) غاليسيا : (GALICIE) اقليم بولوني بقي تابعاً للنمسا حتى سنة ١٩١٨ . وأصبح القسم الشرقي منه ملحقاً باوكرانيا منذ سنة ١٩٤٥ .

الأمبراطور فرانسوا (سنة ١٨١٢) دونما حاجة لاقتطاع أي اقليم من الأقاليم التي كانت خاضعة لحكم قيصر روسيا ، والذي لم يكن في حوزته آنئذٍ سوى ليثونيا وروسيا البيضاء(بيلاروسا) . وهي أقاليم غير بولونية . وكل ما كان يريده نابليون هو استرجاع ما سبق أن منحه للقيصر الكسندر ، مما كان قد سلبه من أملاك بروسيا والنمسا ، ومنها (بيلوستوك) وغربي (غاليسيا) التي كان معظم سكانها ومناطقها تابعة لروسيا الصغرى . وهكذا ، وعلى الرغم من الحفاظ على اسم (دوقية وارسو) وعدم التعرض لذكر (دولة بولونيا) فان هذه الدولة ظهرت وتكونت عملياً وواقعياً ، وكان حاكمها (ملك ساكسونيا) غريبًا عنها ، غير أن أحفاد (فريدريك اوغسطس) هم الذين ملكوا فيها (وقد تقرر في ٣ أيار- مايو - سنة ١٧٩١ أن يكون حاكمها ساكسوني - بعد موت ستانيسلاس بونياتوفسكي)[١٠] .

عمل نواب بولونيا في سنة ١٨٠٧ على وضع دستور للبلاد ، صادق عليه نابليون وأقره . وكان هذا الدستور في نصه مشابهًا لدستور (٣ - أيار - مايو - ١٧٩١) . وقد أشار نابليون إلى ملك ساكسونيا أن يبعد كل الموظفين البروسيين . وأن ينتهج في سياسته الداخلية مبدأ (بولونيا للبولونيين) فلا يقبل أجنبيًا في أية وظيفة كانت . وجعلت السلطة العليا بيد الملك ، يعاونه في إدارة البلاد رئيس مجلس وزرائه والوزراء المسؤولون . ووزعت السلطة التشريعية على الملك ومجلس الوزراء ومجلس النواب . وتكوَّن المجلس التشريعي من ستة أساقفة وستة أمراء من البلاط وستة رؤساء طوائف . وتكوَّن مجلس النواب من

---

(١٠) ستانيسلاس بونياتوفسكي : (STANISLAS II — PONIATWSKI) آخر ملوك بولونيا ، وهو من مواليد وولكزين (١٧٣٢ - ١٧٩٨) وقد اعتزل الملك وتنازل عن العرش في سنة ١٧٩٥ .

ستين نائباً ينتخبون من الأشراف - من كل الأقاليم - بالاضافة إلى أربعين نائبًا عن المدن . وقد اقتصر عملهم على فرض الضرائب على البلاد وسن القوانين . وقد ازداد عدد أعضاء مجلس النواب بعد أن ضم إلى بولونيا (غربي غاليسيا) . وأصبح باستطاعة نابليون الاعتماد على قاعدة قوية متقدمة في وسط البلاد المعادية . وأضحى (الزاموك - وهو قصر ملك بولونيا القديم) هو مقر جلسات مجلس النواب البولوني ، والنقطة المركزية لجمع شتات بولونيا .

طبق نابليون في دوقية وارسو قانونه المدني ، غير أن هذا القانون لم يكن موافقًا تماماً لحالة البلاد بمثل ما كان موافقًا لحالة فرنسا ، فعمل المجلس التشريعي على إجراء التعديلات الضرورية لجعله أكثر تكيفًا مع واقع بولونيا . وأطلق الحرية للفلاحين ولو أنه حفظ للنبلاء - السادة - حقوقهم في امتلاك الأراضي . وحصل الشعب البولوني بذلك على قدر من الحرية أكثر مما كان متوافرًا له في العهود السابقة .

أعاد نابليون تنظيم جيش (دوقية وارسو) العظمى ، حتى أصبحت قوته تضم (٣٠) ألف مقاتل ، ثم ارتفع هذا العدد بعد سنة (١٨٠٩) إلى خمسين ألفاً . وأسند القيادة العامة إلى (جوزيف بونياتوفسكي)[١١] ابن أخي آخر ملوك بولونيا . كما اختار للمناصب القيادية أكثر القادة كفاءة وإخلاصاً ممن شاركوا نابليون حروبه وانتصاراته سواء في مصر أو في اسبانيا . وشجع على إثارة الروح الوطنية والحماسة بين الجنود للدفاع عن قضية بلادهم ، والموت في سبيلها .

---

(١١) جوزيف يونياتوفسكي : (PRINCE JOSEPH PONIATOWSKI) قائد بولوني - جنرال - من مواليد وارسو (١٧٦٢ - ١٨١٣) وقد منحه نابليون رتبة ماريشال فرنسا لكفاءته وإخلاصه . وقد انتهت حياته غرقاً في مياه (الستر : ELSTER) أثناء قيامه بحماية انسحاب القوات الافرنسية - من حملتها في روسيا - .

ونجح نابليون في إثارة (روح الحرب) فباتت أقاليم (دوقية وارسو : وهي وارسو وبرسن ، وبرومبرغ وغربي غاليسيا) وهي تتنافس فيما بينها على تقديم أكبر عدد من الفرسان ، وأكثرهم كفاءة في القتال . كما تطورت قوات المشاة حتى أصبحت تضم أفضل المقاتلين وأشجعهم واحتفظ الافرنسيون بقيادة المدفعية وإدارتها . واستطاع جيش وارسو القوي بتسليحه وتنظيمه ، أن يستعيد (قلاع بلوسك ومودلين وتورن زاموسك)واكتسبت فرقة (فستولا) الشهيرة والتي زجها نابليون في حروب بروسيا والنمسا سمعة وفخراً لا ينافسها فيهما منافس .

اختار نابليون لإدارة (دوقية وارسو) أفضل الرجال كفاءة واستقامة وغيرة ووطنية ، سواء لرئاسة المجلس الأعلى أو لوزارة الحرب أو للقضاء والمالية والشرطة - البوليس - ومنحهم ثقته فبادلوه الوفاء بوفاء ، وأخلصوا في خدمته قدر إخلاصه لقضيتهم . وعندما اكتشف أن رئيس أساقفة مالنيز لم يكن يمتلك من الفضائل ما يؤهله للاضطلاع بواجبه ولحمل مسؤولية عمله الخطير عمل على عزله . وكان في وارسو أيضاً أحزاب متباينة منها ما هو مؤيد لسياسة قيصر روسيا ومرتبط معه بالولاء ، غير انه لما أطلقت مدافع وارسو في (سنة ١٨١١) ايذاناً بميلاد ابن نابليون (ملك روما) اتفق رأي الجميع على الاتحاد تحت راية الحماية الافرنسية ، وساعد على هذا الاتفاق ما عرفته البلاد من الرخاء والازدهار خلال فترة حماية نابليون لها .

كان نمو جيش وارسو - الذي هو في الحقيقة طليعة جيش فستولا العظيم - كافياً لاثارة غضب قيصر روسيا - الكسندر - وبعث مخاوف الشعب الروسي ، وتهديد مطامعه . وأفاد شعب (دوقية وارسو) وأشرافه بصورة خاصة لممارسة دورهم في التحريض ضد روسيا والكيد لها ولقيصرها . مما دفع القيصر الكسندر للقول عن أشراف

وارسو بأنهم : « شبح بولونيا على حدود ليثوانيا - التي لم يتقرر مصيرها بعد » . وكان نابليون يستثمر بدوره هذا الموقف لاثارة حماسة روسيا ودفعها لوضع قواتها في خدمة فرنسا - على نحو ما فعلته وارسو - ومما قاله في هذا المجال لسفير القيصر - كوراكين - وهو يتذمر من موقف روسيا المتردد لمجابهة (غاليسيا) حيث ذكر له : « أنتم فاترون - حتى انكم لم تشهروا سيفاً ولو مرة واحدة » .

تأتي بعد ذلك القضية الثانية في تدهور العلاقات الروسية - الافرنسية ، وهي قضية زواج نابليون من النمساوية (ماري لويز) . وتتلخص قصة هذا الزواج (السياسي) بالتالي :

بعد فشل زواج نابليون من جوزفين لأسباب عديدة أهمها عدم إنجاب (وريث) للأمبراطورية ، توجه نابليون إلى الاسكندر (أو الكسندر) قيصر روسيا بطلب للزواج من شقيقته (حنا بافلوفنا) كما تقدم بطلب مماثل وفي الوقت ذاته للزواج من (ماري لويز) . وقد تصدت (ماري دي ورتمبرغ) والدة الكسندر للموقف ، ورفضت طلب نابليون على أساس أن وصية (بولس) لها تمنحها حق تزويج بناتها بمن تشاء . فزعمت ان الكنيسة الارثوذكسية التي تنتمي إليها ، لا تسمح بزواج رجل مطلق لامرأته لعلة غير شرعية موجبة . وكانت (حنا) قد خطبت لأمير ساكس (كوبرغ) بينما تزوجت أختها كاترينا - للسبب ذاته - من (دوق اولانبرغ) الأعظم . وفضلاً عن ذلك ، فقد كان البلاط الروسي يخشى أن يكون مصير زوجة نابليون الثانية كمصير امرأته الأولى . وكان اختلاف المذهب عاملاً أساسياً يعترض ذلك الزواج ، إذ رفضت (حنا) اعتناق المذهب البابوي (الكاثوليكي) كما كان نابليون يرفض وجود كاهن ومصلى أرثوذكسيين في قصر التويلري . وعلى كل حال ، فقد أخذ القيصر الكسندر بسياسة المماطلة في الرد على طلب نابليون ، وحاول خلال ذلك أن ينال وعداً من نابليون بعدم

تجديد إقامة(كيان بولونيا) . وفي هذه الأثناء ، كان (مترنيخ) يمارس دوره في بلاط فيينا لكسب نابليون إلى جانب بلاط (آل هبسبورغ) فتم زواج نابليون من ابنة امبراطور النمسا في ذات اليوم الذي وصله فيه رد القيصر الكسندر برفض طلبه الزواج من حنا . ولكن ما ان علم القيصر الكسندر بأمر هذا الزواج حتى تعاظم غضبه ، إذ أدرك ان هذا الزواج سيؤثر تأثيراً كبيراً على مطامعه في بسط سيطرته على الدانوب وعلى بلاد المشرق . وفي الحقيقة ، فقد كان هناك ما يؤكد مخاوف القيصر الكسندر من سياسة نابليون - غير الثابتة - والتي كانت تخضع لمؤثرات معقدة منها - على سبيل المثال -ذلك الاقتراح الذي تقدم به (تاليران)[١٢] في سنة (١٨٠٩) إلى نابليون - وطلب فيه التعويض على ما خسرته النمسا في حروبها السابقة مع نابليون ، ومنحها رومانيا والأقاليم السلافية التي كانت تابعة للخلافة الاسلامية . وإذ ذاك يتسع مجال العدوان بينها وبين روسيا التي إذا تقلص ظل نفوذها على الدانوب ، فستضطر إلى تحويل أنظارها إلى (هندستان) في أواسط آسيا مما يفسح المجال أمام اندلاع الحرب بين روسيا وانكلترا ، وبذلك يتم القضاء على كل تحالف مضاد لفرنسا بين روسيا وانكلترا .

---

(١٢) تاليران - بيريغورد : (CHARLES — MAURICE DE TALLEYRAND — PÉRIGORD) أمير دوبينيفانت - ديبلوماسي افرنسي - من مواليد باريس (١٧٥٤ - ١٨٣٨) كان أسقف أوتون (AUTUN) في العهد الملكي . ثم أصبح رئيساً للمجلس الوطني سنة ١٧٩٠ ، فوزيراً للخارجية في عهد حكومة المديرين (١٧٩٤ - ١٧٩٩) واستمر في منصبه هذا في العهد الامبراطوري . وكان له دوره في إعادة الملكية إلى فرنسا بعد سقوط نابليون . ومارس دوراً هاماً في مؤتمر فيينا ، ثم في مؤتمر لندن حيث عينه الملك لويس فيليب سفيراً لفرنسا . اشتهر بكفاءته العالية وبتحلله من القيم ، وأبرزها عدم الوفاء - إلا لشخصه .

تقدم (دوروك) [١٣] إلى نابليون في السنة ذاتها (١٨٠٩) بكتاب جاء فيه ما يلي :

١ - إن التحالف بين فرنسا وروسيا يتناقض مع السياسة التقليدية التي تتبعها فرنسا .

٢ - إن ما تمتلكه فرنسا في إيطاليا ودالماتيا [١٤] مهدد بأعمال روسيا في صربيا وبلاد اليونان .

٣ - إن روسيا لم تساعد بروسيا في حربها ضد فرنسا ، إلا لتستخدم جيشها عند الحاجة ضد فرنسا .

٤ - إن روسيا لم تشجع تدخل فرنسا في اسبانيا إلا من أجل وضع الجيش الفرنسي أمام مأزق يتهدد مئتي ألف جندي افرنسي بالفناء فوق أرض شبه الجزيرة الأندلسية .

٥ - تقضي مصالح فرنسا بتوجيه روسيا نحو الشرق وابعادها قدر المستطاع عن أوروبا .

٦ - كان تقسيم بولونيا عاراً حملت وزره الحكومة الافرنسية السابقة ، وان إعادتها إلى سابق عهدها هو أمر يحق لفرنسا أن تفخر به ، إذ فيه يكمن سلام أوروبا .

استطاع سفير روسيا في بلاط الامبراطور نابليون (واسمه كوراكين) أن يحصل على صورة من كتاب (دوروك) وأرسلها إلى القيصر الكسندر في آذار - مارس - ١٨٠٩ مع رسالة جاء فيها ما يلي :

---

(١٣) دوروك : (GERAUD — CHRISTOPHE — MICHER — DUROC) قائد فرنسي - جنرال - من مواليد مونت - آ - موسون) (١٧٧٢ - ١٨١٣) عمل في العهد الامبراطوري رئيس قادة البلاط (GRAND — MAŔECHAL) ومنحه نابليون لقب دوق فريول . وقتل في بوتزن .

(١٤) دالماتيا : (DALMATIE) اقليم في يوغوسلافيا ، يمتد على الادرياتيك .

« كم هو خطر على روسيا إذا سمحت بتمزيق النمسا ودمارها » .

جاءت بعد ذلك الأحداث متسارعة ضد مصلحة العلاقات الروسية - الافرنسية فقد أعلن مجلس القضاة في هولاندا (في تموز - يوليو - ١٨١٠) بانضمام كل هولاندا إلى فرنسا . ثم عقد هذا المجلس مؤتمراً في كانون الأول - ديسمبر - صرح على أثره بانضمام ثلاث مدن أخرى (هانسياتيكيه) بالاضافة إلى مدينة (اولدنبرغ) [١٥] وبعض المقاطعات الالمانية الأخرى التي حذت حذو (المدن الهانسياتيكية) [١٦] وقد اعتبر نابليون أن إعلان مجلس القضاة هو بمثابة معاهدة تربط بين فرنسا وهذه الأقاليم والمدن . وشعرت روسيا بأن مطامع نابليون تمتد إلى آفاق لا حدود لها ، غير أن ما يهمها من الأمر هو أن مدن (همبورغ وبريمن ولوبك) كانت ذات أهمية خاصة لتجارة العالم عامة ، ولتجارة روسيا منها بصورة خاصة . وقد صارت هذه المدن تحت سيطرة فرنسا ، الأمر الذي دعم من مركزها في بحر البلطيق - وبحر فارنجين - حيث كانت روسيا - منذ عهد بطرس الأكبر - تنازع السويد السيادة على هذا البحر . كما أن ضم (اولدنبرغ) إلى فرنسا ، قد جرح كبرياء القيصر الكسندر جرحاً بليغاً ، وأغضبه إلى حد كبير ، لا سيما

---

(١٥) اولدنبرغ : (OLDENBOURG) وتكتب باللغة الالمانية (OLDENBURG) وهي اقليم الماني يشكل قسماً من الساكس السفلى - أو الدنيا - (BASSE — SAXE) بقيت دوقية كبرى - من الدوقيات القديمة - حتى سنة ١٩١٩ ، ثم أصبحت جمهورية تضم بالاضافه لها (برونزويك) و (شومبرغ - ليب) .

(١٦) المدن الهانسياتيكية : (VILLES HANSEATIQUES) هي مدن ألمانية تقع إلى الشمال- الغربي من المانيا ، ألفت بينها اتحاداً تجارياً ، وكان على رأسها مدينة (لوبيك : LÜBEK) وتعود جذور هذا الاتحاد إلى سنة ١٢٤١ حيث اتحدت هامبورغ ولوبيك . غير أن اسم الاتحاد لم يستخدم إلا في سنة ١٣٥٨ وكانت أهداف الاتحاد تنسيق التعاون ضد أعمال القرصنة ، وتأمين حرية التنقل التجارية بين المدن الالمانية . وتطور هذا الاتحاد تجارياً وسياسياً حتى بات يضم (٦٤) مدينة المانية .

وأنه قد أدى إلى سلب أخته كاترينا وزوجها تاجهما فهربا إلى (بيترسبورغ) والتجآ إلى القيصر . وزاد الأمر سوءاً ، قيام نابليون بإجراءاته متجاهلاً وجود القيصر الكسندر ، ومستهيناً به ، حتى أنه لم يعلم أبداً بخبر (الضم) إلا عند قراءته لصحيفة (المونيتور) ، شأنه شأن بقية الناس . كما أن أمراء جرمانيين كثيرين سلبوا تيجانهم وأملاكهم بدون إعلام روسيا رسمياً بذلك . وعلى الأثر ، كلف القيصر الكسندر وزير خارجيته (كوراكيو) بالاتصال مع نظيره الافرنسي (الكونت شامباني) للتعويض على ما خسره (الدوق الأعظم - دوق أولدنبرغ) . وأرسلت روسيا احتجاجاً شديد اللهجة ضد عمل فرنسا ، وأبلغت هذا الاحتجاج إلى كل دول أوروبا ، هذا مع محافظتها على صداقة نابليون ، مما أدى إلى إثارة غضب نابليون بسبب الاحتجاج وما رافقه من ملاحظات (لاذعة) .

***

بقيت بعد ذلك قضية (**الحصار القاري**) والذي فرضه نابليون على كل أوروبا - ضد انكلترا - وعلى الرغم من أن روسيا لم تطبق الحصار بمثل ما طبقته فرنسا ، غير أن الضرر الذي لحق بها بقي كبيراً ، فقد توقفت تجارتها مع انكلترا . واستطاعت روسيا أن تجد في سنة (١٨٠١) طريقة لاعادة فتح طريق البحر ، وتصدير القنب والقمح وسواهما من محاصيل البلاد الزراعية ، ولكن ذلك لم يضع حلاً للمشكلة الاقتصادية . وتدهور سعر الروبل ، فبعد أن كان يساوي (٦٧٠) كوبيكاً في سنة ١٨٠٧ ، أصبح لا يساوي أكثر من (٢٥) كوبيكاً في سنة (١٨١٠) . وأصدر القيصر أمراً في شهر كانون الثاني من تلك السنة منع بموجبه إخراج المسكوكات (السبائك والنقود) من البلاد ، والتوقف عن استيراد كل ما يمكن الاستغناء عنه من الخارج - مثل المنسوجات

الحريرية والأشرطة والمطرزات والبرونز- وفرض ضريبة كبيرة على الخمور وسائر المشروبات الروحية ، فأضر ذلك بتجارة فرنسا - بصورة خاصة - . وكان يتم إتلاف ما يتم تهريبه عبر الحدود ، وإحراقه بالنار ، مما أدى إلى إزعاج نابليون ومضايقته حتى أنه قال : « ان صفعي على وجهي لأهون عليَّ من ذلك » .

كان سفير روسيا في باريس (كوراكين) يتابع تقديره للموقف وتطوراته ، وكان في اعتقاده أن دولته لا تستطيع مقاومة نابليون وجيوشه ، فاقترح على القيصر الكسندر القيام (بتظاهرة قوة) والقيام (بحشد القوات وتسليحها) و (إبراز استعداد روسيا لخوض حرب طاحنة) وذلك على أمل تليين موقف نابليون وحمله على تعديل اتجاهه السياسي تجاه روسيا . وقام القيصر الكسندر بتنفيذ اقتراح سفيره فسحب خمس فرق من تلك التي كانت مرابطة على ضفاف الدانوب . وأمر بجمع قرعة جديدة من المجندين ، وإصلاح قلعتي (الدون) و (الدنيبر) وزيادة تحصينهما . غير أن (تظاهرة القوة) اتجهت بنابليون إلى عكس ما كان متوقعاً ، إذ أنها أثارت غيظ نابليون ودفعته إلى استنفار جيش وارسو ، ووضعه على أهبة الاستعداد للتحرك . كما انه دعم جيش جرمانيا الشمالية وعمل على زيادة قوته . وأصدر أمره بسحب عدد من فرقه العاملة في اسبانيا ، وكذلك فعل مع فرقة بولونيا الشهيرة . كما تحرك الجيش الذي كان في (نابولي) نحو شمال ايطاليا . وانتقل جيش إيطاليا إلى (بافاريا) . وهكذا تحرك (الجيش الكبير) على امتداد الصفحة الجغرافية لاوروبا ، بداية من (مدريد) ونهاية (بدانتزيغ) . وشعر العالم كله بهذا التحرك . وتجاوز التنافر بين قيصر روسيا وامبراطور فرنسا حدود الاستثارة عندما أظهر نابليون غلظة في معاملة سفير روسيا ومعتمدها في البلاط الافرنسي . غير أن نابليون تباحث بهدوء وروية مع مبعوث القيصر الكسندر بشأن المسألة البولونية

وأقاليم الدانوب و (أولدنبرغ) و (الحصار القاري) و (تظاهرات القوة) التي اتخذتها روسيا . ورفض نابليون رفضاً حاسماً إعطاء (دانتزيغ) غرامة لدوق (اولدنبرغ) . ولم تسفر مباحثات مع مبعوث القيصر (تشرنتشيف) عن نتيجة إيجابية . ويذكر أن هذا المبعوث قد استطاع الحصول على بعض أسرار البحرية الافرنسية - بواسطة أحد موظفي البحرية - وذلك لقاء مبلغ من المال ، واكتشفت السلطات الافرنسية الأمر ، فأعدمت الموظف رمياً بالرصاص . وفي هذه الفترة ، أمر نابليون صحافته بنشر مقالات متتابعة عن (**خطر وقوع أوروبا في قبضة الدب الروسي**) و (**الاغارات التي يجب الغاؤها ، والملكية العامة التي يجب إبطالها**) و (**تقدم القوة الروسية**) و (**مخططات روسيا للتوسع والسيطرة**) . **وظهر بوضوح ان العلاقات الروسية - الافرنسية قد وصلت إلى مأزق (اللاعودة)** [١٧] .

جاءت الخطوة الحاسمة بعد ذلك عندما سحب نابليون سفيره من (بيترسبورغ) بتهمة انه يميل للقيصر الكسندر ، وأرسل عوضاً عنه سفيراً عرف بنفوره من قيصر روسيا . وظهرت نذر الحرب واضحة . وكان كلاً من الكسندر ونابليون يحاولان إطالة أمد المباحثات لاكمال استعداداتهما القتالية . وامتد الصراع بين الافرنسيين والروس إلى كل مكان حتى أن سفير فرنسا ومعتمد روسيا في نابولي تبارزا . وقام الكسندر بطرد أصدقاء فرنسا ، وأسرع إلى مصالحة تركيا ، واتصل مع السويد للتحالف معها ، وتفاوض مع انكلترا . ونجحت التحركات

---

(١٧) دانتزيغ : (DANTZIG — DANZIG) وباللغة البولونية (GDANSK) وهي مدينة بولونية ولها ميناء ضخم على خليج البلطيق قريباً من مصب نهر الفستولا . وكانت قديماً من مدن بروسيا الشرقية ، واستولى عليها نابليون سنة ١٨٠٧ وأصبحت مدينة حرة سنة ١٩١٩ ، ثم الحقت بالرايخ الالماني في الأول من أيلول - سبتمبر - ١٩٣٩ . وكان ذلك سبباً لقيام الحرب العالمية الثانية . ثم أعيدت إلى بولونيا سنة ١٩٤٥ .

السياسية في تحقيق أهدافها . وفي الوقت ذاته عقد نابليون معاهدة مع بروسيا والنمسا . فوعدت الأولى بتقديم (٢٠) ألف جندي والثانية (٣٠) ألف جندي لدعم فرنسا .

٥ - الجيش الكبير :

غادر نابليون مدينة باريس في يوم (٩ - أيار - مايو - ١٨١٢) وانتقل إلى مقر قيادة جيشه الكبير في (دريسدن) . وفي الوقت ذاته كان سفير فرنسا في (بيترسبورغ) وسفير روسيا في (باريس) يغادران مقر عملهما .

كان الجيش الافرنسي مقسماً إلى (١٣٠) فرقة ، وقد ضم إليه كافة قوى الدول المتحالفة معه من الراين وايطاليا ووارسو وبروسيا والنمسا ، حتى بلغ عدد أفراد هذا الجيش (٦٧٨) ألفاً منهم (٣٥٦) ألفاً من الافرنسيين . ومن أصل هذا العدد كان هناك (٩٦) ألف خيال (فارس) و (٢٠) ألف رجل يعملون على معدات الحصار ، وفي الوحدات الهندسية . وكانت المدفعية تقدر بما يقارب (١٣٧٢) مدفعاً منها (١٣٠) مدفعاً من مدافع الحصار . وقد نظم نابليون جيشه الكبير فقسمه إلى (١٢) فيلقاً للمشاة و (٤) فيالق خيالة . وتولى قيادة الفيالق كبار قادته (ماريشالاته) ممن عرفت كفاءتهم القيادية العالية وخبراتهم الواسعة وشجاعتهم الكبيرة في ميادين القتال ، بالاضافة إلى أمراء وملوك أوروبا الذين استثارت حماستهم قضية الهجوم على (روسيا - مملكة الصقالبة العظمى) .

كانت الجوانب القوية في (الجيش الكبير) هي في تعداده الضخم ، وفي توافر خبرة قتالية كافية لديه ، وفي التأمين الاداري والفني

الجيد للقوات ، بالاضافة إلى روحه المعنوية العالية وثقته الكبرى بالنصر نتيجة ما حققه نابليون من انتصارات في حروبه السابقة . ومقابل ذلك ، فقد كانت نقطة الضعف الأساسية (للجيش الكبير) كامنة في بنيته القومية المتنوعة والتي كانت تتألف من (عشرين قومية) أبرزها الافرنسية والايطالية والالمانية والنمساوية والبولونيـة والهولانـدية والسويسرية والاسبانية .

كانت الخطة الاستراتيجية لنابليون تعتمد على النصر السريع والحاسم ، وعلى التدمير الكامل للقوات الروسية في الموقعة الرئيسية . وقد صرح نابليون قبل الانطلاق بحملته عن نواياه فقال : « **أنا ذاهب إلى موسكو ، وسينتهي كل شيء بعد موقعة أو موقعتين** » .

حشد القيصر الكسندر قواته على الحدود الروسية ، وكانت هذه القوات تضم (٢٠٠ - ٢٢٠) ألف رجل مع (٩٥٠) مدفعاً . وقد قسمت هذه القوات إلى ثلاثة جيوش : الجيش الغربي الأول بامرة وزير الحربية (باركلاي دوتولي) [١٨] والجيش الغربي الثـاني بامـرة (باجراتيون) [١٩] والجيش الثالث (الاحتياط) بقيادة (تورماسوف) . - على نحو ما سبق عرضه - .

وضع الجنرال البروسي (فوله) والذي كان يعمل في خدمة الجيش الروسي ، الخطة الاستراتيجية الروسية لخوض الحرب ، وتبنى القيصر الكسندر هذه الخطة بالرغم من معارضة قادة الجيش الروسي

---

(١٨) باركلاي دوتولي : (BARCLAY DE TOLLY , MICHEL) جنرال روسي من أصل ايقوسي ، وولد في ليفونيا : (LIVONIE) (١٧٦١ - ١٨١٨) . اشتهر بكفاءته العالية ، وكان نداً في خصومته لنابليون بونابرت .

(١٩) باجراتيون : (PRINCE PIERRE PAGRATION) جنرال روسي من مواليد جورجيا (١٧٦٥ - ١٨١٢) أصيب في معركة موسكو بجراح قاتلة مات على أثرها .

لها . وبقي الجيش الروسي بموجب هذه الخطة منتشراً على مسافة (٦٠٠ كم) . وكان على الجيش الرئيسي الذي يقوده (باركلاي) الانسحاب إلى مدينة (دريسا) والتمركز في معسكرها المحصن عند قيام نابليون بهجومه ، والعمل من ثم على إعاقة تقدم الافرنسيين حتى يبدأ (باجرايتون) بالأعمال القتالية الناجحة على مؤخرة قوات الغزو الافرنسية ومجنباتها . وكان (معسكر دريسا) القريب من مدينة (دريسا) الواقعة على الشاطىء الغربي لنهر (دفينا) بعيداً جداً عن الطرق المؤدية إلى (موسكو) و (بيترسبورغ = لينينغراد) مما يشكل في الواقع مصيدة للجيش الروسي لا للجيش الافرنسي ، ذلك لأنه يسمح للقوات الافرنسية بتدمير القوات الروسية على أقسام متتالية .

اخترق الجيش الافرنسي الحدود الروسية في ١٢ تموز - يوليو - ١٨١٢ . ومن الممكن تقسيم حملة نابليون على روسيا إلى مرحلتين أساسيتين : المرحلة الأولى وتقدر مدتها بأربعة أشهر ، تبدأ من عبور القوات الافرنسية (نييمن) وحتى انسحاب القوات الروسية إلى منطقة (تاروتينو) وانتقالها إلى الهجوم المعاكس العام . أما المرحلة الثانية فتمتد لفترة شهرين تقريباً : وتبدأ بانتقال القوات الروسية للهجوم وتنتهي بتدمير قوات نابليون ووصول القوات الروسية إلى الحدود الدولية في (٢ كانون الأول - ديسمبر - ١٨١٢) . وقد عمل (باركلاي) على تنفيذ مخطط العمليات ، فانسحب إلى معسكر (دريسا) . ولكنه بعد أن أعاد تقدير موقفه بصورة صحيحة ، أمر بمتابعة الانسحاب نحو مدينة (فيتبسك) تاركاً على نهر (دفينا) أحد الفيالق لحماية الطريق إلى (بيترسبورغ) انظر (مخطط هجوم جيش نابليون - ١٨١٢) .

عندما عبر نابليون (نهر نييمن) بجيشه ، ترك (٥٠) ألفاً من الايطاليين والبافاريين بقيادة الأمير أوجين أمام (بيلوني) . كما ترك

(٦٠) ألفاً من البولونيين والويستفاليين والسكسونيين وسواهم بقيادة أخيه (جيروم بونابرت) في مواجهة (غوردنو) . ثم ترك قوة من (٣٠) ألفاً لحماية (الفستولا) بالاضافة إلى (٥٠) ألفاً لحماية (أوغير) . هذا بالاضافة إلى (٣٠ ألفاً) من (شوارتزنبرغ) تم إلحاقهم بقوة (جيروم) لمحاربة الروس في (غاليسيا) وهكذا لم يبق مع نابليون عملياً للتوغل في أعماق روسيا أكثر من (٢٩٠) ألفاً نصفهم من الافرنسيين .

كان القيصر الكسندر يعتمد في حربه ضد نابليون على وطنية الشعب الروسي وحماسته بأكثر من اعتماده على القوات المحاربة . ولهذا فما ان اخترق (الجيش الكبير) حدود (روسيا المقدسة) حتى أصدر منشوراً : « **يستنفر به حمية شعبه ويستنهض هممهم ، ويستثير حماستهم للقتال** » وكان **مما تضمنه المنشور** : « **فليبرز لمصادمة العدو كل شريف ،وكل رجل دين - اكليركي - وكل وطني صادق . انهضوا كلكم مع الصليب ، بقلبكم . والسلاح في أيديكم ، فلا تستطيع قوة بشرية أن تنتصر عليكم** » .

٦ - انسحاب القوات الروسية :

اتخذ القيصر الكسندر من (ولنا) [٢٠] قاعدة لعملياته ، وانتقل إليها مع قادته ووزرائه وأمراء الأقاليم ، وقادة القوى المتحالفة معه . وتم عقد مؤتمر للقادة بهدف مناقشة ما يجب عمله تجاه قضية الانسحاب ، وعما إذا كان من الأفضل مجابهة قوات الغزو بمعركة كبيرة قبل الانسحاب ، أو إجراء عملية الانسحاب فوراً بهدف جذب القوات الافرنسية إلى أعماق روسيا . وبينما كان الحوار محتدماً وصل نبأ عبور

---

(٢٠) ولنا : (WILNO — , VILNIUS) مدينة روسية، عاصمة ليثوانيا .

نابليون لنهر (نييمن) [٢١] فتقهقر (باركلاي) إلى نهر الدون ، وتراجع (باجراتيان) إلى نهر (الدنيبر) .

ها أن دخل نابليون مدينة (ولنا) حتى أذاع بياناً على سكانها جاء فيه : « **لقد بدأت الحرب البولونية الثانية** » . واجتمع مجلس وارسو على الفور ، وقرر إقامة مملكة بولونيا من جديد ، وأرسل وفداً إلى نابليون ، يطلب الحاق (ليثونيا) بها ، ونشر حمايته عليهم . والتف أعيان ليثونيا وأشرافها حول نابليون وأعلنوا تأييدهم لقرار مجلس وارسو . وجرى احتفال في كاتدرائية (ولنا) التقى فيه الأعيان والأشراف ووجوه القوم وهم يرتدون ثيابهم على الزي البولوني القديم . وتزينت النساء بالملابس التي تحمل الشرائط الحمراء والبنفسجية – وهما لون العلم الوطني .

كان نابليون قد وزع الجنود البولونيين البالغ عددهم ستين ألف جندي على فرق جيشه حتى لا يظهر مساعدته لبولونيا على إقامة كيانها ، غير أنه لم ينجح في إخفاء ما ظهر من حماسة البولونيين وتعاظم أملهم في تجديد مملكتهم ، وحماستهم غير المحدودة لها . وبرز بوضوح أن العمل الذي بدأه نابليون لاقامة بولونيا على حساب بروسيا (في معاهدة تيلسيت) ثم استمر في فيينا على حساب النمسا ، سيتم إكماله على حساب روسيا . ومما كان يؤكد ذلك ، هو ظهور (روح الانتقام – ضد روسيا) في فرق (دومبرويسكي) [٢٢] ، والتي حملت هذه الروح طوال

---

(٢١) نييمن : (NIEMEN) نهر روسي ، يمر في روسيا البيضاء وليثوانيا : (LITUANIE) ويصب في البلطيق ، ويبلغ طوله (٨٣٠) كم .

(٢٢) دومبرويسكي : (DOMBROWSKI , JEAN HENRI) جنرال بولوني ، وضع نفسه في خدمة فرنسا (١٧٥٥ – ١٨١٨) وقد عمل على تغطيه ممر بيريزينا : (BÉRÉZINA) خلال حملة نابليون على روسيا وانسحابه منها .

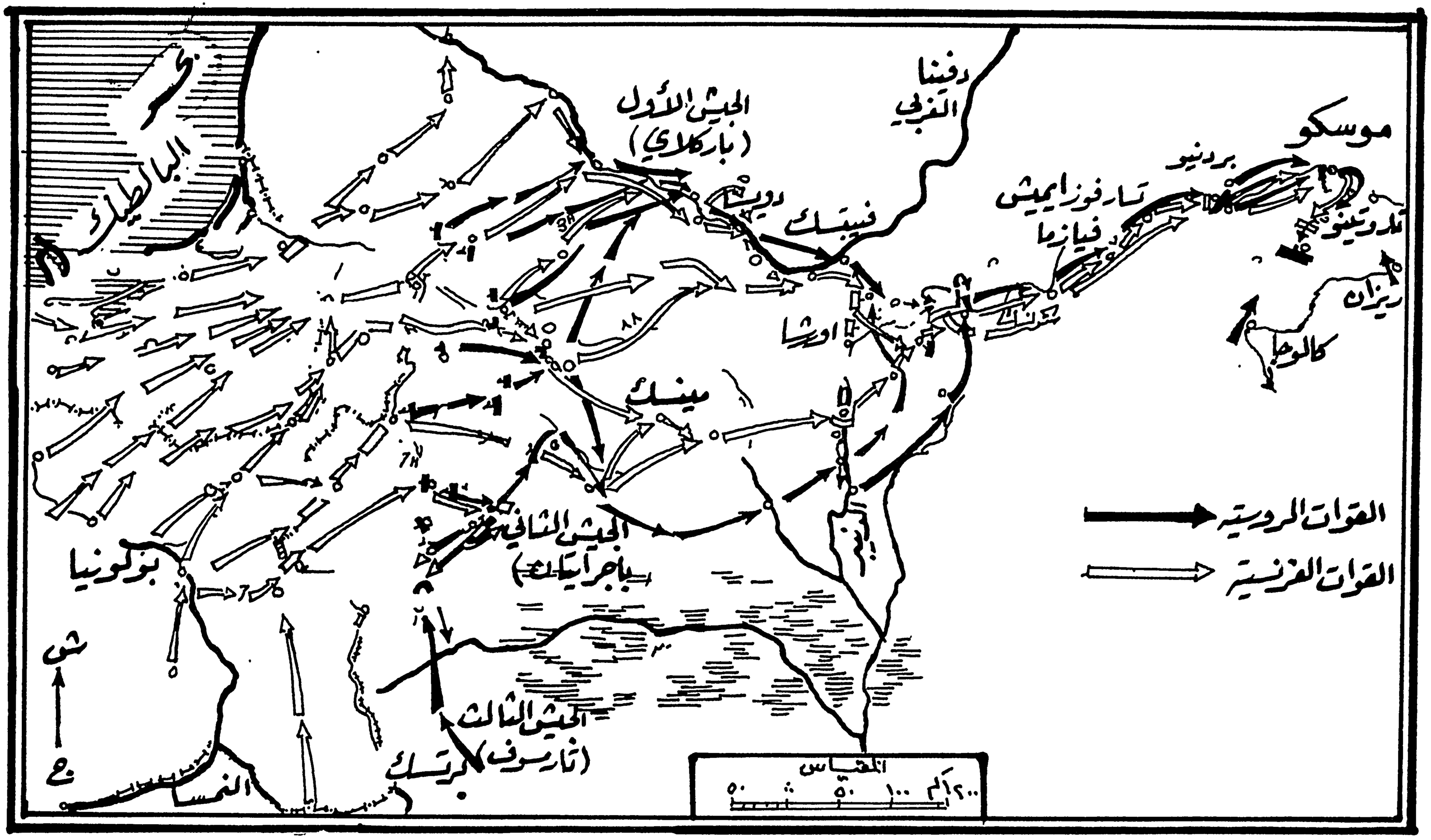

هجوم جيش نابليون عام ١٨١٢

حملة نابليون ١٨١٢

ثمانية عشر عاماً . وكان تنظيم هذه الفرق هو (الهدية الثمينة) التي قدمها الامبراطور للغاضبين في (الفستولا) مكافأة لهم على حماستهم وشجاعتهم . وذكر تقرير عن حالة البولونيين النفسية في القوات المسلحة ما يلي : « **استعاد الضباط الشبان ثقتهم بقيادة نابليون ، وكانوا يرددون : قد يضحك شيوخنا منا ، ويتهموننا بأننا مجانين وممتلكين ، غير أننا لا نحلم بشيء سوى المعارك والانتصارات ، ولا نخشى سوى إسراع الروس إلى طلب الصلح . إن بيننا عدداً كبيراً من أحفاد الليثونيين الذين حاربوا روسيا منذ مائة سنة تحت راية شارل الثاني عشر** » (٢٣) .

وعلى كل حال ، فإن موقف نابليون في وارسو لم يلبث أن أثار التردد والشكوك في نفوس قادة الحركة الوطنية في بولونيا . فقد توجه ممثلو وارسو لمقابلة نابليون في (ولنا) وإذ ذاك ، بادرهم نابليون بقوله : « **لو كنت أنا ملكاً إبان تقسيم بولونيا ، لكنت سلحت كل رعاياي للدفاع عنكم . وانني أمتدح كل ما فعلتم ، وأشجعكم على ما تنوون فعله ، وسأبذل كل ما بوسعي لدعمكم وتأييدكم . ولكنني قد ضمنت لملك النمسا سلامة مملكته ، فلندع ليثونيا وكوغيثيا وويلهينا ويوكرين حتى تنتعش وتقوى بذات الروح التي رأيتها في بولونيا العظمى . وستكلل العناية الالهية أفعالكم بالنجاح** » .

ظهر بوضوح أن نابليون لم يكن راغباً في إثارة النمسا ، وانه كان

---

(٢٣) شارل الثاني عشر : (CHARLES — XII) من مواليد استوكهولم (١٦٨٢ - ١٧١٨) ما ان تولى الملك في بلاده السويد حتى حارب الدانماركيين وانتصر عليهم سنة (١٧٠٠) ، ثم انتصر على روسيا في (نارفا) وعلى بولونيا (١٧٠٣) غير أن بطرس الأكبر هزمه سنة (١٧٠٩) في معركة (بولتافا) فالتجأ إلى تركيا . وعاد إلى بلاده بفضل الدعم الذي قدمه له السلطان أحمد الثالث (سنة ١٧١٥) وقتل أثناء حصار (فريدريك شالد - أوهالدن) .

يريد إفساح المجال أمام إجراء صلح مع روسيا ، ومن المحتمل أنه لم يكن راغباً بتعاظم قوة بولونيا إلى درجة تتجاوز ما يريده لها . ولهذا فانه لم يقدم لها من الدعم أكثر من نصف ما كان باستطاعته مساعدتها . فجعل (لليثونيا) حكومة مستقلة عن بولونيا ، وعقد لها مجلساً اتفق رأيه على تنظيم جيش وطني مؤلف من أربع فرق من المشاة ، وخمس فرق من الخيالة ، وخصص مبلغ أربعمائة ألف فرنك لتجهيزه وتسليحه . وأقام قوة من (الحرس الوطني) من المشاة في المدن ، مع مفارز من الخيالة في الأرياف لتأمين الطرق ودعم الجيش الافرنسي وحفظ النظام .

حاول القيصر الكسندر - خلال ذلك - كسب الوقت ، فأوفد سفيراً من قبله إلى (ولنا) بهدف مفاوضة نابليون على شروط الصلح - غير أن نابليون وضع شرطين لايمكن لروسيا قبولهما ، وهما : تخلي روسيا عن ليثونيا ، واشهار الحرب على انكلترا .

كان الطريق المؤدي إلى (ولنا) محدداً طبيعياً بنهري (دفينا) و (الدنيبر) . وكان نهر (دفينا) [٢٤] يشكل زاوية قرب (فيتبسك) - انظر خارطة (هجوم جيش نابليون) والآخر قرب (أورشا) . وكان اختيار (المعسكر الروسي) سيئاً في موقعه ، لأن النهر من ورائه . ولم يكن هناك غير أربعة جسور ، وهي غير كافية لحركة انسحاب الجيش إذا ما اضطر إلى ذلك . وعلى هذا فقد تقرر تركه ، وحصل هياج في الجيش الروسي - ضد الجرمان خاصة - وانقسمت وجهات نظر القادة ،

---

(٢٤) دفينا : (DVINA) اسم لنهرين مميزين في روسيا : ١ - دفينا الشمالي : (DVINA DU NORD) ويصب في البحر الأبيض عند (أركانجيليسك : ARKHANGELSK) ويبلغ طوله (١١٤٠ كم) . ٢ - دفينا الغربي : (DVINA OCCIDENTALE) واسمه في اللغة الليثوانية نهر (دوغافا : DOUGAVA) ويصب في خليج (RIGA) ، وطوله (١٠٢٤ كم) . والمقصود هنا هو دفينا الغربي .

وكثرت الآراء تبعاً لوفرة القادة حتى كأنه لم يعد هناك وجود للقيصر في الجيش . وأخذ الجنود يتناقلون ذكريات هزيمة الجيوش - ومنها الجيش الروسي - في (أوسترليتز) مما كان يزيد من إحباط روحهم المعنوية . وألح القادة على القيصر أن يتوجه إلى سمولنسك وموسكو وبيتر سبورغ بحجة أن وجوده هناك أكثر فائدة لادارة أمور المملكة وحشد الامكانات البشرية والمادية للحرب ، وإثارة الحماسة والروح الوطنية . ومن ثم فقد استقل (باركلاي) و (باجراتيان) بأمور الحرب على الجبهة .

كان نابليون يخشى شر توغله في عمق بلاد روسيا ، ويأمل في حسم الصراع بضرب أحد الجيشين الروسيين - أو كلاهما متفرقين - على مقربة من الحدود . غير أن وعورة الطريق ، والبعد الشاسع لمسرح العمليات ، وما حدث في الجيش الافرنسي من انقسامات ، أسقطت تدابيره وأحبطت مخططاته . وهكذا فبعد أن خاض (باركلاي) معركتين في (أوستروفنو) و (فيتبسك) انسحب متراجعاً إلى (سمولنسك) . أما (باجراتيان) فخاض معركتين أيضاً في (موهليف) و (أورتشا) وانسحب متراجعاً إلى (سمولنسك) ليضم جيشه إلى جيش (باركلاي) .

لقد كان انسحاب الجيش الثاني بقيادة (باجراتيان) عملية رائعة تعتبر نموذجاً رائعاً للانسحاب الماهر في ظروف صعبة للغاية . وكانت قوات هذا الجيش تقطع أكثر من (٤٠) كم في اليوم مع التهديد الدائم من خطر العدو - من الجبهة أو الجانب - وفي (٢٢ تموز - يوليو - ١٨١٢) التقى الجيشان الأول والثاني عند (سمولنسك) . وكان الجيش الأول قد وصل إلى (سمولنسك) يوم (٢٠ تموز - يوليو) بعد أن قطع مسافة (٥٠٠) كم خلال (٣٨) يوماً . أما الجيش الثاني فقد قطع في انسحابه مسافة (٧٥٠ كم) . وكانت القدرة الحركية العالية للقوات

الروسية ، والعمل الصامد الجريء لقوات حماية المؤخرة ، كافية لاحباط مخطط نابليون .

اجتاحت القوات الروسية موجة عامة من الغضب بسبب التراجع المستمر . وعقد القائدان (باجراتيان) و(باركلاي) مؤتمراً لمناقشة الموقف ، وظهر خلاف حاد بين الرجلين . فقد كان من رأي (باركلاي) متابعة الانسحاب الذي يزيد من قدرة الجيش الروسي بقدر ما يضعف من قدرة الجيش الافرنسي . أما (باجراتيان) فقد رأى ضرورة مجابهة القوات الافرنسية ، والتصدي لها مهما كانت النتائج . وكان قادة الجيش وجنده يميلون لهذا الرأي ، فتركز الهجوم ضد شخص (باجراتيان) واتهم بعدم الاخلاص - لأنه جرماني من أصل أجنبي - فقبل هذا اتخاذ موقف الدفاع ضد جيش (مورات) الذي كان قد وصل إلى (كراسكو) . ودارت بين الجيشين معارك دموية طاحنة طوال أيام (١٤ و١٥ و١٦ و١٧ و١٨ - آب - أغسطس) وكانت القوات الافرنسية التي وصلت إلى سمولنسك في يوم (٦ آب - أغسطس) قد خاضت في المدينة معركة قاسية تم خلالها إحراق (سمولنسك) فهلك عشرون ألفاً من سكانها ، واضطر (باركلاي) للتراجع عنها ، والانسحاب على محور موسكو . وهذا ما فعله (باجراتيان) الذي خاض أثناء تراجعه معركة في (فالوتينا) ضد الجيش الافرنسي الذي كان يقوده (ني) . ووقع (١٥) ألفاً قتيلاً فوق ميدان القتال من الجيشين (الروسي - والافرنسي) .

تأكدت ظنون نابليون ، وعرف يقيناً أن الروس يجذبونه وجيشه إلى عمق بلادهم . وكانت القوات الروسية تتابع انسحابها مدمرة في طريقها كل ما يمكن أن يفيد جيوش الغزاة ، حتى تحولت البلاد إلى مجموعات من (الخرائب) و(الأراضي المحروقة) . وكان الفلاحون

الروس يقولون لاخوانهم الجنود : « **امضوا في طريقكم ؛ واخبرونا فقط عن الوقت المحدد لنحرق مزروعاتنا بأيدينا** » .

أضاع الافرنسيون ثلاثة أيام في (سمولنسك) . ولم يكن من الغريب ، بالنسبة للروس على الأقل ، أن يجدوا هذا الحصن الذي طالما تعرض لأعمال الحصار الطويلة والعنيفة طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، أن يعود للصمود في وجه نابليون ، وأن يصهر الجيش الافرنسي أمامه ويذيبه - كما يذوب الشمع أمام النار - . وقد بلغت خسارة الافرنسيين - من نييمن إلى ولنا - وبدون أن يشتبكوا مع القوات الروسية مرة واحدة ، أكثر من (٥٠) ألفاً ماتوا أو أصبحوا خارج القتال بتأثير المرض وحده . ثم خسر الجيش الافرنسي (١٠٠) ألف من جنده أيضاً أثناء مسيرته من (ولنا) إلى (موهليف) . فتناقص جيش (ني) [٢٥] من (٣٦) إلى (٢٢) ألفاً ، وتناقص جيش (أودينوت) [٢٦] من (٣٨) إلى (٢٣) ألفاً ، وجيش (مورات) [٢٧] من (٢٢) إلى

---

(٢٥) ني : (NEY , MICHEL — DUC D'ELCHINGEN , PRINCE DE LA MOSKOVA) ماريشال فرنسا ، من مواليد (سارلوي : SARRELOUIS) (١٧٦٩ - ١٨١٥) حقق انتصارات رائعة في عهد الثورة الافرنسية وفي العهد الامبراطوري - وبصورة خاصة خلال حملة موسكو - ونصبه لويس الثامن عشر (أميراً على فرنسا) في محاولة لضمه إلى البلاط في فترة إعادة الملكية غير أنه لم يلبث ان انضم إلى نابليون خلال فترة حكم المائة يوم . وعندما انتصرت قوات الحلفاء ثانية (في واترلو) وعادت الملكية ، قدم (ني) لمحكمة باريس التي قررت إعدامه ، ونفذت الحكم في اليوم الثاني مباشرة . وفي سنة (١٨٥٣) أعيد الاعتبار إلى (ني) وأقيم له نصب تذكاري في ساحة (الاوبسرفاتوار) - في باريس - وفي ذات المكان حيث أعدم رمياً بالرصاص .

(٢٦) اودينوت : (OUDINOT , NICOLAS — CHARLES , DUC DE REGGIO) ماريشال فرنسا ، من مواليد (بارلودوك : BAR LE DUC) (١٧٦٧ - ١٨٤٧) اقترن اسمه بمعارك (أوسترلينز) و (اوستولذكا) و (فريدلاند) و (واغرام) و (بوتزن) .

(٢٧) مورات - جواشيم ، ماريشال فرنسا . (MURRAT , JOACHIM) صهر

(١٤) ألفاً ، وجيش بافاريا الذي فتك به داء (الدوسنطاريا) من (٢٧) إلى (١٣) ألفاً ، وفرقة إيطاليا من (١١) ألفاً إلى خمسة آلاف فقط . ولم تكن خسارة جيوش الحرس الايطالي ووستفاليا وبولونيا وساكسونيا وغيرها تقل عن تلك النسبة أيضاً . وكانت عصابات (القوزاق) بصورة خاصة تنتشر في كل مكان ، فتعمل على سلب كل ما تستطيع الاستيلاء عليه من ذخائر الافرنسيين ومتاعهم . وقد نجحت في تدمير بولونيا وليثونيا أثناء مرورها فيها . وكانت ضرباتها على مؤخرات القوات الافرنسية ومراكز تموينها ذات أثر كبير في إحباط الروح المعنوية للقوات الافرنسية ، وإزعاجها بصورة مستمرة .

٧ - المنقذ (كوتوزوف) :

تصدى نابليون لمعالجة الموقف المتدهور لقواته ، فأمر أحد جيوشه بالتقدم إلى (ليثونيا) . ودفع جيشاً آخر لاجتياز نهري (الالبي) و (الاودر) . وطلب إلى مائة كتيبة (من كتائب الحرس الوطني) بعبور نهر الراين . وأثناء ذلك كان (ماكدونالد) [٢٨] يتتبع (ونجستين) [٢٩]

= نابليون بونابرت ، وزوج شقيقته كارولين بونابرت (١٧٦٧ - ١٨١٥) . عينه نابليون ملكاً على نابولي (١٨٠٨ - ١٨١٥) وعندما تم عزله عن مملكته في سنة ١٨١٥ ، حاول استعادتها بالقوة ، فتم القاء القبض عليه في (بيزو : PIZZO) واعدم رمياً بالرصاص .

(٢٨) ماكدونالد : (MACDONALD , ALEXANDRE) ماريشال فرنسا ، وهو من مواليد سيدان (١٧٦٥ - ١٨٤٠) أحرز انتصاراً رائعاً في معركة (واغرام) فمنحه نابليون لقب دوق تارنت . وقد تولى المفاوضات مع الحلفاء سنة ١٨١٤ واقنع نابليون بالتنازل عن السلطة .

(٢٩) ونجستين : (LOUIS , PRINCE DE WITTGENSTEIN) ماريشال روسي ، من أصل بروسي ، وهو من مواليد (بيريسلي : PEREIASLAY) (١٧٦٩ - ١٨٤٣) برز اسمه أثناء حملة نابليون على روسيا سنة ١٨١٢ ، كما اقترن اسمه بمعركة (ليبزيغ) .

ويطارده ، وأمكن له الاستيلاء على (بولتسك) بعد موقعة يوم (١٨) آب - أغسطس - واحتل (دنباروغ) وتهدد (ريغا) بالحصار وأمكن له بذلك إزعاج (بيترسبورغ) وتهديدها . وظهر أن (نابليون) قد بات مسيطراً على الموقف .

أثناء ذلك ، كانت موجة التذمر والغضب تتعاظم في وسط القوات الروسية التي لا زالت مستمرة في انسحابها ، وتدهورت سمعة القائدين (باركلاي) و (باجراتيان) وأخذا في فقد سيطرتهما على قواتهما . واجتمع القادة لمناقشة الموقف . وقرروا التماس تعيين كوتوزوف لانقاذ الموقف . ووافق القيصر الكسندر على اقتراح قادته ، وأصدر أمره بتعيين (كوتوزوف) قائداً للجيشين الأول والثاني . وما كاد خبر هذا التعيين ينتشر حتى ارتفعت الروح المعنوية بشكل مذهل ، وتناقل الناس (النبأ العظيم) بفرحة تحمل كل الآمال بالنصر . والغريب في الأمر أن عملية الانسحاب قد استمرت فيما كان الجند يعتقدون أنهم زاحفون لقتال الغزاة الافرنسيين . ألم يقل لهم كوتوزوف عندما استعرض فصائلهم : « **من ذا يعود القهقرى بجيش باسل كهذا** » . وإذن - فلم يعد هناك ثمة مجال للتراجع - في اعتقاد الجنود على الأقل - .

وصلت القوات الروسية يوم (٢٢ - آب - أغسطس - إلى (بردينو) التي تقع على بعد (١٢٠) كيلومتراً إلى الغرب من موسكو ، وتم اختيار مواقع القوات الروسية لتكون-إلى الخلف من (نهر كالاتشا) وعلى جبهة تمتد مسافة (٨) كم . وكانت الأرض سهلية تتخللها الهضاب وتفصلها الوديان ذات الانحدارات الخفيفة المغطاة بالأعشاب . وكانت الأنهار والسواقي الموجودة في المنطقة صالحة كلها للعبور - عبر المخاضات - . واحتلت القوات الروسية المرتفعات الصغيرة الموجودة في منتصف المواضع وعلى يسارها والتي كانت تعتبر بمثابة النقاط القوية .

وبنيت تحصينات دفاعية ومرابض لـ(١٨) مدفعاً في وسط الترتيب القتالي . كما أقيمت تحصينات مماثلة على الجناح الأيسر ، مع مرابض لثلاث بطاريات (ضمت ٣٦ مدفعاً) .

كانت فكرة (كوتوزوف) تستند إلى ضرورة قطع طريق موسكو على قوات نابليون . بينما كان هدف نابليون هو الوصول إلى موسكو واحتلالها بعد تدمير القوات الروسية الموجودة على الطرق المؤدية إليها . وقد وضع (كوتوزوف) مخططه لتدمير الجيش الافرنسي عند اندفاعه إلى موسكو وهكذا أصبحت (موسكو) هي مركز الثقل الاستراتيجي لصراع القائدين كوتوزوف ونابليون .

واختيرت المواضع الدفاعية الروسية ، لتغطية اتجاه (سمولنسك – موسكو) الهام والحيوي جداً بالنسبة إلى تموين القوات الروسية وانسحابها ، كما ان اختيارهاللدفاع عن هذه المنطقة قد حرم نابليون من إمكانية الالتفاف حول القوات الروسية ، بدون أن تهدد خط مواصلاته ، حيث كانت القوات الروسية قادرة في هذه الحالة على مهاجمة القوات الافرنسية الملتفة والمبعثرة . وكان الجناح الأيسر للقوات الروسية هو الأكثر خطراً لاحتمال قيام القوات الافرنسية بالهجوم عليه ، لأنه كان يعطي هذه القوات إمكانية الالتفاف القريب حوله وتدمير القوات الروسية الموجودة على هذا الجناح ، وبالتالي مهاجمة القوات الروسية من الخلف وتدميرها في الجيب المحصور بين نهري (موسكو) و (كالاتشا) .

ووضع (كوتوزوف) خطته على أساس اشراك كل قوى الشعب في الصراع ضد الغزاة ، وعلى الافادة القصوى من المشاعر الدينية والوطنية . ولهذا عمل على توسيع حرب الانصار ، وتنظيم عدد كبير من وحدات الانصار الجديدة ، سواء من متطوعي جماهير الشعب أو من

الوحدات النظامية العاملة في مؤخرة العدو - بحسب أسلوب عمل الانصار . وقد وجه (كوتوزوف) جهود جيوشه وقواته نحو هدف واحد ، وربط أعمالها القتالية بخطة واحدة . كما أنه نسق الأعمال القتالية للانصار مع الأعمال القتالية للجيوش النظامية .

ما أن توقف (كوتوزوف) في (بوردينو) حتى أخذت النجدات تنضم إليه من القوزاق وموسكو (فرقة دروجينا الشهيرة) ومن نهر الدون (حيث الجنود المظفرة أصحاب اللحى الطويلة الذين لبوا نداء القيصر) فتعاظمت قوة (كوتوزوف) وأصبح لديه أربعة جيوش ضمت (٧٢) ألفاً من المشاة و (١٨) ألفاً من الفرسان و (٧) آلاف من القوزاق و (١٠) آلاف جندي احتياطي و (٦٠) مدفعاً . وعدد رجال المدفعية (٢١) ألفاً . أما نابليون فلم يستطع حشد أكثر من (٨٦) ألفاً من المشاة و (٢٨) ألفاً من الخيالة - الفرسان - و (٥٨٧) مدفعاً . وعدد رجال مدفعيته (١٦) ألفاً .

كانت مقدمة الجيش الروسي محددة من اليمين بقرية (بوردينو) على نهر (كولوتشار) ومن الوسط بالجبل الأحمر ، حيث قام ما يسميه الافرنسيون (المتراس العظيم) ويسميه الروسيون (مدفعية ريفسكي) . ومن الشمال (باستحكامات باجراتيان الثلاثة) التي كان بينها وبين الجبل الأحمر (جبل سيمنتفسكي) وقرية بذات الاسم . وأقام نابليون مقر قيادته على مسافة قريبة من تحصينات (شيفاردينو) بينما أقام كوتوزوف مقر قيادته في قرية (غوركي) .

وصلت القوات الافرنسية إلى (بوردينو) يوم ٢٥ آب - أغسطس - ١٨١٢ وبدأت على الفور عملياتها بالاستعداد للاستيلاء على المواقع الروسية ، وخوض المعركة الحاسمة التي يطلق عليها الروس اسم (**معركة بوردينو**) . والتي أطلق عليها نابليون اسم (**موقعة**

موسكوا) مع أن (نهر موسكوا) كان يصب على بعد من ميدان القتال .

أمضى نابليون نهار يوم ٢٥ آب - أغسطس - بكامله وهو على جواده ، يفحص الأرض ، ويناقش الخطط التي يعرضها عليه قادته - ماريشالاته - ويعطي بنفسه الأوامر إليهم . وعاد بعد ذلك إلى مقر قيادته ليتابع التنظيم للمعركة الحاسمة . وفي النهاية أصدر أمره الذي تضمن ما يلي :

« عند بزوغ النهار ، تبدأ بطاريتان جديدتان تقامان خلال الليل على هضبة الأمير ديكموهل بإطلاق نيرانهما على البطاريتين المعاديتين .

يبدأ الجنرال قائد مدفعية الفوج الأول ، في اللحظة ذاتها ، بإطلاق النار من مدافعه الثلاثين التي ستكون في جيش - كومبان - وكذلك من قاذفات القنابل التابعة لفوجي (دوسيكس وفريان) اللذين سيتقدمان إلى الأمام بهدف الوصول برماياتهما على بطاريات العدو . والتي سيكون أمامها على هذا الشكل مدافع فرقة الحرس الأربعة والعشرين ، وثلاثون مدفعاً من فوج كومبان ، وثمانية من فوجي (دوسيكس وفريان) - المجموع اثنان وستون مدفعاً .

على الجنرال - فوشيه - قائد مدفعية الفوج الثالث - ان يتمركز مع كل قاذفات القنابل من الفوجين الثالث والثامن وعددها ست عشرة ، حول البطارية التي تضرب الحصن الأيسر . وبذلك يصبح عدد المدافع ضد هذه البطارية أربعين مدفعاً .

على الجنرال - سوربيه - أن يكون مستعداً للانفصال مع كل قاذفات القنابل التابعة لسلاح الحرس ، عند أول أمر يصدر إليه بالتوجه إلى أحد التحصينات .

يتوجه - الأمير بونياتوفسكي - تحت ستار القصف ، من القرية نحو الغابة للاستدارة حول موقع العدو . أما الجنرال - كومبان - فانه يسير بحذاء الغابة للاستيلاء على الحصن الأول . ستصدر الأوامر اللاحقة تبعاً لأوضاع العدو ، وذلك بعد أن تنشب المعركة . يبدأ قصف المدفعية على الجناح الأيسر ، مع بدء القصف على الجناح الأيمن . وستنظم سلسلة قوية من هجمات رماة البنادق - من قناصة فيلق موران - وفيالق نائب الملك حالما يرون أن الهجوم من الأيمن قد بدأ . وعلى نائب الملك (جيروم) أن يحتل قرية (بوردينو) . وأن يبلغ عن طريق جسورها الثلاثة المرتفع ، في الوقت الذي يضل فيه القائدان (جيرار - و موران) ويضعان قواتهما تحت أوامر نائب الملك ، لاحتلال حصن العدو ، وتشكيل خط الجيش .

تنفذ هذه التعليمات بنظام وبصورة منهاجية ، مع مراعاة الاحتفاظ باحتياطي كبير .

- المعسكر - على بعد ميلين من موجائيسك
٦ - أيلول - سبتمبر - ١٨١٢ .

وأصدر نابليون عشية (موقعة بوردينو) بياناً قصيراً على جنوده جاء فيه ما يلي : « **أيها الجنود ! ها هي ذي المعركة التي طالما تمنيتموها . ان النصر منذ الآن يتوقف عليكم . وهو ضروري لنا لأنه سيعطينا الوفرة والمراكز الشتوية الجيدة ، وعودة سريعة إلى الوطن . تصرفوا كما سبق لكم في (أوسترليتز) و (فريدلاند) و (وفتيبسك) و (سمولنسك) ولتتحدث الأجيال الصاعدة عن سلوككم في هذا اليوم . ليقولوا عنكم : لقد كانوا في المعركة الكبرى عند جدران موسكو** » .

ما أن سمع جنود الغزو بيان الامبراطور الذي تلي عليهم ، حتى

اجتاحتهم موجة من الحماسة الجنونية ، وهتفوا بملء حناجرهم : يحيا الامبراطور ! يحيا الامبراطور ! . وترددت أصداء الهتاف في أذن الامبراطور نابليون - فقال لمساعده العسكري راب :

« غداً سيكون لنا ما نعمله مع كوتوزوف - سوف نرى ، تذكر أنه هو الذي كان يقود في برونو . وأنه لم يعتل صهوة جواده ، ولو مرة واحدة طوال ثلاثة أسابيع ، من أجل تفتيش نقاط دفاعه . سوف نرى ! » .

خيم على المعسكر الروسي في تلك الليلة صمت عميق ، وهدوء مطلق ، وقضى الجند ليلهم بالصلاة والخشوع والابتهالات القلبية والاعتراف ومناولة الأسرار الالهية ، ولبسوا كلهم قمصاناً بيضاء ، حتى كأنهم ذاهبون إلى عرس . وفي الصباح المبكر ، جثا عشرة آلاف منهم على ركبهم أمام الكهنة الذين باركوهم ، ورشوهم بالماء المقدس . وطافوا حول المعسكر بايقونة السيدة العذراء . ورفعوا نسراً فوق رأس قائدهم (كوتوزوف) وهم يهتفون هتاف الفرح والحماسة (الهورا) . وخرج (كوتوزوف) عن صمته . فوجه إلى جنوده كلمة دعاهم فيها **« إلى حماية أرض الوطن ، والتضحية بأمانة وصدق حتى آخر نقطة دم » .**

كان (كوتوزوف) في تلك اللحظة ، مطمئناً إلى ما أنجزه من استعدادات ، وما اتخذه من التدابير والاجراءات . فقد قسم الترتيب القتالي إلى أربعة أقسام : الجناح الأيمن - في القطاع بين قرية (مالايا) و (غوركي) . والقطاع الأوسط - القلب - من قرية (غوركي) حتى بطاريات المدفعية المتمركزة في الوسط . ثم الجناح الأيسر في منطقة (سيمينوفسكايا) . وأخيراً القوات الاحتياطية إلى الجنوب .وكانت قوات الجناح الأيمن والقلب من الجيش الأول بقيادة (باركلاي دوتولي) . أما

الجناح الأيسر فقد ضم قوات الجيش الثاني بقيادة (باجراتيون) . وتمركز الاحتياط العام خلف منتصف الترتيب القتالي قرب قرية (كينازكفا) . وكان الترتيب القتالي للقوات يتألف من : الصف المبعثر لأفواج المشاة الخفيفة ، وخطين من المشاة المنظمة بترتيب ارتال الكتائب ، وخطين من الخيالة . وأخيراً الاحتياطات العامة والخاصة الموجودة على مسافة أقل من كيلومتر واحد . وتألف الترتيب القتالي لفيلق المشاة من فرقة على الجانب الايمن وأخرى على الجانب الأيسر . أما أفواج المشاة فقد توضعت بأرتال الكتائب وعلى خطين . وبلغت المسافة بينهما حوالي (٢٠٠) م . وبلغ العمق العام للترتيب القتالي للفيلق من (٣) إلى (٤) كم . وكان يجب - حسب تعليمات كوتوزوف - الانتقال إلى الهجوم المعاكس العام عند الصد الناجح لهجوم العدو . وكان على القوات في حال الفشل أن تنسحب إلى الشرق - باتجاه موسكو .

لقد باتت الاستعدادات كاملة للمعركة .

٨ - موقعة بوردينو :

بدأت موقعة بوردينو عندما تفجرت قنابل (١٢٠٠) مدفع انطلقت للعمل في الساعة السادسة من صباح السابع من أيلول - سبتمبر - ١٨١٢ . وقد اهتزت الأرض لدوي القنابل الذي وصل حتى ثلاثين فرسخاً من الجهات الأربع لميدان المعركة .

زج نابليون لتنفيذ مخططه ثلاثة فيالق من أجل الهجوم على الجناح الأيسر للقوات الروسية واحتلال مواقع المدفعية على هذا الجناح ، وكذلك مهاجمة القلب حتى مواقع المدفعية فيه . كما زج فيلقاً رابعاً للالتفاف من حول هذا الجناح ، والانطلاق على طريق سمولنسك

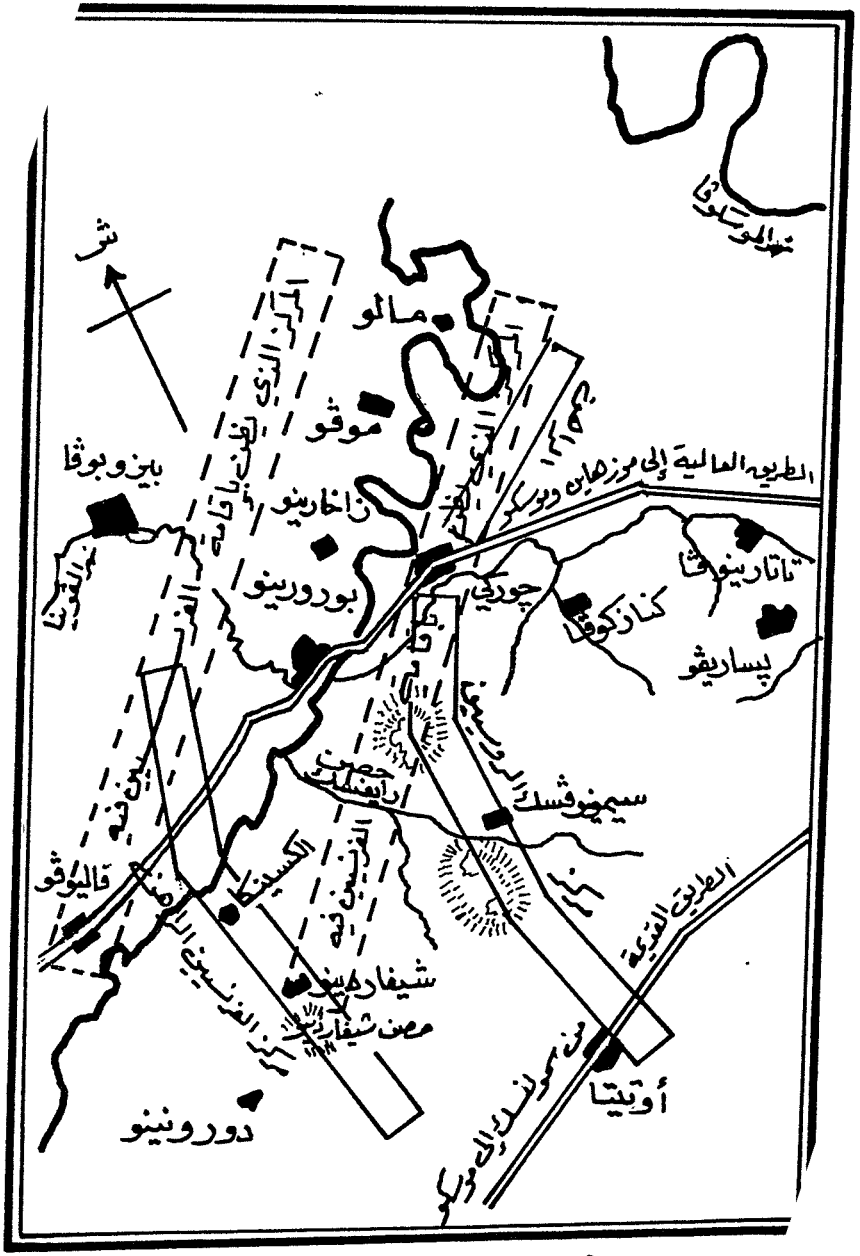

موقعة بورورينو

القديم . ولم يكن نابليون يعلم بوجود قوات روسية عند (أوتيتصا) مما أدى إلى إحباط مخططه حيث قامت القوات الروسية (الخيالة) بالانقضاض على الجناح الأيسر للقوات الافرنسية . وبلغ مجموع القوات التي زجها نابليون في المعركة ، التي استمرت أربع عشرة ساعة ، زهاء (٧٠) ألف جندي .

لقد تحركت هذه القوات تحت غطاء ستار كثيف من نيران المدفعية ، وتم تدعيم الهجوم باتجاه الضربة الافرنسية الرئيسية - خاصة - بنيران المدفعية الكثيفة . وعندما وصلت الفرقتان المتقدمتان إلى مجال رمي القوات الروسية ، قوبلتا بنيران قوية من المشاة الخفيفة ومن المدفعية . الأمر الذي أرغم القوات الافرنسية على الانسحاب إلى الغابة والاختفاء فيها . وبعد مرور بعض الوقت ، تابع الافرنسيون هجومهم ، ووقعت معركة ضارية استطاعت القوات الافرنسية بنتيجتها احتلال القسم الجنوبي من المرتفع اليساري . وعندها عزز القائد (باجراتيون) المرتفع ببعض كتائب فرقة المشاة (٢٧) . وقامت هذه بهجوم مضاد قوي ، فطردت الافرنسيين من المواقع التي احتلوها . وقامت قوة من فرسان القوزاق بمطاردة القوات الافرنسية المنسحبة . وجابه نابليون هذا الموقف ، فزج قوات فيلقين مدعمين بفيلق خيالة للاستيلاء من جديد على المرتفع اليساري . ودارت رحى معركة ضارية جداً ، استطاع الافرنسيون بعدها احتلال ثلاث تحصينات . وعادت القوات الروسية للهجوم المضاد ، ونجحت مرة أخرى في طرد القوات الافرنسية من المواقع التي احتلوها . وعندما احتدمت المعركة على المرتفع الأيسر ، أمر نابليون قواته بالهجوم على المرتفع الأوسط ، واحتلال بطاريات المدفعية الرابضة هناك . وبدأ الهجوم الأول في الساعة (١٠٠٠) ولكنه لم يحرز أي نجاح . وبعدها قام العدو بهجومه الثاني . واستطاع احتلال مرابض المدفعية . ومع ذلك فانه لم يستطع التحصن

بل طرد سريعاً بضربات الحراب . وكرر الافرنسيون من جديد هجومهم على المرتفع الأيسر ، ودعموا قواتهم السابقة بفيلق آخر مهمته الالتفاف من الجنوب ، وأمكن للافرنسيين بذلك تحقيق تفوق حاسم في القوى والوسائط ، مما ساعدهم على احتلال المرتفع في الساعة (١١٣٠) . ولكن بعد أن تكبدت قوات الهجوم خسائر فادحة .

قرر نابليون تطوير الهجوم بعد احتلاله المرتفع الأيسر والتحصينات القائمة عليه ، فزج خيالته لاقتلاع القوات الروسية التي سارعت إلى الأخذ بتشكيلة المربعات لمقاومة هجمة الخيالة الافرنسية . وعندها انطلقت الخيالة الروسية في هجومها المضاد . ومع ذلك ، فقد بات وضع القوات الروسية صعباً للغاية بعد اختراق القوات الافرنسية لدفاعها على الجناح الأيسر . وقام نابليون بزج (قوات الحرس) في الاتجاه الناجح للخرق ، حتى يزيد من قوة الضربة ، وحتى ينهي الموقعة في صالحه . وأدرك (كوتوزوف) بعمق فكرة نابليون فقرر إحباطها بتجميع القوى من الجناح الأيمن ودفعها نحو القلب والجناح الأيسر المهدد :

ولكي يستطيع (كوتوزوف) تنفيذ هذه المناورة ، كان لا بد له من إيقاف قوات الحرس الافرنسية المهاجمة بعض الوقت . ولهذا دفع فيلق الخيالة الأول مع وحدات (القوزاق) إلى الهجوم على الجناح الأيسر الافرنسي . الأمر الذي سبب الذعر في وسط القيادة الافرنسية ، فأوقفت هجوم قوات الحرس ، وانشغلت بصد الخيالة الروسية التي ظهرت على جناحها الأيسر . ان هجوم الخيالة الروسية المباغت ، أوقف قوات الحرس عن تنفيذ مهامها الرئيسية لمدة ساعتين وهو الذي سمح لكوتوزوف بنقل قواته من الجناح الأيمن إلى الجناح الأيسر والقلب ، وعزز بذلك المكان المهدد في دفاعه ، وأعاد التوازن للجبهة .

انتهت بذلك المرحلة الأولى من الموقعة ، وبدأت المرحلة الثانية التي تضمنت قيام القوات الافرنسية باحتلال مرابض المدفعية الروسية على المرتفع الأوسط ، وانسحاب القوات الروسية إلى الموضع الثالث ، ثم انسحاب القوات الافرنسية إلى مواضعها الأساسية .

نجحت القوات الافرنسية بصد هجمات الخيالة الروسية ، ونجح كوتوزوف في الوقت ذاته بدعم جناح قواته الأيسر على حساب الجناح الأيمن . وهنا أمر نابليون قواته بمهاجمة بطارية المدفعية المتمركزة على المرتفع الأوسط . وأخذت المدفعية في التمهيد للهجوم ، ثم انطلقت الخيالة الافرنسية في الساعة (١٤٠٠) في الهجوم ، وذلك بالالتفاف حول المدفعية من الشمال . ثم تبعتها المشاة . ووقعت معركة طاحنة انسحبت على أثرها القوات الروسية ، واحتلت في الساعة (١٦٠٠) مواقع جديدة تبتعد مسافة خمسمائة متر - حتى كيلومتر - عن المواضع القديمة (وجمع كوتوزوف جيشه في بساريفو) .

خسر نابليون في موقعة (برودينو) ثلاثين ألفاً من جيشه فوق أرض المعركة بينهم (٤٩) جنرالاً و (٣٧) قائداً بين قتيل وجريح . أما خسائر كوتوزوف فقد بلغت أربعين ألفاً وعدداً من الجنرالات والقادة معادلاً لخسارة الافرنسيين . وبعد انسحاب القوات الافرنسية ، تم إحراق (٥٨,٥٢١) جثة إنسان ، و(٣٥,٤٧٨) جثة حصان . وكانت الخسائر فادحة من الجانبين ، غير أنه كان باستطاعة (كوتوزوف) التعويض على خسائره بسرعة . في حين كان من الصعب على (نابليون) التعويض على هذه الخسائر .

ا - نابليون في بوردينو :

جلس نابليون على الرابية ينظر من خلال منظاره إلى ساحة المعركة الضيقة ، فكانت العدسة تريه دخاناً وجنوداً ، جنوده أحياناً وأحياناً جنوداً روسيين . لكنه فيما بعد ، ما كان يستطيع بالعين المجردة أن يخمن مواقع ما رآه . ونزل نابليون من فوق التل ، وراح يذرع السفح ويتوقف من حين إلى آخر ليصيخ السمع إلى دوي الانفجارات ، وليلقي نظرة إلى ساحة المعركة . وكان من الصعب إن لم يكن من المحال ، معرفة الموقف الصحيح فوق ساحة المعركة ، سواء بالنسبة للمراقب الواقف على الرابية ، أو حتى بالنسبة للمقاتلين في التحصينات والتي كان الافرنسيون يحتلونها تارة ليسلموها إلى الروسيين تارة أخرى ، تاركين قتلى وجرى وأحياء مروعين أو مذهولين . ولقد تعاقب طوال ساعات ، وبين قصف المدافع وأزيز الرصاص المتواصلين ، ظهور المشاة والفرسان من الروسيين والافرنسيين ، وهم يقاتلون دون هوادة ولا ملل ، ويندفعون ، ويطلقون النار ، ويسقطون ويتدافعون دون أن يدري هؤلاء ماذا يفعلونه بأولئك ويصرخون ويتقهقرون .

كان المساعدون العسكريون الذين يوفدهم الامبراطور بمهمات يعودون ويقدمون تقاريرهم . وكذلك كان يفعل الضباط التابعون لماريشالات نابليون ، غير أن تلك التقارير لم تكن دقيقة ، لأنه كان من المحال على المرء أن يعرف ما يحدث في فترة ما ، في غمار المعركة . كما أن كثيراً من أولئك الضباط لم يستطيعوا بلوغ الأمكنة المعينة لهم ، فكانوا يكتفون بترديد ما سمعوه من أقوال . أضف إلى ذلك أن الموقف كان يتبدل بينما هم يجتازون نصف الميل أو ثلاثة أرباع الميل التي تفصلهم عن سيدهم ، فتصبح الأنباء التي يحملونها خاطئة . وعلى هذا

النحو جاء مساعد تابع لنائب الملك يعلن ان (بوردينو) قد احتلت ، وأن الجسر القائم على نهر (كولوتشا) أصبح في أيدي الافرنسيين . وسأل عما إذا كان يجب نقل القطعات عبر النهر . فأوعز إليه نابليون أن ينظموهم على الشاطىء الآخر ، وأن ينتظروا ، ولكن ، في اللحظة التي أعطي فيها ذلك الأمر ، بل وأكثر من ذلك ، ما كاد المساعد العسكري يغادر (بوردينو) حتى استعاد الروس الجسر وأحرقوه . وكان جهل نابليون بحقيقة الموقف كافياً لاثارة كل مخاوفه .

كانت مراكز قيادات جنرالات نابليون : (دافو) و (ني) و (مورات) قريبة من منطقة النار ، بل انهم دخلوا تلك المنطقة أكثر من مرة ، وقادوا قطعات كثيرة ، وطيعة ، ولكن لم يتقدم أحد ليعلن فرار العدو ، على عكس ما كان يحدث دائماً في المعارك السابقة ، فكانت تلك القطعات المنظمة أحسن تنظيم ، تعود من هناك وهي (مشتتة) و (مروعة) فيعيدون تنظيمها . لكن أعدادها كانت تتناقص باستمرار تناقصاً واضحاً . وحوالى الظهر ، أرسل (مورات) إلى الامبراطور مساعداً عسكرياً يطلب (دعمه) بقوات إضافية .

كان نابليون يجلس عند سفح التل يشرب (البونش) عندما وصل مساعد (مورات) العسكري ، يؤكد أن الروسيين سيسحقون ، إذا تفضل جلالته بإرسال فوج آخر إلى المعركة . **وقال نابليون بلهجة صارمة ، وكأنه لم يفهم ماذا يريد ذلك الشاب ، الفتى الجميل ، الذي يشبه شعره الأسود الطويل والمتماوج شعر سيده (مورات) أن يقول : إمدادات ؟ وكرر يخاطب نفسه : « إمدادات ! كيف يحدث أن يطلبوا إمدادات وهم الذين بين أيديهم نصف الجيش ، ويقتصر هجومهم على جناح بالغ الضعف ، لا يكاد يكون محصناً ! » ثم نطق بصوت مرتفع وبجفاء : « قل لملك نابولي ان الظهر لم يحن بعد ، انني لا أرى بوضوح**

بعد الموقف على رقعة الشطرنج . امض » .

وأطلق المساعد العسكري ، ذو الشعر الطويل المتماوج ، زفرة عميقة ، ويده إلى حافة قبعته ، ومضى خبباً من جديد إلى المكان الذي كان الجنود فيه يقتلون بعضهم بعضاً .

نهض نابليون ، واستدعى (كولنكور) و (بيرتييه) وراح يتبادل معهم الحديث في مواضيع غريبة تماماً ، وبعيدة كل البعد عن مجرى المعركة . وبدأ الحديث يلذ للامبراطور حينما انتقلت عينا (بيرتييه) فجأة إلى جنرال تتبعه حاشيته ، جاء بأقصى سرعة الجواد قاصداً التل . كان ذلك هو (بيليار) الذي قفز من على جواده المغطى بالزبد . وتقدم بخطى سريعة إلى الامبراطور ، وراح يعرض عليه بصوت مرتفع جريء ضرورة إرسال الامدادات . كان يقسم بشرفه أن الروسيين ضائعون لا محالة إذا دخل فوج آخر المعركة . . . وهز نابليون كتفيه ، واستمر في مشيته دون أن يجيب ، فراح (بيليار) يتكلم بحمية إلى جنرالات الحاشية الذين أحاطوا به .

قال الامبراطور ، وهو يعود إلى الجنرال : « **إنك محتد كثيراً يا بيليار ! إنه من السهل أن يخطىء المرء تقدير الموقف في جحيم المعركة . اذهب وادرس الموقف من جديد وعد إلي . . .** » .

لم يكد (بيليار) يختفي عن الأنظار حتى وصل رسول آخر ، من نقطة أخرى من ساحة المعركة . قال نابليون ساخطاً بلهجة الرجل الذي يرى العوائق وهي تظهر في طريقه باستمرار : « حسناً ! ماذا هناك ؟ » وشرع المساعد العسكري يقول :

- يا صاحب الجلالة ، إن الأمير . . .

فأعقب الامبراطور بحركة غاضبة : يطلب المدد ؟ .

فأشار الضابط برأسه : ان نعم . وراح يقدم تقريره . استدار الامبراطور ، لكنه لم يلبث أن عاد أعقابه ، والتفت إلى (بيرتييه) وقال (لذلك إلفرخ الذي جعلته نسراً) كما أخذ يدعوه فيما بعد : لا ريب أنه يجب إعطاؤهم إمدادات . هيا ، من سنرسل ؟ فأجاب (بيرتييه) الذي كان يعرف عن ظهر قلب كل الفيالق والألوية والأفواج : « لنرسل فوج (كلاباريد) يا صاحب الجلالة » فأيده نابليون بحركة من رأسه .

جرى المساعد العسكري نحو فوج (كلاباريد) وبعد دقائق ، شرع فوج الحرس الفتي ، الذي كان مقاماً احتياطاً وراء التل ، يتحرك ، ونابليون ينظر بسكون في ذلك الاتجاه . وفجأة قال لبيرتييه : « لا أستطيع إرسال فوج كلاباريد . أرسل فوج فريان » وعلى الرغم من أن إرسال فوج فريان بدلاً من فوج كلاباريد لم يكن له أية ميزة أو فائدة ، وأن إبدال فوج بآخر سبب ضياعاً حقيقياً للوقت ، فإن هذا الأمر نفذ بكل دقة . لم ير نابليون انه حينذاك كان يلعب حيال قطعاته دور الطبيب الذي تزيد أدويته من خطورة المرض ، وهو الدور الذي كان بارعاً في تمييزه ونقده عند الآخرين . اختفى فوج (فريان) وسط الدخان - كالأفواج الأخرى - . وظل المساعدون العسكريون يهرعون من نقاط مختلفة ليقولوا - وكأنهم وحدوا كلمتهم - الشيء بعينه . كانوا جميعاً يطلبون الامدادات . ويؤكدون أن الروسيين أبعد من أن يفكروا في التراجع ، انهم يفتحون نيران جحيم تذوب فيه القطعات الافرنسية . وظل نابليون متفكراً على مقعده .

كانت قطعاته هي الأولى نفسها ، وجنرالاته أنفسهم ، والتدابير المتخذة ذاتها ، وأمر المعركة ذاته ، والنداء القصير الحازم إياه ، ثم انه نفسه لم يتبدل ، وهو يعرف ذلك تمام المعرفة . وهو يزعم لنفسه أنه بات أكثر روية وخبرة من ذي قبل ، وأن العدو ما زال نفسه الذي كان في

(أوسترليتز) و (فريدلاند) . فلماذا إذن تصبح ضربته الرهيبة المباغتة عاجزة ، وكأنها بسحر ساحر ؟ . لقد كانت وسائله الفنية التي طالما نجحت معه بمألوف العادة : تركيز المدفعية على نقطة واحدة ، اختراق الخطوط بواسطة الاحتياطي ، هجوم هؤلاء الرجال الحديديين العتيد الذين يشكلون فرق فرسانه . كل هذه الوسائل استعملها دون أن يحصل على النصر . بينما الأنباء نفسها تتعاقب : جنرالات قتلى أو جرحى ، سرعة إرسال الامدادات ، تشتت القطعات ، العجز عن إلحاق الهزيمة بالقوات الروسية .

كان يكفي فيما سبق الاستيلاء على مركزين أو ثلاثة مراكز ، والنطق بجملتين أو ثلاث جمل ، حتى يرى القادة - الماريشالات - والمساعدين العسكريين يفدون مهللي الوجوه يعلنون النصر ، مع جيوش كاملة من الأسرى ، وباقة من الاعلام والشعارات العدوة ، والمدافع وصناديق الذخائر على شكل أسلاب . وما كان على (مورات) إلا أن يطلق فرسانه حتى يغنم عربات النقل . هكذا جرت الأمور في (لـودي) و (مارنغـو) و (آركـول) و (بينـا) و (أوسترليـتز) و (واغرام) الخ . . . الخ . . . فما الذي حدث لجنوده إذن ؟ .

لقد أعلمه أحد المساعدين العسكريين باحتلال التحصينات ، ولكنه على الرغم من ذلك كان يرى بأن الأمور تسير على نهج يغاير تماماً سير معاركه السابقة . وكان يرى أن من حوله من الرجال ، وكلهم خبروا الحرب ، يشعرون بمثل شعوره . كانت الوجوه كلها حزينة ، والعيون تتحاشى لقاء نظراته . ولم يكن نابليون بحكم خبرته يجهل معنى قتال يستنفد طوال ثماني ساعات ، من الجهد دون أن ينتزع المهاجم النصر . لقد كان ذلك أشبه بالهزيمة بالنسبة إليه ، فالميزان يميل بشكل يصبح معه أتفه حادث قميناً بضياعه هو وجيشه .

وعندما كان يستعرض في ذهنه هذه الحملة الغريبة ، يصطدم بفكرة أنه لم يحصل طوال شهرين على نصر واحد ، ولم يغنم علماً واحداً ، أو مدفعاً واحداً ، ولا فصيلة من الجند الأسرى . ويتأمل هذه الوجوه المكتئبة في السر ، ويسمع تلك التقارير عن المقاومة العنيدة للعدو . كان يخيل إليه أنه بات فريسة لحلم مروع . طافت برأسه كل الحوادث العرضية التي يمكن أن تسبب ضياعه : يهجم الروسيون على جناحه الأيسر ويخرقون خط الوسط فتأتي قذيفة شاردة تذهب به شخصياً . إن كل الأشياء ممكنة الوقوع .

لم يكن نابليون - في معاركه السابقة - يحسب إلا إمكانيات النجاح . أما الآن : فقد بات ينتظر عدداً من الأحداث العارضة السيئة . نعم . لقد كان ذلك يشبه الكابوس المرعب : يحلم المرء بأن آثماً يهاجمه فيشهر سلاحه ليضربه به بكل قواه ، لكنه يشعر بأن يده تتدلى عاجزة - كالخرقة - فيعتصر قلبه خوف من موت لا مفر منه . ولقد أحدث نبأ مهاجمة الروسيين لجناحه الأيسر ، مثل ذلك اللون من الروع - في نفس نابليون - فلبث متهالكاً فوق كرسي الميدان ، ورأسه بين يديه ، واقترب (بيرتييه) منه ، وعرض عليه الطواف بالخطوط لتكوين فكرة صحيحة عن الموقف . فأجابه : ماذا تقول ؟ نعم ، مر لي بحصان . واعتلى صهوة جواده ، ومضى نحو (سيمونوفسكوي) .

سار نابليون وسط الدخان الذي كان ينقشع ببطء ، وكانت جثث الرجال والخيول ملقاة على امتداد الطريق التي مر بها ، وهي سابحة في برك من الدماء ، منفردة أو مجتمعة ، حتى أن نابليون وملازميه لم يروا قط من قبل مثل هذا الهول ، ولا مثل هذا العدد من الجثث المجتمعة على رقعة بمثل تلك المساحة الضيقة . وكان دوي المدافع الذي لم يتوقف منذ عشر ساعات كاملة ، يصله ليصفع صحناء الأذن ، فيزيد جلال

المشهد ، كما تبرز الموسيقى قيمة الصور الحية .

وصل نابليون إلى ارتفاع (سيمونوفسكوي) . وإذ ذاك شاهد من خلال الدخان صفوفاً كاملة من الجنود مرتدين أزياء لم تكن ألوانها أليفة لديه . إنهم الجنود الروس .

وكان هؤلاء يحتلون مواقعهم وراء القرية والمرتفع ، وقاذفاتهم تطلق النار دون تمهل ، وتملأ خطهم كله بالدخان . لم يعد هناك قتلى بالمعنى المفهوم . والمجزرة الدائرة لا يمكن أن تعود بفائدة على الروسيين ولا على الافرنسيين . فأوقف الامبراطور حصانه ، وعاد يستسلم إلى التفكير حتى أخرجه (برتييه) منه . وهو يبدو وكأنه من صنعه لأنه مسؤول عنه . فبدا له للمرة الأولى مريعاً ، عديم النفع ، بسبب عدم نجاحه ولا ريب . وعرض عليه أحد القادة - الجنرالات - الذين برفقته أن يأمر بزج الحرس القديم . فتبادل (ني) و(برتييه) نظرات غامضة ، وطافت على شفاههما ابتسامة ازدراء لهذا العرض الأهوج . أما نابليون فقد أطرق برأسه ، وظل طويلاً لا يتكلم . وأخيراً قال : « **لن أدمر حرسي على بعد ثمانمائة ميل من فرنسا** » . ولوى عنان جواده وعاد إلى (شيفاردينو) (*) .

أحدث مظهر ساحة المعركة الرهيب المغطى بالقتلى والجثث ، والتثاقل الذي أحسه في رأسه ، ونبأ مصرع عشرين من كبار قادته - جنرالاته - ، والاعتراف الذي توجب عليه الاسرار به لنفسه بعجز ذراعه التي كانت حتى اليوم لا تقهر ، كل هذه الأمور أحدثت في نابليون تأثيراً غير منتظر . كان من عادته حب رؤية القتلى والجرحى ، وهو المنظر الذي يزيد في قوة روحه كما كان يعتقد . لكن ذلك المشهد هزم

(*) الحرب والسلم - ليوتولستوي - ٣ / ٣٦٢ - ٣٦٣ و٣٦٥ - ٣٧١ و ٣٨٩ - ٣٩١ .

ذلك اليوم قوة الروح العتيدة هذه التي كان يبني عليها عظمته واهليته . عاد مسرعاً إلى حصن (شيفا ردينو) ولونه أصفر ، ووجهه منتفخ ، وعيناه كدرتان ، وأنفه أحمر ، وصوته صدىء . وظل جالساً على مقعده ، مطرقاً بنظره ، مصغياً رغم إرادته إلى ضجيج المعركة . كان ينتظر بصبر محموم نهاية تلك المسألة التي يظن أنه ساهم فيها ، والتي ليس له سلطان على إيقافها . استولى عليه لبضع لحظات شعور انساني شخصي تغلب على ذلك السراب الذي ضحى من أجله بتضحيات جمة . وعزا إلى نفسه الآلام ، ورؤية الأموات التي ظهرت له على ساحة المعركة ، فذكره رأسه المثقل ، ورئتاه المتعبتان أنه كالآخرين يمكن أن يتألم وأن يموت أيضاً . وفي تلك الدقيقة ، ما عاد يرغب في موسكو ، ولا في المجد والنصر : أية حاجة به إلى المجد ؟ . . . إن كل ما يتمناه الآن ، هو الراحة والهدوء والحرية . . . ومع ذلك ، فانه عندما وقف على مرتفع (سيمونوفسكوي) وعرض عليه قائد المدفعية إقامة بضع (بطاريات) هناك ، لدعم النار الموجهة إلى القوات الروسية المتمركزة أمام (كينازكوفو) وافق نابليون على الفور ، وأمر أن يحاط علماً بالنتائج الحاصلة . وعلى ذلك ، فقد جاء مساعد عسكري يعلن أنه تنفيذاً لأوامره فقد سدد مئتان من المدافع على الروسيين . ولكن هؤلاء لا زالوا صامدين . وقال المساعد العسكري : **لقد حصدت نارنا صفوفاً كاملة ، ومع ذلك فهم ما زالوا صامدين** . فقال نابليون بصوته الأجش : « **انهم يريدون زيادة** » . وسأله الضابط الذي لم يسمع الجملة تماماً : - **يا صاحب الجلالة ؟** . . فكرر نابليون بصوته الأبح نفسه : **انهم يريدون زيادة** . وأمر وهو يقطب حاجبيه : - **أعطوهم ما يطلبون** .

لقد كان ما لم يرده يتحقق دون أمره . لذلك فانه لم يكن يتخذ التدابير إلا لأنهم - على ما كان يظهر - ينتظرون منه أن يتخذها . ومن جديد ، استغرق في سراب العظمة . مثله كمثل الحصان الذي يحرك

عجلة دافعة وهو يظن أنه إنما يقوم بعمل مفيد له شخصياً . كذلك هو ، عاد يقوم بوداعة ، بالدور القاسي والأليم والشاق ، الدور غير الانساني الذي عاش له ومن أجله .

لم تكن تلك الساعة وحدها من ذلك اليوم مجال اكفهرار ذهن ذلك الرجل المسؤول أكثر من أي كائن سواه عن الأحداث التي وقعت في ذلك العصر ، وضميره أنه لم يتوصل حتى نهاية عزه إلى تفهم الخير والجمال والحق ، فكانت أعماله معارضة تماماً للخير والحق بعيدة جداً عن كل شعور إنساني ، لدرجة أنه لم يكن باستطاعته معها أن يدرك مداها . وما كان يستطيع التنكر لمآثر تحمس لها نصف العالم ، فكان عليه بالتالي أن يتنكر للحق والخير ولكل شعور إنساني .

انتهى النهار مؤذناً بانتهاء الموقعة ، وانفصلت القوات بعضها عن بعض . ولو شاهد أي إنسان مؤخرة الجيش الروسي ، وما كانت عليه من الفوضى والاضطراب ، لقال ان مجهوداً صغيراً من الافرنسيين قادر على إفناء هذا الجيش . ولو شاهد أي إنسان مؤخرة الجيش الافرنسي لاعتقد أن مجهوداً ضعيفاً من جانب الروسيين يكفي للقضاء عليه . ولكن لا الافرنسيين ولا الروسيين كانوا قادرين على بذل ذلك المجهود الاضافي . فراح اوار المعركة يخبو تدريجياً . .

وأسدل الستار على موقعة (بوردينو) .

ب - كوتوزوف في بوردينو :

أقام (كوتوزوف) مقر قيادته في قرية (غوركي) - وفي وسط الموقع الروسي تماماً . وفي يوم المعركة ، لزم مكانه ، ولم يبرح المقعد المغطى بالنجد ، كان متهاوياً على نفسه بكل ثقل جسمه ، محنياً رأسه

الأشيب . لم يكن يتخذ تدبيراً معيناً ، بل يكتفي بإعطاء موافقته على ما يعرض عليه أو حجبها عنه . كان يجيب « **نعم ، نعم ، افعل هذا** » . ويقول لهذا أو ذاك من خلصائه : « **نعم ، نعم ، اذهب يا عزيزي ، اذّهب لنرى** » أو يعلن : « **كلا ، لا فائدة ، الانتظار أفضل** » . ويصغي إلى التقارير التي تنقل إليه ، ويعطي الأوامر متى طلبت منه . لكنه كان يبدو أشد اهتماماً بالانطباعات البادية على الوجوه ، واللهجات التي ينقل بها العسكريون تقاريرهم ، من اهتمامه بمدلول الكلمات ذاتها . لقد كانت خبرته الطويلة في الحروب ، وحكمته ككهل ، تعلمانه أن رجلاً واحداً لا يستطيع إدارة مئات الألوف من الرجال الذين يناضلون ضد الموت . وكان عارفاً أن ما يقرر مصير المعارك لا يتقرر بالتدابير التي يتخذها القائد الأعلى ، ولا بالموقع الذي تحتله القطعات ، ولا بعدد المدافع والقتلى ، وإنما يتقرر بتلك القوة الخفية التي تسمى (**معنوية الجنود**) . لذلك ، فقد راح يراقب تلك (الروح المعنوية) ويحاول قدر طاقته أن يوجهها . كانت قسمات وجهه تنطق بانتباه دائم هادىء ، وجهد يتغلب على جسم هدّه الكبر .

جاء المراسلون في الساعة (١١٠٠) يحملون إلى (كوتوزوف) نبأ استعادة التحصينات التي كانت القوات الافرنسية قد نجحت في احتلالها . ونبأ إصابة الأمير (باجراتيان) بجرح بالغ الخطورة . فندت عن (كوتوزوف) صيحة تعجب ، وهز رأسه ، ثم أمر واحداً من مساعديه العسكريين : « امض لزيارة الأمير بيرايفانو فيتش واستعلم تفصيلاً عن حاله » ثم استدار إلى الأمير (دو - وورتمبرغ) الذي كان واقفاً وراءه ، وقال له :

« **تفضل سموك بالاضطلاع بقيادة الجيش الثاني** » .

ولم يمض وقت طويل على ذهاب الأمير ، بل وقبل أن يبلغ

(سيمونوفسكوي) عاد المساعد العسكري يعلن (لعظيم الرفعة) أنه يطلب إمدادات . فقطب (كوتوزوف) حاجبيه وأرسل من فوره الأمر إلى (دوختوروف) بأن يتولى قيادة الجيش الثاني . زاعماً أنه بعد أن أمعن التفكير ، وجد أنه لا يستطيع الاستغناء عن الأمير (دو - وورتمبرغ) في مثل هذه المناسبات الخطيرة ، وأمر أن ينقل إليه رجاء العودة للوقوف إلى جانبه .

وقع القائد الافرنسي (مورات) في أسر القوات الروسية ، وعندما راح أعضاء أركان حرب (كوتوزوف) يقدمون إليه تهانيهم ، طافت على شفتيه ابتسامة وهو يقول : « **ليس بهذه السرعة أيها السادة ، لا شيء خارق في أن نربح المعركة أو أن يسقط - مورات - في الأسر . ومن الأفضل أن ننتظر قبل أن نبتهج** » . ومع ذلك ، فقد أرسل مساعداً عسكرياً لنشر هذا النبأ بين صفوف القوات .

جاء ضابط من الجناح الأيسر يعلم (كوتوزوف) أن الافرنسيين قد احتلوا التحصينات ، وأنهم سيطروا على (سيمونوفسكوي) ذاتها . وخمن (كوتوزوف) من إمارات وجه الضابط ومن الضجيج الذي كان يتناهى إلى سمعه من ميدان المعركة ، أن الأمور لا تسير على ما يرام ، فنهض ، وكأنه أراد أن يحرك ساقيه قليلاً ، وأمسك بذراع الضابط ، ثم انتحى به جانباً ، ليصغي إلى تقريره . ثم قال لأحد مساعديه : « اذهب يا عزيزي ، وانظر ما إذا كان بالمستطاع عمل شيء » . وعاد هذا المساعد بعد فترة ليؤكد : « بأنه قد تم صد الهجوم الذي قام به نابليون مراراً على الجناح الأيسر للقوات الروسية ، أما في الوسط ، فان الافرنسيين لم يتجاوزوا (بوردينو) بينما هزم فرسان (أوفاروف) القوات الافرنسية على الجناح الأيسر » .

توقفت الهجمات الافرنسية في الساعة (١٥٠٠) تقريباً .

واستطاع (كوتوزوف) أن يقرأ على وجوه الجنود العائدين من الميدان ، ووجوه من حوله ، هيجاناً يبلغ أقصى المراحل . وكان راضياً عن نهار جاء بنتائج فاقت ما كان يتوقع . لكن القوة الجسدية كانت تخون ذلك الكهل . ولقد سقط رأسه على صدره . بل ووقع له مرة أن نام . قدموا له العشاء . وبينما هو يأكل ، شوهد المساعد العسكري لجلالة القيصر - فولزوجن - وقد جاء من لدن - باركلاي - ليرفع تقريره عن الموقف في الجناح الأيسر . لقد قرر - باركلاي دوتوللي - الحصيف ، إزاء تزايد عدد الجرحى ، وفوضى المؤخرة ، وبعد أن أمعن في كل الأحتمالات ، أن المعركة قد خسرت ، فأرسل تبعاً لذلك صفيه ببسرعة يحمل النبأ إلى القائد العام .

حدق (كوتوزوف) بعينيه الصغيرتين الناريتين إلى وجه (فولزوجن) وهو لا زال مستمراً في مضغ قطعة الدجاج المشوي بصعوبة ، واقترب (فولزوجن) من القائد الأعلى بخطوات متكاسلة ، وانحنى محيياً وابتسامة مطاوعة تعلو شفتيه .

كان (فولزوجن) يعامل (عظيم الرفعة - كوتوزوف) بتكلف مشوب بقلة الحياء ، وكأنه يقول للروسيين : ان لكم كل الحرية في أن تجعلوا من هذا الهرم الفاني معبوداً لكم . لكن عسكرياً من طرازه هو - فولزوجن - يعرف كيف يتصرف تجاهه . قال ذلك في سره ثم مضى في حديثه مع نفسه وهو يلقي نظرة ساخرة على الأطباق الموضوعة أمام كوتوزوف : « ان السيد العجوز - وهذا ما كان الالمان يسمونه به فيما بينهم - يرفه نفسه » ثم شرع يعرض على - السيد العجوز - الموقف في الجناح الأيسر - كما قدره باركلاي - وكما لمسه هو بنفسه : « ان كل نقاط مراكزنا باتت بين أيدي العدو ، دون أن نستطيع له صداً نظراً لحاجتنا إلى الجنود ، وجنودنا يفرون ، ومن المحال علينا إيقافهم » .

توقف كوتوزوف عن المضغ ، وراح يحملق في (فولزوجن) وكأنه لا يفقه ما يقوله . وعندما رأى (فولزوجن) شدة انفعال (السيد العجوز) قال له : « لقد اعتبرت أنه ليس من حقي أن أخفي على سموك ما رأيت . ان القطعات في فوضى عامة ».

صاح (كوتوزوف) الذي نهض فجأة ومشى نحو (فولزوجن) : هل رأيت ذلك ؟ هل رأيت ذلك ؟ وكاد الغضب يخنقه وهو يهدده بيديه المرتعدتين :

« ألي أنا ، تبلغ بك الجرأة لتقول ما تقول ؟ إنك لا تعرف شيئاً من شيء يا سيدي . قل للجنرال (باركلاي) عن لساني أن معلوماته خاطئة ، وأنني بصفتي قائداً أعلى ، أعرف سير المعركة بأفضل مما يعرف » . وهم (فولزوجن) أن يجيب ، لكن كوتوزوف قاطعه : « لقد صد العدو على الجناح الأيسر ، وهزم على الجناح الأيمن . فإذا كنت أسأت النظر يا سيدي ، فان هذا لا يجيز لك أن تروي ما أنت جاهله . تفضل بالذهاب إلى الجنرال - باركلاي - وانقل إليه رغبتي في مهاجمة العدو غداً - دون تغيير » .

لزم الجميع الصمت فلم يسمع إلا صوت تنفس الجنرال العجوز اللاهث . واسترسل (كوتوزوف) يقول وهو يرسم شارة الصليب على صدره ، بينما طفرت الدموع من مقلتيه :

« لقد صدوا في كل النقاط ، شكراً لله ، وجنودنا البواسل . لقد هزم العدو وغداً سنطرده من أرض روسيا المقدسة » .

هز (فولزوجن) كتفيه ، وابتعد وهو يدل بسخريته على ما يراه في كفاءة الرجل العجوز . قال (كوتوزوف) وهو يشير إلى فتى جميل الطلعة ، متين البنيان ، ذي شعر فاحم ، وصل في تلك اللحظة من

فوق التل : انظر ها هو بطلي .

كان القادم هو الجنرال (راييفسكي) الذي لم يغادر طوال النهار النقطة الحساسة في المعركة . جاء ليعلن أن القطعات لا تزال صامدة ، وأن الافرنسيين لم تعد لديهم الجرأة على مهاجمتهم . ولما سمعه (كوتوزوف) يتحدث على هذا النحو ، قال له بالافرنسية :

« ألا تظن كالآخرين إذن أنه يجب علينا أن ننسحب ؟ » .

« على العكس يا صاحب السمو ، انّ الأكثر عناداً هو الذي ينتصر في المواقف المتأرجحة . وفي رأيي . . . » نادى كوتوزوف : « كائيساروف ! اجلس هنا ، واكتب الأمر اليومي لنهار الغد » وأنت - وأشار إلى مساعد عسكري آخر - امض للطواف بالصفوف وأعلن أننا سننتقل غداً إلى الهجوم . وفي تلك الأثناء أعلن (فولزوجن) الذي أرسله (باركلاي) للمرة الثانية ، أن جنراله يرغب في الحصول على تأييد خطي للأمر الذي أعطاه الماريشال . ودون أن يشرفه (كوتوزوف) بنظره ، أمر بكتابة ذلك الأمر ، ليرفع المسؤولية عن القائد الأعلى السابق الحصيف ، بناء على إصراره .

***

كان (كوتوزوف) وهو يصدر أوامره تلك ، مقتنعاً تماماً - ومعه الجيش الروسي كله - بأنهم ربحوا معركة (بوردينو) . ولقد كتب كوتوزوف الخبر بكل وضوح إلى الامبراطور الكسندر . وعمم الأمر باستئناف القتال في اليوم الثاني من أجل توجيه ضربة قاضية إلى العدو - وليس بقصد خداع أي كان - بل لأنه بات يعرف ، مثله كمثل كل واحد من المحاربين ، أن العدو قد هزم ، ولكن مع انقضاء المساء ، ثم مع قدوم فجر اليوم التالي ، بدأت التقارير الواردة تحدد حجم الخسائر

الهائلة تباعاً - ضياع نصف الجيش - . وظهر بوضوح أنه من المحال الالتحام في معركة جديدة من الناحية المادية .

لقد كان من المحال استئناف الصراع قبل إعادة التوازن للموقف ، واكمال عملية إخلاء الجرحى ، والتعويض على الذخائر ، وإحصاء عدد القتلى ، وتعيين قادة جدد مكان الذين قتلوا ، مع ضرورة إعطاء فرصة للجنود حتى يأخذوا قسطهم من الراحة . وفي تلك الأثناء ، والمعركة لما تكد تنتهي ، شرع الجيش الافرنسي منذ الصباح يهتز من تلقاء نفسه ضد الجيش الروسي (بفعل قوة الاندفاع هذه التي تتزايد بصورة عكسية بمعدل مربع المسافة) .

كان (كوتوزوف) يريد مهاجمة الافرنسيين ، وقد أصدر أمره بذلك ، وكان جيشه كله يريد القيام بعملية الهجوم . لكن الرغبة في الهجوم ، لا تكفي وحدها ، إذ لا بد من أن تتوافر القدرة على العمل ، ولم تكن هذه القدرة موجودة ، فبات من الضروري أن تقوم القوات الروسية بعملية انسحاب جديدة . ولكن إلى أين تنسحب القوات ؟ لقد كان جهدها مركزاً منذ البداية للدفاع عن موسكو . ولكن هل تستطيع القوات الروسية مجابهة معركة جديدة على أبواب موسكو ؟ . . .

لم يكن أمام القائد الأعلى (كوتوزوف) في تلك اللحظة الحرجة خطة واحدة فقط ، وإنما كان أمامه عشرات المشاريع . وكان كل مشروع منها منافياً للمشاريع الأخرى ، بالرغم من استنادها كلها إلى مرتكزات صحيحة من الناحيتين الاستراتيجية والحركية . وكان لا بد للقائد الأعلى من انتقاء واحد منها ، في حين كان عاملاً الأحداث والزمن يضغطان عليه ، فيجعلان من المحال اختيار المشروع المناسب .

قدم إلى (كوتوزوف) اقتراح بالانسحاب على طريق (كالوجا) العام . وفي تلك اللحظة تقدم إليه أحد المساعدين العسكريين يسأله عما

إذا كان يجب الالتحام فوراً في اشتباك مع الافرنسيين أم لا . وكان على كوتوزوف إصدار أوامره في اللحظة نفسها . فإذا أمر بالتراجع فانه يتحتم عليه القيام باستدارة لبلوغ طريق كالوجا . ويخرج المساعد العسكري وهو يحمل أوامر التحرك في اتجاه (كالوجا) . وفي تلك اللحظة ، يدخل ضابط التموين ويسأل عن الجهة التي يجب أن تسير الأرزاق - والتموين - إليها . ثم يأتي قائد المستشفيات ويسأل عن المكان الذي سيحمل الجرحى إليه . ثم يأتي مراسل من (بيترسبورغ) وهو يحمل رسالة من الامبراطور الذي لا يرضى بالجلاء عن موسكو . ثم يأتي خصم القائد الأعلى ، ذلك الذي يعمل جاهداً لكي ينال من تصرفاته - وهناك دائماً من أمثال هؤلاء عدد كبير وليس مجرد واحد فحسب - فيعرض مشروعاً جديداً متعارضاً كل التعارض مع خطة التراجع عن طريق كالوجا . وفي تلك الأثناء ، كان القائد العام يشعر بأن قواه تتطلب الراحة والنوم ، غير أنه لا يستطيع رفض استقبال جنرال محترم جاء يشكو من نتائج استثناء غير قانوني منح لبعضهم . وبعده يدخل مدنيون ملتمسين الحماية . ثم ضابط أرسل للاستطلاع فجاء يحمل معلومات تتناقض كل التناقض مع معلومات جاء بها زميل له من قبل . وأخيراً جاء دور جاسوس ، وأسير حرب ، ثم الجنرال الذي ذهب ليتفقد المواقع ، وكلهم يصفون مواقع العدو على طريقتهم .

***

أرسل (كوتوزوف) أحد مساعديه العسكريين لاستطلاع الموقف . وعندما عاد هذا المساعد - الجنرال ايرمولوف - قال للقائد الأعلى : انه لا يمكن الالتحام في معركة على مشارف - موسكو - وانه يجب الاستمرار في التراجع . ونظر إليه كوتوزوف في صمت . ثم قال له : - اعطني يدك . وبعد أن أدار تلك اليد بطريقة مكنته من جس

النبض أضاف قائلاً : إنك مريض يا صديقي ، فكر فيما تقول .

ما كان (كوتوزوف) حتى تلك اللحظة قادراً على استيعاب فكرة التراجع عن موسكو دون قتال .

***

غادر عظيم الرفعة (كوتوزوف) مقر قيادته في (غوركي) وتوقف على مرتفع (باكلونايا) على بعد ست مراحل من حُدود (دروغوميلوف) حيث هبط من عربته ، وجلس على مقعد على جانب الطريق . وتحلقت حوله مجموعة كبيرة من القادة - الجنرالات - وانضم إليه حاكم موسكو (روستو بتشين) الذي كان قد وصل منذ قليل من العاصمة . وراح هذا الجمع من الشخصيات المرموقة ينقسم إلى مجموعات صغيرة ، انصرف أفرادها لمناقشة محاسن الموقف ومساوئه ، وحالة الجيش ، والمخططات المقترحة ، والحالة المعنوية في موسكو ، وعددا اخر من المواضيع ذات الطابع العسكري . وكان كل واحد منهم يشعر ، دون أن يستدعيه أحد ، ودون أن يطلق على هذا الجمع اسم (لجنة استشارية) انه إنما يساهم في (مجلس عسكري) . كما كانت الأحاديث في كل جماعة تدور حول الاعتبارات العامة .

كانوا يتناقلون بصوت خافت أنباء شخصية ، ثم يعودون لفورهم إلى الموضوعات ذات الطابع العام . لم يكن أحد من الموجودين ليسمح بدعابة أو ضحكة أو حتى بابتسامة . لقد كانوا جميعهم ولا ريب يحاولون الظهور بمظهر يتساوى مع خطورة الأحداث . وكانت كل جماعة تسعى وهي تتبادل الأحاديث أن لا تبتعد عن القائد الأعلى الذي كان مقعده مركز الجاذبية بالنسبة إليهم ، وأن تصل أحاديثها إلى أسماع (كوتوزوف) . وكان (كوتوزوف) بدوره يصغي ، وأحياناً يستعلم عما

يدور من حديث ، ولكن دون أن يساهم في الحديث أو أن يتقدم برأي .

وكان في معظم الوقت ، يشيح بوجهه متبرماً بعد أن يصيخ السمع إلى حديث جماعة ما ، وكأنه سمع شيئاً يختلف كل الاختلاف عما كان يرغب في معرفته . وكان البعض - خلال النقاش حول الموقع المختار - ينتقدون الموقع نفسه أقل من انتقادهم لأهلية الأشخاص الذين قبلوا به ، ويزعم البعض أن الخطيئة آتية من وقت مضى ، وأنه كان يجب خوض المعركة قبل أول أمس . في حين تتحدث جماعة ثالثة عن معركة (سالامانك) (*) التي جاء يصفها قادم جديد ، افرنسي اسمه كروسار يرتدي زياً اسبانياً - وكان كروسار هذا يدرس حصار (سرقوسه) مع أمير الماني عامل في الجيش الروسي ، بغية اللجوء إلى دفاع مماثل عن (موسكو) . وفي جماعة رابعة ، كان الكونت (روستوبتشين - أمير موسكو) يعلن عن استعداده للموت مع المتطوعين الموسكوفيين تحت جدران المدينة . ولكنه لا يستطيع إلا أن يشكو من التجاهل الذي أظهروه حياله ، لأنه لو كان يعلم إلى أين تسير الأمور ، لسار كل شيء سيراً مختلفاً . وكان هناك فريق خامس يظهر عمق مداركه الاستراتيجية ويعين الاتجاه الذي كان على القطعات أن تسير فيه ، وسادس يتكلم دون أن يقول شيئاً ، في حين كان (كوتوزوف) يتخذ طابعاً آخذاً في الكآبة والتشاغل . انه لم يكن يرى في كل هذه الأحاديث شيئاً مما يهمه سوى الدفاع عن موسكو . غير أن ما بات يعرفه هو أنه من المحال عملياً القيام بهذا الدفاع ، حتى انهم لو وجدوا قائداً

(*) سالامانك : (SALAMANQUE) وبالاسبانية سالامانكا (SALAMANCA) مدينة اسبانية في إقليم (ليون : LÉON) تقع على نهر التورم : (TORMES) وقد دمرت مرات عديدة أثناء الحروب الاسلامية - الصليبية في الأندلس ، كما شهدت معارك ضارية بين الاسبانيين والانكليز من جهة والافرنسيين من جهة أخرى أثناء حكم نابليون لاسبانيا .

أعلى مجنوناً يأمر بالقتال لنجم عن ذلك هزيمة دون معركة .

لقد كان من المحال التفكير بأية معركة طالما أن القيادة باتت وهي عاجزة عن تأمين الدعم لها . ليس ذلك فحسب ، بل كان على القيادة أن تفكر أيضاً بما يمكن أن يحدث إذا ما ارغمت القوات على التخلي بصورة حتمية عن مواقعها . فكيف يمكن لهؤلاء القادة أن يقودوا جنودهم في معركة وهم يعترفون مسبقاً بأنها غير قابلة للدعم ؟ ان الاتباع بل والجنود الذين هم حكام كذلك يعترفون بهذه الحقيقة . ولهذا فانهم لا يستطيعون بالتالي الذهاب إلى معركة وهم على يقين بوقوع كارثة . ولو أن (بينيجسن – رئيس أركان كوتوزوف) كان ينصب من نفسه مدافعاً عن هذا الموقع ، أو أن آخرين استمروا في مناقشاتهم ، فان ذلك لم يعد له أهمية ، انه لم يعد إلا حجة للنقاش والدس ، وكان (كوتوزوف) مدركاً ذلك تمام الادراك .

كان (بينيجسن) هو الذي انتخب الموقع ، فكان يجأر في إظهار وطنيته الروسية ، ولم يكن باستطاعة (كوتوزوف) الاصغاء إليه دون أن يقطب حاجبيه . وإذن ، كان (بينيجسن) يصر على أن يتم الدفاع عن موسكو ، فكان كوتوزوف يرى خدعته كما يرى النور : سوف يتحمل كوتوزوف تبعة الهزيمة في حال الفشل ، لأنه تقهقر بالجيش من غير أن يدخل في معركة جدية حتى بلغ جبل العصافير (مونت دي موانو) . وفي حال انتصار الروسيين ، فان (بينيجسن) سينتحل لنفسه شرف النصر . بل انهم حتى إذا رفضوا الاصغاء إليه ، فإنه قد غسل يديه من جريمة تسليم (موسكو) . لكن هذه الدسائس كلها ، ما كانت في تلك اللحظات لتشغل بال الكهل أكثر من غيرها .

لقد كانت مسألة واحدة رهيبة تشغله ، وما كان من يقدم إليه حلها ، أما المسألة فهي : « هل يمكن أن أكون أنا الذي جعلت نابليون

يبلغ موسكو؟ ومتى فعلت هذا؟ متى تقرر هذا؟ وهل كان البارحة عندما أرسلت الأمر بالتراجع؟ أم أول أمس عندما كنت نصف نائم فتركت (بينيجسن) يضطلع بأعباء القيادة؟ أم ترى وقع ذلك قبل هذه الأوقات؟ ولكن متى ، متى تقرر أمر مثل هذا الهول - يجب ترك موسكو؟ . . . يجب ان يتقهقر الجيش ويجب ان أصدر الأمر؟ » . لقد كان إصدار هذا الأمر البشع يعادل في نظره تقديم استقالته من القيادة العامة . وهو لم يكن يحب السلطة التي ألفها فحسب - بل ان التكريم الذي لقيه الأمير (بروزورو فسكي) والذي كان ملحقاً به في تركيا قد جرح كرامته وزاده تمسكاً بهذه السلطة - وبالاضافة إلى ذلك ، فإنه كان مقتنعاً بأنه هو المنذور لتخليص روسيا وإنقاذها ، ودليله على ذلك أنه يدين بلقبه وبسلطته كقائد أعلى ، إلى رغبة الشعب وضد رغبة القيصر الكسندر . كان مقتنعاً تماماً بأنه وحده القادر في تلك الظروف العصيبة على البقاء في قمة قيادة الجيش ، وأنه الوحيد في العالم الذي يستطيع مجابهة خصم لا يقهر مثل نابليون من غير أن يروع . لذلك فقد كان يرتعد هولاً من مجرد التفكير في الأمر الذي سيصدره . وكان لا بد له قبل كل شيء من اتخاذ قرار حاسم ، ومن وضع حد لهذه المناقشات التي بدأت تتخذ حوله طابعاً متمادياً في التحرر .

ج - كوتوزوف يعقد (مجلساً عسكرياً) :

حسم (كوتوزوف) النقاش عندما أمر باقتراب أرفع الجنرالات - القادة - رتبة ، وقال له وهو ينهض عن مقعده : « **سواء كان رأسي جيداً أم رديئاً فان عليه أن يعين نفسه بنفسه** » ثم طلب إلى قادته الاعداد لعقد (مجلس عسكري) في قرية (فيلي) الواقعة فوق تل من التلال المشرفة على (موسكو) لاتخاذ القرار الحاسم .

اجتمع المجلس العسكري في الساعة الثانية في كوخ القروي (أندريه سافوستيانوف) (*) الرحيب والمريح . وبقي الرجال والنساء والأطفال وكل أعضاء هذه الأسرة الهامة مجتمعين في (السقيفة) في الجانب الآخر من الدهليز ، فلم يبق في الغرفة إلا (مالاشا) حفيدة الفلاح (آندريه) البالغة من العمر ستة أعوام ، إذ آنسها (عظيم الرفعة) بإعطائها قطعة سكر بينما كان يشرب الشاي . فجثمت (مالاشا) فوق موقد الحجرة الكبيرة ، وانصرفت وهي جزعة سعيدة في تأمل الوجوه من أعلى ، والنظر طويلاً في الألبسة والأوسمة التي تزين صدور الجنرالات الذين راحوا يدخلون الواحد اثر الآخر ، ويجلسون على مقاعد عريضة في الركن الجميل - ركن الايقونات إلى يمين المدخل ، تحت الصورة المقدسة - . وجلس الجد - كما راحت مالاشا تسمي كوتوزوف في سرها - منفرداً في الزاوية المعتمة قرب الموقد . لقد تهاوى بتثاقل على مقعده القابل للطي ، ولم يكف عن الزفير وهو يسوي ياقة بزته التي ظلت تضايق عنقه رغم أنه حل أزرارها .

وكان الداخلون يتقدمون لتحيته ، فكان يشد على أيدي بعضهم ، ويومىء برأسه إلى البعض الآخر . وكانت هناك نافذة في مواجهة كوتوزوف ، أراد مساعده العسكري (كائيساروف) أن يجذب سترها ، فندت عن (كوتوزوف) حركة تدل على التبرم ، أدرك المساعد العسكري منها أن (عظيم الرفعة) لا يريد أن يضيء النور وجهه . وحول الطاولة الخشنة المصنوعة من خشب الصنوبر ، والتي انتشرت فوقها الخرائط والمخططات والأقلام والورق ، دار عدد كبير من الأشخاص ، حتى أن التابعين جاؤوا بمقعد آخر جلس عليه آخر الداخلين (ايرمولوف ، وكائيساروف ، وتول) . وتحت الصورة

(*) ظل هذا الكوخ قائما حتى العام ١٩١٧ . وقد عرف هذا الكوخ منذ ذلك اليوم باسم (كوخ كوتوزوف) .

(كوتوزوف) في (المجلس العسكري)

المقدسة ، في مكان الشرف ، جلس (باركلاي دوتوللي) وصليب القديس جورج يتدلى من عنقه كان ممتقع الوجه ، يزيد جبينه العريض في إطالة صلعته ، تعذبه الحمى منذ يومين اثنين ، ويشعر في تلك الأثناء أيضاً بالارتعاش والانكماش . وكان (أوفاروف) الجالس إلى جانبه ، يروي له بحركات عنيفة شيئاً ما بصوت خافت ، أسوة بكل المتحدثين الذين كانوا يتكلمون همساً . أما (دوختوروف) وهو رجل قصير القامة سمين ، فقد كان يصغي بانتباه وهو يرفع حاجبيه ، مستبقياً يديه متقاطعتين فوق بطنه . ومن الجانب الآخر جلس الكونت (أوسترمان - تولستوي) وقد اتكأ إلى الطاولة ، وأسند رأسه الضخم ذا التقاطيع النشيطة والعينين البراقتين إلى يده ، كأنه مستغرق في أفكاره . وكان (راييفسكي) يحتال على نفاد صبره بفتل خصلة من شعره المضفر - الاسود - على صدغه بحركة مألوفة ، وبالنظر إلى كوتوزوف تارة وإلى باب الدخول تارة أخرى . وكان وجه (كونوفتشين) الجميل الحازم ، يضيء بابتسامة حانية ماكرة . لقد التقت نظرته بنظرة (مالاشا) فغمز لها بعينه ، الأمر الذي جعل الصغيرة تضحك .

كانوا جميعاً ينتظرون (بينيجسن) الذي كان متأخراً في طعامه الشهي بحجة إعادة فحص الموقع من جديد . وظلوا ينتظرون من الساعة الرابعة حتى السادسة من غير أن يفتحوا باب النقاش ، فراح كل من جانبه ، يدور في أحاديث خاصة بصوت خافت خلال ذلك الوقت . ولم يتحرك (كوتوزوف) من ركنه ليقترب من المائدة ، إلا عندما دخل (بينيجسن) لكنه اقترب بشكل لم يسمح للشموع الموقدة أن تضيء وجهه . وفتح (بينيجسن) الجلسة بالسؤال التالي : « **هل ستترك عاصمة روسيا العريقة المقدسة دون قتال ، أم هل سيدافع عنها ؟ . .** » وأعقب السؤال صمت عميق .

أصبحت الوجوه كلها مكتئبة ، وسُمع صوت (كوتوزوف) يسعل

وهو يغمغم بين أسنانه ، فشخصت العيون كلها إليه ، ونظرت (مالاشا) بدورها إلى (الجد) . لقد كانت أقرب إليه من كل الآخرين ، فرأت وجهه يتقلص ، وكأنه على وشك البكاء . لكن ذلك لم يدم أكثر من لحظة . وفجأة هتف بغضب كلمات (بينيجسن) وهو يبرز النغمة الزائفة : « عاصمة روسيا العريقة المقدسة ! » . اسمح لي يا صاحب السعادة أن أقول لك بأن هذا السؤال ليس له أي معنى بالنسبة إلى روسي . (وأحنى جسمه الضخم إلى الأمام) . لا جدوى من طرح هذا السؤال لأنه مجرد من كل المعاني . ان المسألة التي رجوت هؤلاء السادة أن يجتمعوا من أجلها مسألة عسكرية هي التالية :

« إن خلاص روسيا في جيشها ، فهل من الأفضل المغامرة بإضاعة الجيش ، بما في ذلك خسارة موسكو بالتحام في معركة ، أم أن تسلم موسكو دون قتال ؟ هذا هو ما أريد أن أحصل على رأيكم بصدده » . وعاد يلقي بظهره إلى مسند مقعده .

ودار النقاش من جديد . لم يعتقد (بينيجسن) أنه خسر معركته ، لذلك فقد راح يؤيد رأي الآخرين حول استحالة الالتحام في معركة دفاعية في (فيلي) ويعرض - وهو الذي يملأ حب موسكو الوطني قلبه كما كان يزعم - أن تمر قطعات الجناح الأيمن إلى الجناح الأيسر خلال الليل ، وأن يهاجم بها غداة اليوم التالي جناح الافرنسيين

وانقسمت الآراء وراحوا يناقشون ما لها وما عليها . وانحاز (ايرمولوف ودوختوروف ورايفسكي) إلى جانب رأي (بينيجسن) فهل ترى كانوا مدفوعين بعاطفة وجوب تقديم تضحية لا بد من تقديمها قبل ترك المدينة أم كانوا يخضعون لاعتبارات شخصية ؟ مهما كان الأمر ، فان هؤلاء السادة بدوا وكأنهم غير مدركين أن مجلسهم العسكري لم يعد قادراً على تغيير خط سير الأمور الذي لا بد منه . وأن

موسكو قد سلمت بالفعل . أما القادة الآخرون فقد كانوا مدركين ذلك ، فتركوا جانباً قضية تسليم موسكو . وراحوا يتناقشون حول الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه الجيوش . أما (مالاشا) التي كانت تتابع بعينيها الجاحظتين كل ما يحدث أمامها ، فقد فهمت المجلس العسكري على لون آخر . خيل إليها أنه عبارة عن صراع شخصي بين (الجد) و (ذي الذيول الطويلة) كما سمت (بينيجسن) . كانت تراهما يغضبان عندما يتحدثان ، فكانت في أعماق قلبها الصغير تنحاز إلى صف الجد . ولاحظت في وسط النقاش تلك النظرة السريعة الماكرة التي ألقاها (كوتوزوف) على (بينيجسن) فلم تلبث أن أدركت - لعظم بهجتها - أن (الجد) قد قال شيئاً (لذي الذيول الطويلة) فأسقطه . وراح (بينيجسن) الذي تضرج وجهه فجأة ، يذرع الحجرة جيئة وذهاباً .

كانت الكلمات التي أحدثت فيه هذا الأثر القوي ، هي التي استعملها كوتوزوف بصوت هادىء ساكن يعبر عن رأيه في الميزات والأخطاء التي يقدمها مشروع (بينيجسن) حول تحويل الجناح الأيسر إلى الجناح الأيمن خلال الليل بغية مهاجمة الجناح الأيمن الافرنسي . قال كوتوزوف :

« أيها السادة ! إنني لا أستطيع إقرار خطة الكونت لأن حركات الجنود على مقربة من العدو خطيرة دائماً ، والتاريخ العسكري يؤيد هذا الرأي . فعلى سبيل المثال . . . (واتخذ كوتوزوف إمارات التفكير ليبحث عن جملته وهو يلقي نظرة ساذجة وواضحة على بينيجسن) فمثلاً معركة - فريدلاند - التي آمل أن يكون سيدي الكونت قوي التذكر لها . . . انها لم تنجح كل النجاح لأن قواتنا تجمعت على مقربة من العدو » ولقد بدا الصمت الذي أعقب هذا الكلام خلال دقيقة واحدة طويلاً جداً في نظر الجميع .

والتقط (باركلاي دوتوللي) طرف الحديث ليحدد موقفه : « **إذا كان الأمر موقوفاً عليه سلامة روسيا وأوروبا ، فموسكو ليست أكثر من مدينة مثل باقي المدن** » . وأعقبه – غرابي – وهو أحد رجال المدفعية ، فقال : « **إنه لفخر أن نموت تحت أسوار موسكو ، ولكن الموقف الآن ليس هو موقف اكتساب الفخر** » .

وجاء دور الامير أوجين فقال : « **كثيرون يرتأون أن الشرف يفرض عليهم وضع حد لذلك التقهقر . فكما أن القبر ينهي سفر كل حي على طريق هذه الحياة ، فهكذا يجب أن تكون موسكو ، مدفناً لكل رجال الحرب الروسيين ، ومن ورائها يبتدىء عالم جديد** » .

كان (كوتوزوف) يصغي لجميعهم بدون أن ينبس ببنت شفة . وعادت المناقشة تقاطع بكثرة ، بفترات صمت ، إذ كان كل من الموجودين يشعر بأنه لا يجد ما يضيفه إلى أقواله .

تنهد كوتوزوف تنهدة عميقة خلال إحدى تلك الفترات ، وكأنه يستعد للكلام فاستدارت العيون كلها إليه . قال : « حسناً أيها السادة ! أرى أنني وحدي من سيدفع الغرم » ثم نهض بجهد ، واقترب من المائدة :

« **أيها السادة ! لقد أصغيت إلى آرائكم . إن بعضكم على غير وفاق معي – وتريث لحظة – ولكن أنا ، استناداً إلى السلطة التي منحت إلي من قبل مليكي ووطني ، أنا ، آمر بالانسحاب** » .

وتفرق القادة – الجنرالات في صمت ، وعلى وجوههم تلك الامارات الجليلة التي تنطبع على الوجوه عند الفراغ من حفلة مأتم .

نابليون في الطريق إلى موسكو ، ينتصب مستقيماً على سرج جواده . وهو ينظر بعين ثابتة ليستطلع ضمير نجمه . وقد ارتسمت ملامح القسوة على تقاطيع وجهه في حين تظهر ملامح الاعياء والقلق والاحباط على ملامح قادته جميعاً . واللوحة من رسم ميسنيير (محفوظات متحف اللوفر) .

نابوليون في الطريق إلى موسكو

نابوليون في موسكو

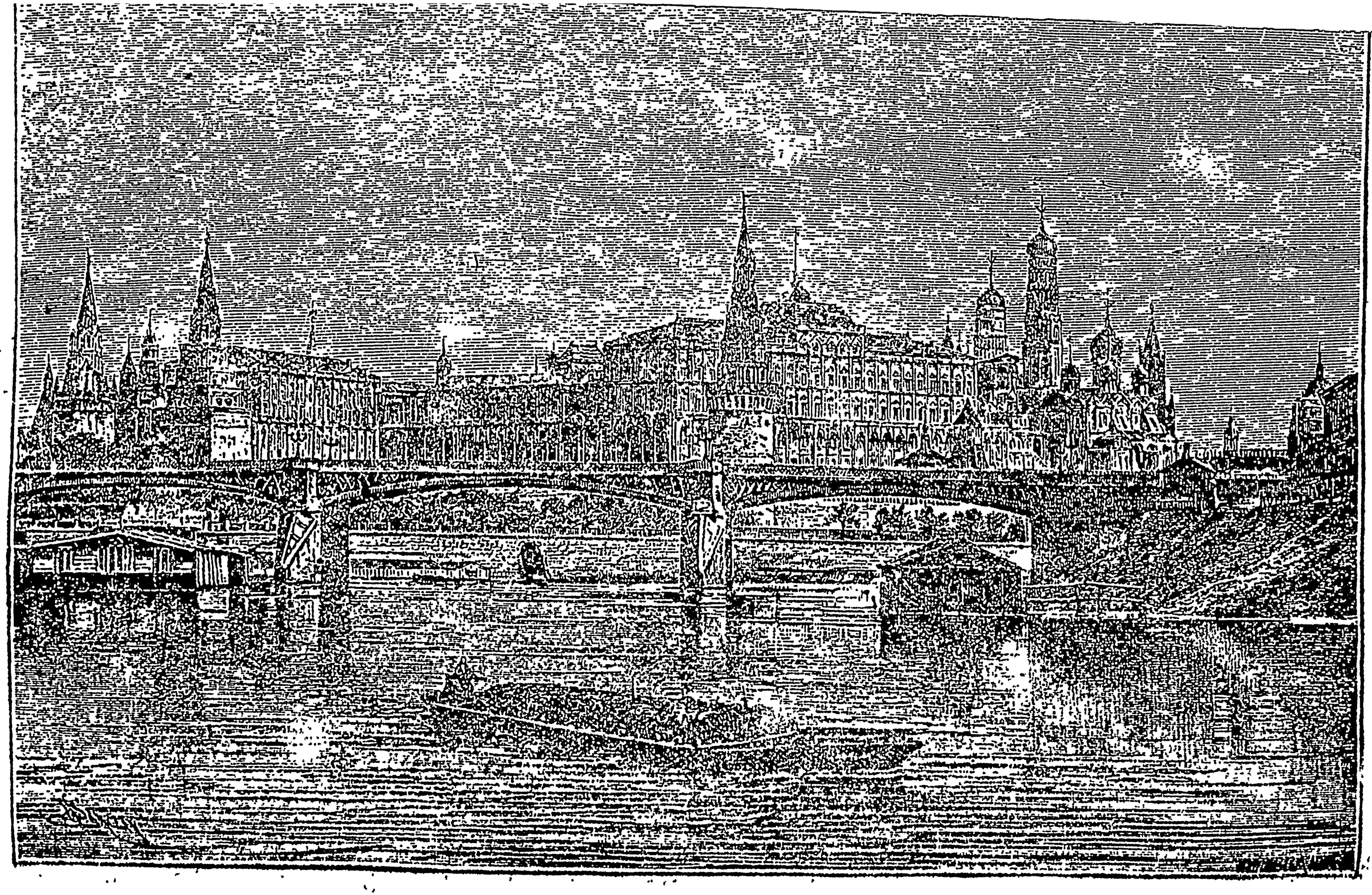

قصر الكريملين

٩ - نابليون في موسكو :

مضى (نابليون) بجيشه الكبير - الذي لم يعد كبيراً - نحو موسكو ، فوصلها بعد أسبوع من معركة (بوردينو) . وتوقف على جبل (بوكلونايا) يتأمل المشهد الذي عرض لناظريه . ولقد كان الطقس منذ السادس والعشرين من آب - أغسطس - وحتى النصف الأول من شهر أيلول - سبتمبر - آية في الجمال الخريفي الخارق . فالشمس المنحنية على الأفق ، كانت محرقة أكثر منها في الربيع . وإشعاعاتها الباهرة المنتشرة في الفضاء تؤلم العيون . والصدور تتمدد ، ويستنشق الناس ملء رئاتهم عبير الخريف . والليالي نفسها لطيفة ، وفي تلك الليالي الحالكة الحارة ، كانت النجوم الذهبية تتساقط من السماء فتوقظ الرعب والفرح . وكان ضياء الصباح سحريا ، حيث كانت موسكو تظهر من أعلى جبل (بوكلونايا) وهي تنبسط في الأبعاد ، بنهرها وحدائقها وكنائسها ، فتبدو وكأنها تعيش حياة خاصة بها ، بقبابها الملتمعة كالنجوم - تحت إشعاعات الشمس .

وقف نابليون وهو يتأمل ذلك المشهد الأخاذ . وقال : « **هذه المدينة الآسيوية ذات الكنائس الكثيرة ، موسكو المقدسة . ها هي ذي أخيراً ، هذه المدينة العتيدة ! لقد كان الوقت مناسباً** ». وأمر أن ينشر أمامه مخطط - موسكو - ثم استدعى مترجمه ، وهو يفكر : « **ان مدينة يحتلها العدو تشبه فتاة فقدت شرفها** » . ومضى نابليون في تأملاته ، ومنظر موسكو يثير فيه كل الانفعالات القوية : « ها هي ذي المكافأة لكل هؤلاء القليلي الايمان ، كلمة واحدة مني ، إشارة واحدة ، فإذا بها تضيع ، مدينة القياصرة ، القديمة هذه ، لكن رحمتي على استعداد دائماً لتسبغ على المقهورين . يجب أن أبرهن على شهامة ونفس كبيرة

حقيقية . . . » وفجأة فكر : « كلا ! من المحال أن أكون قد بلغت - موسكو - ومع ذلك ها هي أمامي : بذهب قبابها وصلبانها الذهبية ، حيث تتراقص إشعاعات الشمس وترتعد . لكنني سأحميها . سوف أطبع كلمات العدالة والرحمة الكبيرة على هذه الأبنية ، أبنية البربرية والاستبداد » . . . وأخذ - نابليون - في الاستعداد للمشهد التالي : « سوف أرغم أجيال اشراف روسيا على أن يذكروا المنتصر عليهم بحب ، سوف أعطيهم القوانين العادلة ، وسأريهم معنى المدنية الحقيقية من أعلى الكريملين . . . هذا الكريملين ولا ريب - قصر القياصرة - حيث سيلتقي كبار السادة الروس مع شخصيات بلاطه الرفيع ، وسمى سلفاً الحاكم - الذي سيتم انتقاؤه من قبل الشعب - » وصرخ - نابليون - وهو يلتفت إلى حاشيته : « ليأتوا بالأشراف » .

ومضى جنرالان ، ومعهما حاشية لامعة بحثاً عن أشراف موسكو .

وتابع - نابليون - تخيلاته - يعد نفسه لهذا اللقاء التاريخي . . . سأقول لهم : « أيها الأشراف ! انني لا أريد الحرب ، بل أريد السلم والراحة والرفاه لكل أتباعي . . . ثم انني أعرف أن حضورهم سوف يلهمني ما يجب أن أقوله لهم . وسوف أكلمهم كما أتكلم دائماً ؛ بوضوح وجلال وعظمة . ولكن هل حقيقة أنا في موسكو ؟ . نعم . إنها هي نفسها » .

عرف - نابليون - أن موسكو تضم عدداً كبيراً من المؤسسات الخيرية القائمة على الاحسان . فقرر إغراق هذه المؤسسات بما يغدقه عليها ، وكان يفكر في أنه إذا كان من الضروري في بلاد المسلمين الذهاب إلى الجامع بالعباءة - البرنس - فانه من الضروري أن يظهر في موسكو بمظهر المحسن الكريم - كالقياصرة - . ولكي يكسب عطف

الروسيين نهائياً ، قرر مثله مثل كل افرنسي عاجز عن القيام بأعمال الرفق والحنان دون أن يتذكر « عزيزتي ، أمي المسكينة الحنون » أن يأمر بأن ينقش على مداخل تلك المؤسسات كلها : « مؤسسة مهداة إلى أمي العزيزة » نعم ، هذه العبارة ، وليست (بيت أمي) فحسب . وعاد يفكر من جديد : « **ولكن ، هل من الممكن أن أكون بلغت موسكو ؟ نعم ، ها هي ذي أمامي ، ولكن لماذا تأخرت وفود المدينة عن المجيء كل هذا الوقت ؟** » .

كان الوفد الذي ذهب ليحضر (الأشراف) قد عاد لأنه لم يجد في المدينة إلا الرعاع والسكارى . غير أن الوفد لم يجد من الجرأة ما يمكنه من نقل هذا الخبر إلى الامبراطور ، فاختلط أفراده بالقادة من الماريشالات والجنرالات المحيطين بنابليون . وأخذ الجميع في البحث عن الطريقة المناسبة لينقلوا الخبر المفزع للامبراطور .

تعب نابليون من طول الانتظار ، وشعر في تلك الأثناء بإحساس الممثل الهزلي الذي أدرك أن اللحظة الحاسمة قد طالت أكثر مما ينبغي ، فبدأ يفقد جلاله ، وأومأ بيديه . وعندئذ دوى قصف مدفعي ، ليعطي الاشارة إلى القطعات التي كانت تحيط بموسكو من كل الجهات . فلم تلبث هذه أن تحركت نحو مداخل المدينة : (تغير ، وكالوجا ، ودوروجو ميلوف) مستحثة خطاها ، يسبق بعضها بعضاً أثناء السير ، بين مشاة وفرسان ، وراحت تتقدم سحابة من الغبار وهي (تنشد المارسيليز) وتهتف (الهتافات المدوية) . وجرفت حماسة الجنود (نابليون) فبلغ معهم (دوروجوميلوف) لكنه هناك أمر بالوقوف ، وترجل عن حصانه ، وراح يتنزه على طول حاجز (كوليج دولاشامبر) وهو لا يزال ينتظر وصول الوفود من أبناء موسكو .

كانت موسكو خالية في تلك الأثناء ، إلا من قلة لا تتجاوز نسبة

واحد إلى خمسين من مجموع السكان العاديين . ولكن المدينة كانت رغم ذلك خالية ، كخلية نذرت للموت برحيل ملكتها . وأخيراً ! جاء من يحمل للامبراطور النبأ : « إن موسكو خالية » ونظر نابليون طويلاً إلى حامل هذا النبأ ، بعين غاضبة ، ثم استدار وعاد إلى نزهته الصامتة . وأخيراً قال : « ليأتوني بعربتي » . ثم صعد إليها مع المساعد العسكري المناوب ، ودخل الضاحية وهو يردد في نفسه : « موسكو خالية ، يا للحدث الذي لا يصدق ! » . ولم يدخل المدينة ، بل توقف في خان في ضاحية (دوروجوميلوف). لقد أخفقت المباغتة المسرحية !

كان حاكم موسكو (روستوف) قد نظم المدينة للدفاع ، ووضع المتفجرات في مناطق كثيرة لتدمير ما يجب تدميره وحرمان العدو من كل الموارد ، وتحويل المدينة إلى جحيم ملتهب يحرم الغزاة من نعمة الهدوء والاستقرار ، وقام بتعبئة المشاعر بإصدار مجموعة من البيانات والبلاغات والأوامر (*) . غير أن أهل موسكو رفضوا البقاء في (مدينتهم المقدسة) وقرروا الانسحاب منها حتى يتم تحريرها من (دنس الغزاة) . الأمر الذي أفسد على نابليون أحلامه . فحاول من جهته استرضاء سكان العاصمة (بإصدار البلاغات) (**) التي تدخل الطمأنينة إلى نفوسهم . فيتحقق له ما يريده بالخروج منتصراً .

غير أن موسكو وأهلها رفضوا الخضوع لرغبة الامبراطور الافرنسي ، أو الاستجابة لها . لقد كانت مسؤولية حمايتهم تقع على عاتق قيادتهم العسكرية . وقد أخذت هذه القيادة على نفسها عهداً

(*) انظر قراءات (١) والتي تمثل نموذجاً لهذه التعبئة - في الصفحات الأخيرة من الكتاب - .

(**) انظر قراءات (٢) و(٣) وفيها نماذج من بلاغات نابليون إلى (سكان موسكو)

بتحرير الوطن . وإذن ، فليس على أهل موسكو إلا ترك المدينة ، ومكث نابليون ينتظر أية استجابة (رسمية أو غير رسمية) تخرجه من مأزقه . وحاول التفاوض مع القيصر ، ومع قائده (كوتوزوف) غير أن محاولته لم تحظ بأكثر من الاحتقار الصامت . وبقيت موسكو نهباً للقوات الافرنسية ، وحاول نابليون إيقاف عملية (السلب الاجماعي) بإصدار البلاغات المتكررة ولكن هذه المحاولة لم تنل شيئاً من النجاح . لقد أخذ نابليون في فقد السيطرة حتى على قواته . وهكذا بقيت المدينة المهجورة تعاني مأساتها وتعيش أصعب أيامها ، حتى وصلت محنتها الذروة بالحريق الشهير والمعروف باسم (حريق موسكو) .

كانت ليلتا (١٥ و١٦ أيلول - سبتمبر - ١٨١٢) هما الأشد هولاً من الجميع ، إذ تساقطت المناطيد النارية من الجو ، وأضحى قصر الكريملين نفسه والحرس الذي فيه معرضين لخطر الاحتراق . فاضطر نابليون إلى مغادرة القصر ، وخرج منه بين ألسنة اللهيب المندلعة إلى كل جانب ، وقد سدت دونه أبواب النجاة ، وكاد يهلك حرقاً لو لم يجد أخيراً باباً صغيراً يؤدي إلى نهر موسكو . فاجتازه بعد مقاساة أشد الأهوال والمخاوف . ولو لم يرَ من هناك أحد الأسواق الذي لم تصله ألسنة اللهيب لتعسر خلاصه . ففر من ذلك المكان إلى (قلعة بيتروفسكي) التي تبعد حوالى ثلاثة أميال عن موسكو وجعلها مِقراً له .

وقد أثر فيه ذلك المنظر تأثيراً عميقاً لازمه طوال حياته ، فكان يخيل إليه وهو ينظر إلى المدينة عن بعد أن انفجار اللهيب وصعوده إلى الأعلى ثم انقطاعه ، وارتفاع أعمدة الدخان السوداء إلى الجو والتي كانت تنعكس عليها الأنوار الحمراء فتظهرها وكأنها بركان عظيم قد فتح فوهته ليقذف النار اللاهبة التي وصلت حرارتها إلى مقر نابليون فبات يخشى أن تمتد إليه ألسنة النار .

بقي منظر المدينة مرعباً ، فأثار الذعر والهلع على القادة والجنود ، أما منظر الأطفال والشيوخ والنساء ممن تخلفوا عن الهرب فكان مثيراً إلى درجة يعجز القلم عن وصفه . وقد حكم (المجلس العرفي) الذي شكله نابليون على نحو أربعمائة بالموت ، وقد يكون هؤلاء مجرمين أو أبرياء في التهمة المنسوبة إليهم وهي (إحراق موسكو) . غير أن هذا الحريق قد دمر على كل حال بقية أمل نابليون وجيشه في الافادة من عاصمة روسيا . إذ أتى الحريق على المدينة ، ولم يترك سوى (خمس) بيوتها وكنائسها ، وكان من المحال صيانة ما تبقى من البيوت والأماكن المحترقة من النهب والسلب .

أقام نابليون وجيشه في موسكو خمسة أسابيع (٣٥ يوماً) وعلى الرغم من قصر هذه المدة الزمنية ، فقد انهار نظام الجيش الافرنسي انهياراً مريعاً . وهلك من أفراده (١٠ - ١٢) ألفاً من الجوع . فصاروا يأكلون لحوم الخيل وكل ما وصلت إليه أيديهم . ولم ينس نابليون في وسط هذه الاضطرابات استدعاء فرقة من الممثلين لاقامة حفلة ترفيهية (في بيت بوسنياكوف) . كما أقام حفلاً غنائياً راقصاً في قصر (الكريملين) . ولكن ذلك لم يكن ليبعد عنه همومه ومخاوفه وقلقه .

يعزو الافرنسيون حريق موسكو إلى وطنية حاكم موسكو (روستوبتشين) وإخلاصه إلى سيده القيصر . أما الروس فيعزونها إلى وحشية الافرنسيين . والواقع أنه لا يمكن - ولا يجب تسجيل هذا الحريق - على حساب شخص واحد أو بعض الأشخاص . لقد احترقت موسكو لأنها وجدت في مثل الشروط التي يجب على كل مدينة مبنية من الخشب أن تحترق معها ، بصرف النظر عن وجود مائة وثلاثين مضخة رديئة أو عدم وجودها . كان على موسكو أن تحترق لأن سكانها رحلوا

عنها ، بمثل الطريقة التي تحترق بها رزمة من النشارة راحتْ تتساقط فوقها شرارات متوالية طوال أيام كاملة . فمدينة الخشب يقع فيها كل يوم حريق رغم احتياطات السكان ورجال الشرطة . فكيف يمكن لها أن تنجو من الحريق ، وقد هجرها سكانها وقطن فيها جيش ، يدخن جنوده الغليون ، ويوقدون النار على ساحة مجلس الشيوخ ، ويغذونها بكراسي المجلس ، ويعدون طعامهم مرتين كل يوم ؟ . . .

يكفي أن يتخذ الجنود معسكراً لهم في قرى معينة - في وقت السلم - حتى يزداد عدد الحرائق فيها . فكيف الأمر ، وقد عسكر في المدينة جيش غريب ؟ أليس ذلك كافياً لمضاعفة إمكانيات حدوث الحرائق ؟ إن الأمر الواضح هو أن (وطنية روستوبتشين) و (وحشية الافرنسيين) لا علاقة لهما بالحريق مطلقاً . لقد احترقت موسكو بسبب الغلايين والمطابخ ونيران المعسكرات . وبسبب لا مبالاة الجنود ، سادة منازل لا تخصهم .

لقد احترقت موسكو من قبل سكانها الذين هجروها . فإذا لم تبق موسكو سليمة بعد احتلالها من قبل العدو ، مثل برلين وفيينا والمدن الأخرى ، فما ذلك إلا لأن سكانها هجروها بدلاً من أن يقدموا المفاتيح الذهبية للافرنسيين على أطباق إلى جانب الخبز والملح .

لقد فتحت موسكو فمها (كالتنين) لتبتلع جيش الغزاة ، فكان الجنود يتخللون في كل مكان ، أشبه بالماء فوق الرمل ، ورائدهم السلب والنهب . وكانت موسكو تستوعبهم أكثر فأكثر . وكما يختفي الماء الذي يصب على أرض جافة ، ويخفى معه جفاف الأرض ، كان ذلك الجيش الجائع ، ما أن يوغل في أعماق تلك المدينة الموسرة ولكن الخالية ، حتى يختفي ويخفي معه يسر المدينة وخيراتها ، فلم يبق إلا الوحل والنهب والحريق .

***

١٠ - كوتوزوف في (تاروتينو) :

اتخذ (كوتوزوف) قراره بالتراجع عن موسكو . وكان هناك طريقان ، اختار (باركلاي) التراجع على أحدهما ، وهو طريق (فلاديمير) بهدف حماية العاصمة أثناء الانسحاب ، بينما اختار (كوتوزوف) السير على (طريق ريزان) الذي يمكنه من مهاجمة الجناح الأيمن لجيش نابليون إذا ما حاول هذا الجيش التعرض لحركة الجيش الروسي . كما ضمن (كوتوزوف) بذلك تأمين وصول النجدات إليه من الجنوب . بالاضافة إلى ما يضمنه هذا التحرك من إقامة حاجز في وجه تقدم القوات الافرنسية في أخصب أقاليم المملكة الروسية وأغناها . وانطلقت القوات الروسية في تحركها عبر العاصمة .

سار (كوتوزوف) مع قواته . وعندما وصل إلى وسط المدينة ، تذكر ما كان يردده الناس : « يجب أن يكون المرء نذلاً ليغادر موسكو » . وشعر في داخله بصوت يصرخ به : « إن موسكو ليست كباقي المدن » فلم يتمكن رغم شيخوخته من كبت انفعالاته ، فترك لنفسه حريتها ، واخترق الضواحي باكياً ، غير أنه نجح في إخفاء مشاعره وانفعالاته عن الجميع ، لأنه كان يسير منعزلاً عن رتل قواته .

تابعت القوات الروسية تحركها بعد مغادرتها (موسكو) . فسارت على طريق (ريزان) الواقعة على بعد (٢٠٠) كم إلى الجنوب الشرقي من موسكو . وبعد مسيرة يومين ، انعطفت فجأة نحو الغرب إلى قرية (كراسنايا باخرا) ثم تابعت طريقها إلى نهر (نارا) ووصلت يوم (٢٠ - أيلول - سبتمبر - ١٨١٢) إلى موضع (تاروتينو) - انظر مخطط تاروتينو - .

جاءت مسيرة الأحداث التالية لتؤكد صحة تقدير كوتوزوف للموقف ، وسلامة اختيازه لمنطقة حشد جيشه . وقد اعتبرت مناورة القوات الروسية إلى (تاروتينو) من النماذج الرائعة في تاريخ فن الحرب الروسي ، إذ انها سمحت للجيش الروسي بالتمركز جنوب موسكو ، وبتغطية المناطق الجنوبية الخصبة ، ومدينة (تولا) مع معمل الأسلحة الذي فيها ، ومدينة (بريانسك) مع معمل صب المعادن الكبير الذي فيها . ومن ناحية أخرى ، اعتبرت المواضع الدفاعية في (تاروتينو) جانبية بالنسبة للافرنسيين ، وأمكن بواسطتها تهديد مواصلاتهم وخطوط تموينهم بصورة دائمة . إذ لم ينقطع الصراع مع الافرنسيين أبداً منذ أن تمركزت القوات الروسية في (تاروتينو) . وفي هذه الفترة بالضبط ظهرت القوة الكامنة في استراتيجية كوتوزوف ، التي كانت ترى أنه بإخلاء موسكو يتهيأ مصرع العدو . وفي هذه الفترة بالذات أشعل كوتوزوف نار (الحروب الصغيرة) التي كانت تعتمد على مفارز الانصار والمتطوعين النظاميين .

كان القيصر الكسندر خلال ذلك يتابع الموقف من (بيترسبورغ) وقد أمكن له إلزام ولايات (موسكو) و(تفير) و(ياروسلافل) و(فلاديمير) و(ريزان) و(تولا) و(كالوغا) على تقديم دفعات جديدة من الجنود ، فحشدوا منها (١٢٣) ألفاً . ومن (بيترسبورغ) و(نوفوغورد) قوة (٢٥) ألفاً . وكان القيصر الكسندر يردد أبداً : « سنجعل روسيا اسبانيا جديدة » ودعا ميتروبوليت موسكو واكليروسه الشعب من على المنابر :« حتى يتجندوا ضد الافرنسيين الزنادقة والغاليين الجبابرة ، الذين سيطرحون إلى الحضيض بمقلاع داوود الجديد » . ولم يكن دور القيصر (الكسندر) يتوقف عند حدود تنظيم القوات وحشد الطاقات ، وإنما كان له ممثلوه في قيادة (كوتوزوف) أيضاً ، ومن أبرزهم (بينيجسن) رئيس أركان حرب (كوتوزوف) وكان ذلك مما

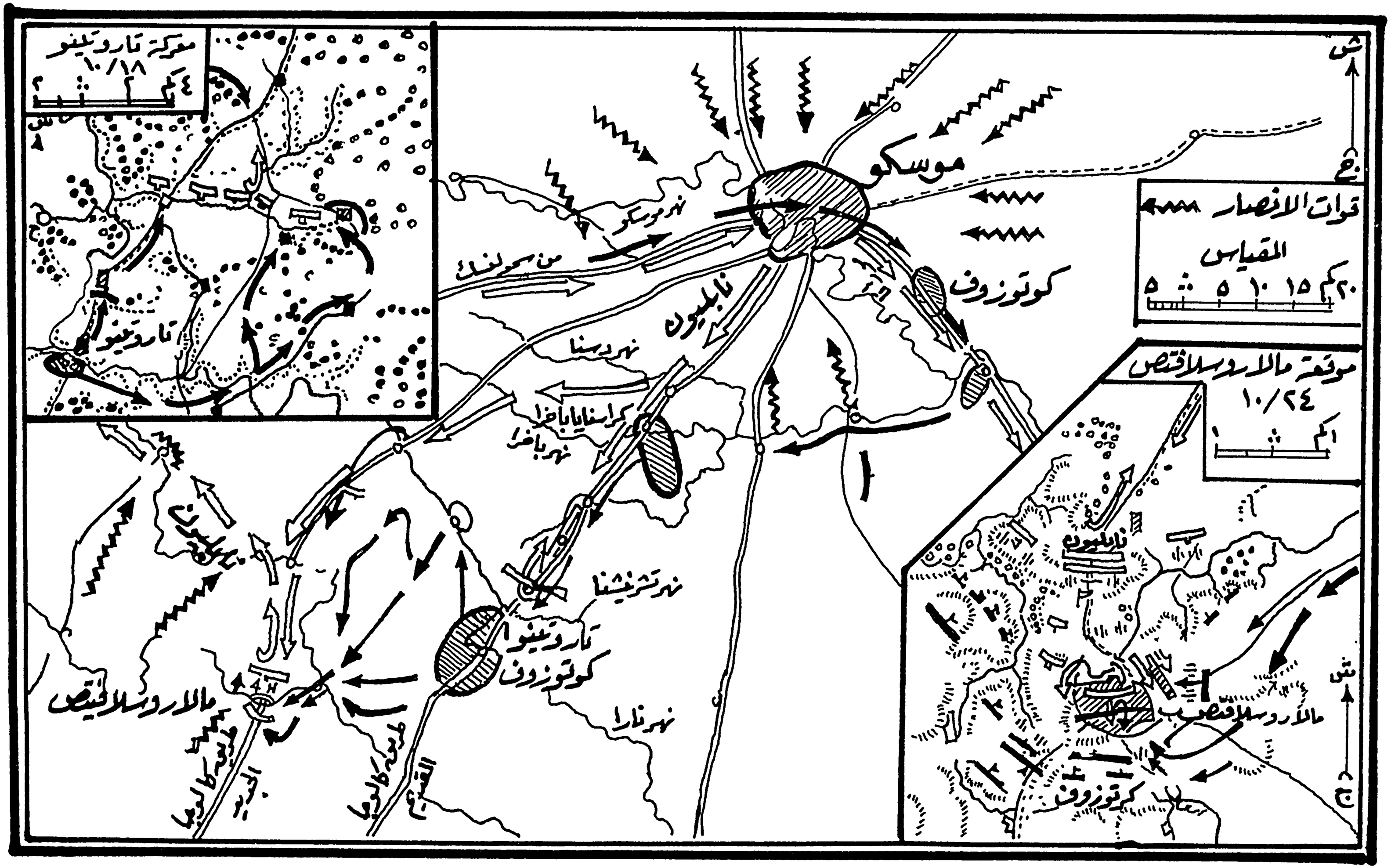

مناورة الجيش الروسي بالقرب من (تاروتينو)

معركة (تاروتينو) وموقعة (مالارو سلافتص)

يسمح له بمتابعة الموقف من جهة ، والتدخل في إدارة الحرب من جهة ثانية . وقد برز هذا التدخل في مناسبات كثيرة . ومنها ما حدث في (باروتينو) حيث وصلت إلى (كوتوزوف) الرسالة التالية ، والتي كان القيصر الكسندر قد كتبها في (٢ - تشرين الأول - أكتوبر - ١٨١٢) . وهي كالتالي :

« إلى الأمير ميخائيل ايلاريونوفيتش :

منذ الثاني من أيلول - سبتمبر - وموسكو في يد الأعداء . ان تقاريرك الأخيرة مؤرخة في ٢٠ منه . وطوال هذا الوقت لم تتخذ أية إجراءات ضد العدو لانقاذ عاصمتنا الأولى ، وليس ذلك فحسب ، بل انك في تقاريرك الأخيرة قد ذكرت بأنك ما زلت تتراجع . ان (سيربوخوف) محتلة من قبل فوج للعدو . و (تولا) بمصنعها الشهير والشديد الأهمية بالنسبة إلى الجيش باتت في خطر . وأرى من تقارير الجنرال (ونتربخيرود) أن فوجاً معادياً تعداده عشرة آلاف رجل يقترب على طريق (بيترسبورغ) . وأن فوجاً آخر تعداده بضعة آلاف من الرجال يتجه نحو (دميتروف) . وثالثاً يسير على طريق (فلاديمير) ورابعاً على جانب من الضخامة في عدده يعسكر بين (روزا) و (موجائيسك) . فإذا كان العدو قد جزأ قواه كما يستنتج من هذه المعلومات إلى فرق كبيرة ، في حين أن (نابليون) نفسه لا زال في موسكو مع كل حرسه . فهل لا يزال ممكناً ومعك جيش ضخم بوفرة عدده أن تنقلب إلى الهجوم عليه ؟ ان الظاهر يوحي بعكس ذلك ، فالعدو يطاردك بقوات أقل عدداً ، وضئيلة جداً بالمقارنة مع الوحدات الموضوعة تحت امرتك . وكان يبدو أنك تبعاً لهذه الظروف المؤاتية ، تستطيع القيام بهجوم ضد عدو أضعف منك ، وأن تبيده أو ترغمه على الأقل على التراجع . فتحفظ في أيدينا الجزء الأكبر من الأقاليم المحتلة

اليوم . وبذلك تدفع الخطر عن (تولا) وعن مدن أخرى في الداخل . وإذا كان العدو قادراً على إرسال جانب كبير من القوات إلى (بيترسبورغ) وأن يهدد هذه العاصمة شبه العزلاء تماماً ، فانك ستتحمل المسؤولية لأن لديك كل الامكانيات للحيلولة بالجيش الذي تحت امرتك دون وقوع هذه الكارثة الجديدة إذا ما عملت بحزم وثبات . وتذكر أن عليك حتى الآن مسؤولية الرد على سبب ضياع موسكو أمام الوطن الغاضب . وانك تعرف بالتجربة مدى استعدادي لمكافأتك . إن حسن الالتفاتة هذه لم تتبدل . لكن روسيا وأنا ، من حقنا أن ننتظر منك كل الغيرة والحزم التي يسمح لنا ذكاؤك وميزاتك العسكرية وبسالة الجنود الموضوعين تحت امرتك ، أن نتوقعها منك - القيصر الكسندر » .

لم يكن (كوتوزوف) في تلك الفترة ، في حالة من العطالة أو الجمود . لقد حدد كوتوزوف هدفه في مقولته : « ان أول هدف لأعمالنا القتالية هو سحق العدو إلى أقصى حد ممكن ».وعندما وصلت رسالة القيصر الكسندر إلى (كوتوزوف) كان هذا قد بدأ فعلاً في تحويل مسيرة الحرب . ونقل القوات من الدفاع الاستراتيجي إلى الهجوم الاستراتيجي .

١١ - كوتوزوف يدمر جيوش نابليون :

انطلق الجيش الروسي في هجومه المضاد الاستراتيجي مع بداية شهر.تشرين الأول - أكتوبر - وفي يوم (١٦ تشرين الأول) خرجت القوات الروسية من معسكر (تاروتينو) ووجهت ضربة مباغتة إلى جيش (مورات) الافرنسي والذي كان عدده زهاء (٢٠) ألف جندي عند نهر

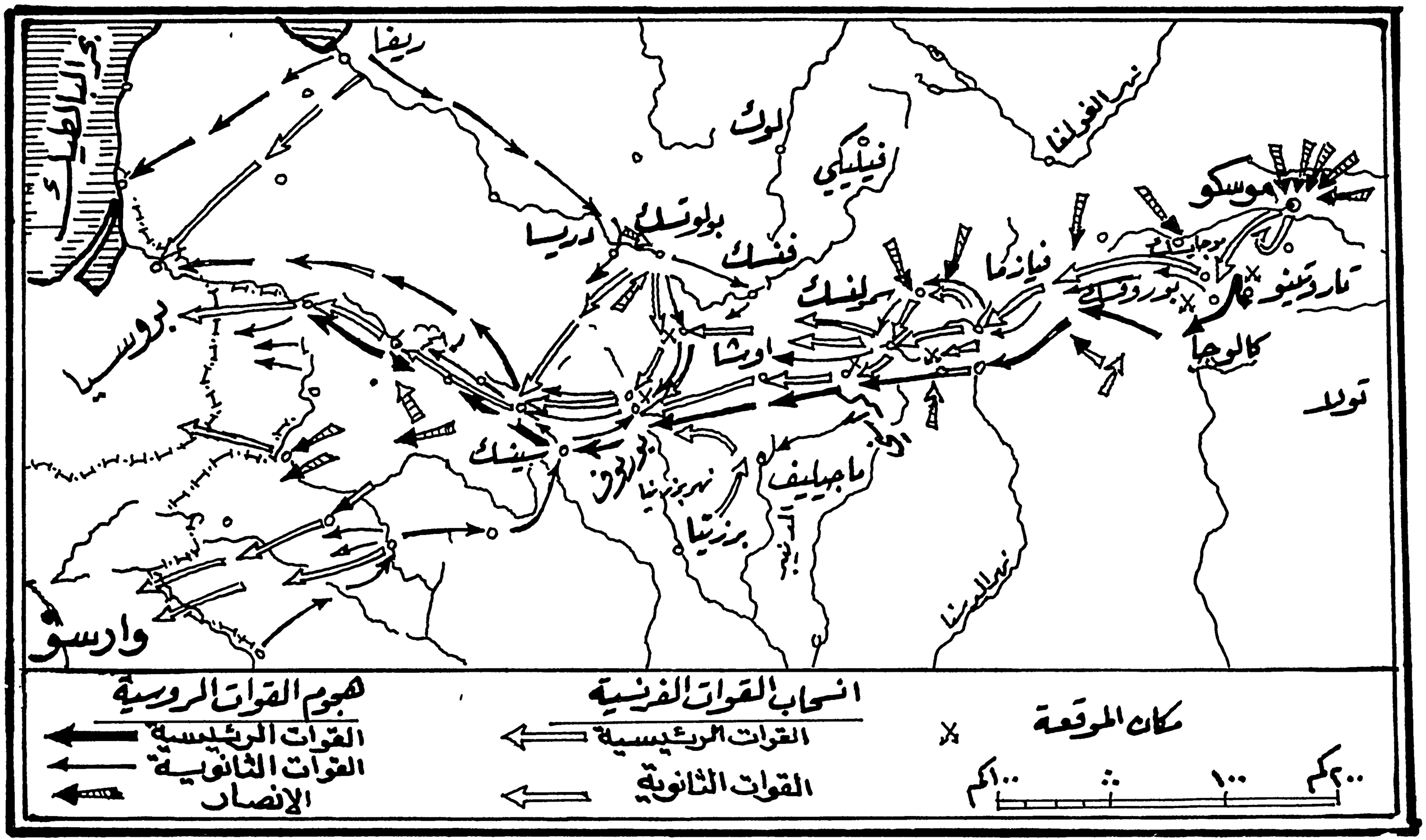

خطط : هجوم الجيش الروسي وتدمير جيش نابليون

(تشرنيشنا) على بعد (٦٠) كيلومتراً إلى الجنوب من موسكو . وبعد أن عرف نابليون بهذه المعركة ، أدرك أن طريق (ريزان) بات مغلقاً في وجه تحركاته . ثم جاءت موقعة (ماريارو سلافت - أو - مالارو سلافتص) في الفترة من (٢٣ - ٢٤ - تشرين الأول - أكتوبر - ١٨١٢) فزادت من القيود المفروضة على نابليون ، وضاعفت من عزلته .

لقد أراد نابليون الانسحاب من موسكو إلى سمولنسك ، متبعاً طريق (كالوجا) ثم الانعطاف إلى (بوروفسك) باعتبار أن منطقة (كالوجا) و (مالاروسلافتص) لم تدمرا بالحرب - انظر مخطط هجوم الجيش الروسي وتدمير جيش نابليون - . وتقدم الجيش الروسي إلى (مالاروسلافتص) لاعتراض طريق العدو . وهناك دارت معركة ضارية بين قوات الطرفين ، انتقلت خلالها قرية مالاروسلافتص ثماني مرات من يد لأخرى .

وفي المساء ، حاصرت كل القوات الروسية طريق (كالوجا) وتمركزت في مواقع دفاعية قوية على جانبي الطريق ، وعلى مسافة (٢,٥) كم من (مالاروسلافتص) استعداداً لخوض الموقعة الرئيسية مع القوات الافرنسية . غير أن هذه الموقعة لم تقع ، إذ أن نابليون الذي كان يفتش دوماً عن الموقعة الرئيسية ، لم يستطع الاعتماد على نتائجها في هذه المرة ، فقرر التخلي عن طريق (كالوجا) والانسحاب إلى قرية (موجايسك) لمتابعة المسير على طريق موسكو - سمولنسك المخرب . ومنذ هذه اللحظة استلم الجيش الروسي المبادأة بشكل نهائي ، واحتفظ بها حتى نهاية الحرب .

ربط كوتوزوف الأعمال القتالية للقوات الروسية - الرئيسية - مع الأعمال القتالية للقوات العاملة على اتجاهات مستقلة وبعيدة . ففي ٤

تشرين الأول - أكتوبر - انتقلت قوات (فيتنشتاين) إلى الهجوم على اتجاه (بولوتسك) واشتبكت مع قوات الفيلقين الافرنسيين الثاني والسادس ، وبعد يومين من المعارك الضارية احتلت (بولوتسك) وفي يوم ١٨ تشرين الأول - أكتوبر - بدأ جيش (تشيتشاجوف) بالتقدم نحو (مينسك) و (بوريسوف) وهكذا أحاطت القوات الروسية بالعدو المنسحب من كافة الجهات .

كانت خطة المطاردة التي وضعها كوتوزوف والمعروفة باسم (المطاردة على المحاور المتوازية) هي الشكل المبتكر والفعال لهجوم القوات الروسية ، وقد تحركت القوات خلالها بشكل مواز لمحاور تحرك القوات الافرنسية ، واضعة إياها في خطر دائم باحتمال قطع طريق الانسحاب عليها أو مهاجمتها من الجانب ، وكان الخوف من قطع طريق الانسحاب يدفع نابليون إلى الاسراع في الانسحاب باستمرار ومن غير توقف . وكانت هجمات وحدات الأنصار والوحدات النظامية خلال انسحاب القوات الافرنسية لا تنقطع ليلاً ونهاراً على جانبي هذه القوات وعلى مؤخرتها ، مكبدة إياها الخسائر الفادحة . وقد حصلت عدة مواقع انتصر فيها الجيش الروسي منها موقعة (فيازما) يوم ٢٢ - تشرين الأول - أكتوبر - وموقعة (كراسني) من ٣ إلى ٦ كانون الأول - ديسمبر - .

تابعت القوات الافرنسية انسحابها إلى (أورشا) ثم إلى (بوريسوف) الواقعة على نهر (بيريزينا - أو - بريزينا) وهنا دخلت في الفخ المحضر لها ، والذي أدى إلى قطع طريق انسحابها . ففي الأمام ، وعند (بوريسوف) كان ينتظرها جيش (تشيتشاجوف) ومن اليمين قوات (فيتنشتاين) ومن اليسار كتلة القوات الرئيسية بقيادة (كوتوزوف) ومن الخلف قوات (ميلورادوفيتش) ووحدات (ايرمولوف) و (قوات

القوزاق) . واستمرت المعركة على نهر بريزينا مدة ثلاثة أيام (من ١٤ إلى ١٧ كانون الأول - ديسمبر - ١٨١٢) تكبد فيها الجيش الافرنسي خسائر فادحة قدرت بثلاثين ألف رجل . وقد استطاع نابليون بفضل مهارته أن يعبر النهر إلى الضفة المقابلة ، وأن يسحب بقايا قواته المحطمة ، ويفر من روسيا متجنباً الوقوع في الأسر .

لقد اكتسبت هذه المرحلة من الحرب كل الخصائص التي أرادها لها (كوتوزوف) والتي لم يسبق لها نظير في (التقليد العسكري) . فحريق المدن والقرى - منذ سمولنسك - والتقهقر بعد المعارك ، وصدمة بوردينو التي تبعها تراجع جديد . وحريق موسكو ومطاردة السلابين والاستيلاء على القوافل ، وحرب الأنصار ، كل هذه الأشياء خارجة على (قواعد الفن العسكري) . **لقد كان المبارز الافرنسي - نابليون - يتطلب أن تدور المعركة وفقاً لقواعد الفن . وكان خصمه كوتوزوف ، قد طرح سيفه ليمسك بالهراوة - التي هي الشعب الروسي - وراح يرفعها فوق رأس عدوه ، مخالفاً بذلك قواعد اللعبة التي أراد أن يمارسها نابليون .**

وقد شعر نابليون بذلك منذ اللحظة الأولى عندما وقف أمام موسكو . واتخذ الوضعية الصحيحة للمبارز ، فرأى بدلاً من السيف الموجه إليه هراوة مشرعة فوق رأسه . واعتباراً من تلك اللحظة ، لم يكف عن الشكوى إلى (كوتوزوف) وإلى (الكسندر) بأن الحرب قد سارت ضد القواعد - **وكأن هناك قواعد لقتل الأشخاص** - ومع ذلك ، ورغم شكاوى نابليون ضد خرق القواعد ، ورغم الخجل الذي شعر به بعض الرجالات البارزين الروسيين الذين رأوا أنه من العار القتال بالهراوة ، وأرادوا التبارز ثلاثاً ورباعاً حسب القواعد ، وتوجيه ضربة مباغتة للخصم الخ . . . فان هراوة الشعب المحارب ارتفعت

بكل قوته المتوعدة الجليلة ، ارتفعت مزدرية كل ذوق سليم ، وكل علم ، ببساطة غليظة حقاً . ولكن باتجاه مباشر نحو الهدف دون أي تمييز ، ارتفعت وهوت فقرعت الافرنسيين حتى أفنت الغزوة كلها .

تلك هي بإيجاز - يشبه التقرير العسكري - قصة التحول الاستراتيجي الذي انطلق من قاعدة (تاروتينو) غير أن ما تتميز به هذه المرحلة من الأهمية - تاريخياً وعسكرياً ، تتطلب الغوص في بعض تفاصيلها المثيرة والممتعة في وقت واحد .

آ - قصة معركة (تاروتينو) :

كان أحد القوقازيين يصطاد الأرانب في الغابة ، وأوغل في تقدمه بعيداً ، وإذ ذاك وجد أن الجناح الأيسر للقوات الافرنسية - بقيادة مورات - كان منتشراً بصورة فوضوية ومحرومة من كل تدابير الحيطة والأمن . وعاد القوقازي ليرفع تقريراً إلى قيادته بما شاهده . وتقدم (ايرمولوف) برجاء إلى رئيس الأركان (بينيجسن) أن يستعمل نفوذه لدى (عظيم الرفعة - كوتوزوف) ليقنعه بالموافقة على السماح له بمهاجمة هذه القوات . وأجابه (بينيجسن) :

« لو أنني ما كنت أعرفك لظننت أنك تريد العكس تماماً ، عكس ما تطلب . وليس علي إلا أن أشير بشيء ما حتى يعمل القائد الأعلى - كوتوزوف - عكسه تماماً . . . » .

كانت تقارير الاستطلاع تؤيد ما حمله القوقازي من معلومات ، فأكدت بشكل نهائي أن الحدث قد نضج . وتمددت نوابض الساعة ، والتقت ، ثم قرع الجرس . واضطر (كوتوزوف) رغم كل سلطانه العظيم وذكائه وخبرته ومعرفته بالرجال ، أن يأخذ بعين الاعتبار طلب

(بينيجسن) الذي كان قد أرسل تقزيراً شخصياً في هذا الموضوع إلى القيصر ، وكذلك رغبة كل قادته - جنرالاته - ورغبة القيصر ذاته . فلم يعد قادراً على إيقاف حركة أصبحت ضرورة حتمية ، فأصدر تبعاً لذلك أوامره ، رغم قناعته بخطورة هذه الحركة وعقمها . وحدد كوتوزوف يوم (٥ - تشرين الأول - أكتوبر - ١٨١٢) موعداً للهجوم . وأصدر أوامره للقتال في اليوم السابق للهجوم .

استيقظ (كوتوزوف) مبكراً في صباح يوم ٥ تشرين الأول - أكتوبر - وتلا صلواته ، وارتدى ثيابه ، واستقل عربة خفيفة ، وهو يحمل بين جنبيه الشعور الكريه باضطراره إلى إدارة دفة معركة لا يقرها . ومضى من (ليتاشوفكا) على بعد خمسة فراسخ وراء (تاروتينو) ليلحق بالبقعة التي كان على أرتال الهجوم أن تجتمع فيها . مضى وهو يغفو ويستيقظ ويصيخ السمع ليعرف ما إذا كانوا يطلقون النار على اليمين ، وما إذا كانت المسألة لم تبدأ بعد . ولكن كل شيء لبث حتى ذلك الحين ساكناً .

كان فجر يوم خريفي رطب ومكفهر ، لا يكاد ينبثق ، ولما بلغ (تاروتينو) لاحظ كوتوزوف فرساناً يأخذون خيولهم إلى الورد وهم يجتازون الطريق التي تسلكها عربته . تأملهم واستوقفهم وسألهم عن الفيلق الذي ينتمون إليه . كان أولئك الفرسان تابعين لرتل كان عليه أن يكون منذ وقت طويل بعيداً إلى الأمام في كمين . فحدث القائد الأعلى نفسه قائلاً : « انا خطأ ولا ريب » . ولكنه بعد ذلك شاهد فيالق مشاة وقد شبكوا بنادقهم بحزم متباعدة ، يهيئون طعامهم ويجمعون الحطب وهم في سراويلهم الداخلية . استدعى ضابطاً ، فأخبره الضابط أن أي أمر بالهجوم لم يصدر إليهم .

شرع كوتوزوف يقول : كيف ؟ هل هذا مما . . . لكنه صمت

وأرسل يستدعي القائد . نزل (كوتوزوف) من عربته ، مطرق الرأس ، ضيق الصدر ، يكاد يتنفس بصعوبة ، وراح ينتظر وهو يذرع الأرض جيئة وذهاباً . وعندما جاء ضابط الأركان (ايخن) الذي أرسل يستدعيه ، تدفقت الدماء إلى وجه (كوتوزوف) لا لأن هذا الضابط هو المسؤول عن الخطأ المرتكب ، بل لأنه شخص يمكنه أن يصب عليه جام غضبه . وبلغ الرجل العجوز أقصى درجات الغضب والانفعال ، واندفع نحو (ايخن) وهو يرتعد ، لاهث الأنفاس ، مزمجراً ، يهدده بقبضتيه ، ويمطره بأقذع كلمات السباب وأحطها . وجاء ضابط آخر - النقيب بروزين - في تلك اللحظة ، فلقي مثل مصير زميله ، رغم انه لم يكن مذنباً في شيء . ومضى كوتوزوف وهو يزمجر بعبارات تكاد تخنقه ، وهو يلوح بيديه ، ويترنح :

« ما هذه السفالة ؟ ليعدموهم بالرصاص ! حقيرون ! »

كان يشعر بألم لا يوصف ، انه هو الجنرال الأول ، القائد الأعلى ، والذي كان الناس كلهم يؤكدون له انهم لم يروا قط في روسيا من تمتع بنفوذ يضاهي نفوذه ، انه هو الآن في موقف قمين بإثارة سخرية الجيش كله ! حدث نفسه :

« ما فائدتي من كثرة الصلوات التي تلوتها لهذا اليوم ، وما فائدة عدم الاغفاء والسهاد طوال الليل حتى أحسب لكل شيء أفضل الحساب . عندما كنت ضابطاً صغيراً لم يكن هناك من يجرؤ على السخرية مني ! » . كان يشعر بألم يسحقه ، مما جعله عاجزاً عن حبس صرخات الغضب والألم . لكن قواه ما لبثت أن فارقته ، فنظر حوله . وشعر بأنه تمادى كثيراً في سبابه . فعاد يصعد إلى عربته ، وارتد في سيره إلى الوراء صامتاً .

عندما انقشعت سحابة الغضب تلك ، لم تتلبد بعد ذلك ، بل

أخذ (كوتوزوف) يصغي وهو يطرف بعينيه ، إلى الذوائع ومرافعات الدفاع التي تقدم بها (بينيجسن) و(كونوفنيتش) و(نول) حول ضرورة ارجاء العملية الفاشلة إلى الغد . فاضطر (كوتوزوف) من جديد إلى إبداء موافقته . أما (ايرمولوف) فانه لم يمثل أمامه إلا في اليوم التالي .

اجتمعت القوات في الأمكنة المحددة لها - في مساء اليوم التالي - وبدأ الهجوم خلال الليل . كانت ليلة من ليالي الخريف ، حيث الغيوم تكون بلون أسود مشوب بالبنفسجي ولكن دون مطر . ولم تكن الأرض موحلة رغم رطوبتها ، فكانت القطعات تسير دون جلبة . ولم يكن يسمع من حين إلى آخر ، إلا قرقعة المدفعية المكتومة . وكانت الأوامر قد صدرت بمنع الحديث بصوت مرتفع ، والامتناع عن التدخين وقدح الصوان ، وكان الجنود يحولون دون صهيل الخيل . فكانت سرية العملية تزيد في فتنتها . أخذ الرجال يتقدمون بانشراح ظاهر ، وتوقفت بعض الأرتال ، وقامت بتشبيك أسلحتها في باقات متقاربة ، ونام أفرادها على الأرض الباردة ظناً منهم أنهم بلغوا المكان المحدد لهم . أما البعض الآخر ، وهي تشكل معظم الأرتال ، فقد استمرت في المسير طوال الليل ، فبلغت دون ريب المكان الذي لم يكن عليها أن تصل إليه . إلا أن (الكونت أورلوف - ديتيسوف) وحده مع جنوده القوقازيين ، وهم أصغر الأفواج عدداً ، وصلوا إلى أمكنتهم في الوقت المناسب . وتوقف هذا الفوج عند أقصى حدود الغابة ، على درب يؤدي من قرية (ستروميلوفو) إلى قرية (دميتروفسكوي) .

توافرت المعلومات عند (الكونت أورلوف - دينيسوف) - عن طريق جاسوس بولوني - بضعف تدابير الأمن في معسكر (مورات) الأمر الذي يساعد على اختطاف (مورات) من وسط معسكره . فوجه

(دينيسوف) سريتين لتنفيذ العملية . غير أن السريتين وصلتا إلى حدود هدفهما متأخرتين . إذ كان ضوء الفجر قد أخذ في الظهور . فأصدر (دينيسوف) أمره باستدعاء قوة الاغارة ، وضمها إلى قوته ، وأمر بصوت خافت : « إلى الجياد » فاتخذ كل مكانه ورسم شارة الصليب « في حراسة الله » .

دوت صيحات (هورا) في الغابة ، وراح القوقازيون في سرايا مؤلفة من مائة فارس ، يتبعثرون بمرح (مائة بعد مائة) أشبه بحبات القمح المنطرحة من كيس . وهجموا على معسكر العدو ، وقد أرخوا لجيادهم الأعنة ، واجتازوا نهراً . وانطلقت صرخة رهيبة من حناجر الافرنسيين الأول الذين شاهدوا القوقازيين . وجرى كل من في المعسكر ، نصف عراة ، تاركين المدافع والبنادق والجياد وهم ينفرون فراراً في كل الأنحاء . ولو استمر القوقازيون بمطاردتهم للافرنسيين من غير أن يأبهوا لما وراءهم وحولهم ، لأسروا (مورات) وكل من كان معه . وكان هذا هو ما يريده الرؤساء . ولكن لم يعد بالمستطاع زحزحة القوقازيين الذين اقتصر تفكيرهم على الاسلاب والسجناء . ولم يعد أحد يصغي إلى الأوامر : لقد غنموا هناك ألفاً وخمسمائة أسير ، وثمانية وثلاثين مدفعاً واعلاماً ، وما يثير اهتمام القوقازيين أكثر من سواه ، خيولاً وسروجاً وأغطية وألف حاجة أخرى مختلفة ، وكان يجب إعداد كل هذه الأشياء : وضع اليد على الأسرى والمدافع وتوزيع الأسلاب ، والتماحك على الغنائم بل الوصول إلى الاشتباك بالأيدي . ولم يكن القوقازيون عاجزين عن كل هذا .

استعاد الافرنسيون السيطرة على الموقف بعد زوال ما أحدثته المباغتة من ذهول ، وبعد أن توقفت المطاردة الروسية لهم . فنظموا صفوفهم ، وأخذوا في إطلاق النار . وكان (أورلوف - دينيسوف) ينتظر دائماً

سراياه ، ولا يتوغل في هجومه إلى أبعد ما هو محدد له .

في تلك الأثناء ، وتنفيذاً للخطة العسكرية ، تحرك المشاة المتأخرون بقيادة (بينيجسن) وتوجيه (تول) في الوقت المناسب وبما يشبه الحقيقة ، واتجهوا إلى جهة ما ، ولكن ليس إلى المكان المعين لهم . وانتهى الأمر بالرجال الذين ذهبوا والبهجة تملأ نفوسهم ، إلى التوقف وقد ظهر عليهم الاستياء والشعور بالخجل ، فعادوا على أعقابهم . وكان الجنرالات - القادة - والمساعدون العسكريون - يتنقلون من مكان إلى مكان على صهوات جيادهم ، ويصرخون ويسخطون ويتخاصمون ، ويزعمون أنهم ليسوا في المكان الذي يجب أن يكونوا فيه ، وانهم تأخروا ، ويلقي كل منهم تبعة الخطأ على الآخر ، حتى أنهم أقلعوا أخيراً عن ذلك وراحوا يمشون لمجرد المشي : « سوف نصل حتماً إلى مكان ما . . . » . والواقع أنهم وصلوا متأخرين جداً ، ولكن ليس إلى حيث كان عليهم أن يصلوا ، بل ليكونوا بالنتيجة هدفاً صالحاً للعدو . وكان (تول) يجري على جواده متعجلاً من جانب إلى آخر ، ليجد في كل جانب أن الأمور سارت على عكس اتجاهها المفروض ، وعلى هذا النحو ، وقع على فيلق (باجوفو) في وسط الغابة وقد طلع النهار ، في حين كان على هذا الفيلق أن يكون منذ وقت طويل مع (اورلوف - دينيسوف) . ولقد غضب (تول) وشعر بجرح في كرامته لاخفاقه ، وافترض أنه لا بد من وجود مذنب مسؤول ، فجرى على جواده إلى قائد الفيلق وأمطره وابلاً من اللوم الجارح قائلاً انه يستحق الاعدام رمياً بالرصاص . فخرج (باجوفو) الذي لم يكن جنرالاً من جنرالات المظاهر بل قائداً عجوزاً باسلاً ، ابن القتال ، مجرباً في المعارك ، خرج - للدهشة العامة - عن هدوئه الطبيعي ، وقد أغضبته كل هذه التوقفات والبلبلة والأوامر المتناقضة (مثلما أغضبت تول) واستبدت به ثورة مفاجئة ، فأجاب (تول) بقحة قائلاً :

« لست أريد أن أتلقى درساً من أحد ، وأعرف كيف أموت أنا وجنودي ، كأي آخر تماماً » واندفع إلى الأمام تتبعه قواته . فوجد نفسه وجنده في وسط ساحة المعركة ، وتحت وابل نيران الافرنسيين ، ولم يتساءل – باجوفو – الباسل في سورة غضبه ما إذا كان خوض المعركة في تلك الأثناء أمراً نافعاً أو عقيماً ، فقاد قواته مباشرة إلى النار . لقد كان كل ما يحتاجه لاطفاء نار غضبه هو اقتحام الخطر والاندفاع في وسط دائرة القنابل والرصاص . فقتلته رصاصة على الفور ، وأردت الرصاصات التالية كثيراً من جنده . وبقيت قواته وقتاً تحت رحمة نار العدو ، وكانت تضحياتها عقيمة ومن غير جدوى .

حدث في تلك الأثناء أن وقع رتل آخر من القوات الروسية على الافرنسيين . لكن ذلك الرتل كان قريباً من القائد العام (كوتوزوف) الذي كان يعرف تماماً أن هذه المعركة التي شرع فيها رغم إرادته ، لن تؤدي إلا إلى الخزي ، فكان يستوقف القطعات على قدر طاقته .

كان ساكن الحركة ، صامتاً ، ممتطياً صهوة جواده الأشهب الصغير ، يجيب دون انفعال أو لهفة عن الاقتراحات التي يقدمونها إليه بشأن الهجوم . فقال (لميلورادوفينتش) الذي كان يسأله أن يتقدم إلى الأمام : « ليس على لسانك إلا الهجوم ، ولا ترى أننا لا نحسن القيام بحركات معقدة » . وقال لآخر : « انك لم تعرف كيف تأخذ – مورات – حيا هذا الصباح ، ولا أن تصل إلى مكانك المحدد في الوقت المعين ، والآن فات الوقت » .

وعندما جاؤوا يعلمونه عن ظهور قوة لواءين من البولونيين على مؤخرة الافرنسيين الذين كانوا مكشوفين في بداية الأمر بحسب معلومات القوقازيين وعناصر الاستطلاع ، نظر من جانب عينه إلى (ايرمولوف) الذي لم يوجه إليه كلمة منذ أمس ، بسبب تقصيره وانصرافه إلى عبثه

ومتعته بدلاً من الاعداد للهجوم في وقته المحدد ، وقال له : « أرأيت ! انهم يطالبون بهجوم ، ويقدمون رزمة من المشاريع ، وعندما ينتقلون إلى العمل ، لا يكون شيء جاهزاً ، في حين يكون العدو قد أخذ أهبته بعد أن تم إنذاره » .

أغمض (ايرمولوف) عينيه نصف إغماضة ، وطافت على شفتيه ابتسامة خفيفة ، لما سمعه ، وأدرك أن العاصفة قد تجاوزته ، وأن (كوتوزوف) سيكتفي بهذا التلميح ، فلكز بركبته (راييفسكي) الذي كان إلى جانبه ، وقال له بصوت خافت : « انه يسخر مني » . ولم يلبث أن اقترب إلى (كوتوزوف) . وقال له باحترام :

« لم نخسر شيئاً يا صاحب السمو ، فالعدو لا زال هنا إذا أردتم إصدار الأمر بالهجوم . وبغير ذلك فان الحرس لن يشموا حتى رائحة البارود » .

لم يجب (كوتوزوف) بشيء ، وعندما أعلنوا له أن قطعات (مورات) قد انسحبت ، أصدر الأمر المنتظر ، لكنه كان يأمر بتوقف لمدة ثلاثة أرباع الساعة ، بعد كل مائة خطوة .

إذن ، لقد اقتصرت المعركة على هجمة القوقازيين التابعين (لاورلوف - دينيسوف) . أما بقية القطعات فقد أضاعت مئات من الجنود بدون أية فائدة . وكانت النتيجة التي حصل عليها (كوتوزوف) هي منحه وساماً من (الماس) . وتلقى رئيس أركانه بالمقابل (بينيجسن) كمية من الماس ومائة ألف روبل . أما الضباط الآخرون ، فقد أنعم عليهم بحسب رتبهم بهبات ثمينة . أضف إلى ذلك أن تنقلات جديدة وقعت في أركان الجيش .

قال القادة - الجنرالات - والضباط الروسيون بعد معركة (تاروتينو) : « هذا هو النمط الذي تسير عليه الأمور عندنا ، كل شيء

على عكسه » كذلك كانوا دائماً يتحدثون كلما أرادوا أن ينوهوا بأنه إذا أخطأ أحمق ما في التصرف ، فان الأمور كانت ستدور على نحو مختلف . وعلى كل حال ، فإذا كانت هذه النتيجة لم تعجب بعض القادة الروس ، إلا أنها حققت ما كان يرجوه كوتوزوف منها ، إذ استطاع إزالة تهديد القوات الافرنسية بحد أدنى من الخسائر ! وأغلقت طريق (ريزان) نهائياً في وجه القوات الافرنسية .

تأثر نابليون إلى حد بعيد بنتيجة معركة (تاروتينو) فقاد قواته في محاولة للتحرك على طريق (كالوغا) غير أن القوات الروسية جابهت القوات الافرنسية في (مالاروسلافتص) وقام القوقازيون بدور أساسي يماثل دورهم في معركة (تاروتينو) وجاءت نتيجة هذه المعركة مشابهة لسابقتها . فقد أمكن إغلاق طريق (كالوغا) نهائياً أيضاً في وجه القوات الافرنسية التي لم يبق أمامها من طريق للانسحاب سوى طريق سمولنسك المخربة .

ب - حرب الأنصار :

تميزت مرحلة الهجوم الاستراتيجي للقوات الروسية بمجموعة من الظواهر لعل من أبرزها نشاط (حرب الانصار) طوال حركة انسحاب نابليون على طريق (سمولنسك) . ولقد تشكلت في تلك الفترة القصيرة مجموعات من المقاتلين الذين أخذوا على عاتقهم الانتقام لكرامة الوطن .

لقد نهض أحد الفلاحين من قرية (بافلومو) واسمه (جراسيموس كورين) وجمع حوله خمسة آلاف وثمانمائة رجل « ليذود عن الوطن » . وأخذ في التصدي للافرنسيين الذين كانوا يجوبون البلاد

بحثاً عن المواد التموينية . وكان كورين ورجاله ينهالون على الافرنسيين بأدوات حراثة الأرض ، أو يشنقونهم أو يغرقونهم . وعلى هذا النحو هلك في مقاطعة(بوروفسك) وحدها نحو من (٣٥) ألف افرنسي . وكذلك فعل (فغنر) و(سلافين) و(دافيدوف) و(بنكندوف) و(الأمير كوروكين) وسواهم من زعماء العصابات الذين فرضوا سيطرتهم على طريق سمولنسك . كما أن (دولوخوف) ومعه قوة (٢٥) ألفاً من القوزاق ، استولوا على فيريا بالقوة . وبرزت في هذه الحرب أيضاً الفلاحة (فاسيلسا) والفتاة (ناديجوا دوروفا) اللتان صارتا قدوة للنساء الروسيات ، وحاربتا مع الرجال لطرد أعداء الوطن . وكان في موسكو كثيرون من القوزاق المتنكرين والذين أخذوا على عاتقهم إزعاج الافرنسيين بصورة مستمرة .

عندما تساقط الثلج لأول مرة في يوم ١٣ تشرين الأول - أكتوبر - ١٨١٢ مؤذناً بقدوم شتاء قارس ، أمر نابليون بإخلاء المستشفيات ومغادرة موسكو . فترك المدينة حوالى تسعين ألف جندي من (١٨) إلى (٢٣) تشرين الأول - أكتوبر - وأخذوا معهم (٦٠٠) مدفع وألفي عربة ذخيرة . وكان هناك (٥٠) ألفاً من غير القادرين على القتال (ما بين جرحى ومرضى وعناصر إدارية - خدمات - ونساء الخ) وكان هؤلاء يخافون من الوقوع في قبضة القوزاق . وكان (مورتير) آخر من ترك موسكو ، بعد أن وضع الغاماً تحت قصر الكريملين ، ونسف قصر (اليزابيث) فتشققت بوابة سافيور وبوابة الثالوث وبرج إيفان العظيم ، من شدة الانفجار ، وحدثت شقوق أيضاً في حيطان الكريملين . وقد كان ذلك انتقاماً لا مسوغ له ، ومثيراً لغضب الروسيين الذين أخذوا في الانتقام من جرحى الافرنسيين الذين كانوا يسيرون مع مؤخرة الجيش ، لا سيما وأن مقدمة الجيش الافرنسي لم تكن قادرة على تأمين حماية وسط الجيش أو مؤخرته . وكان القوزاق يجولون بخيولهم هنا وهناك ، لإ نزال

أكبر قدر من الخسائر في قوات الجيش الافرنسي .

لم تصطدم مقدمة الجيش الافرنسي بأية مقاومة طوال اليومين الأولين اللذين أعقبا الجلاء عن موسكو . ووصل نابليون إلى قرية (بورفسك) التي تبعد نحو ستين ميلاً عن العاصمة ، وكان (أوجين) ومعه (١٨) ألفاً من الافرنسيين والايطاليين في موقع يبعد عن مركز الجيش مسافة (١٢) ميلاً . وبينما كان الجميع مستغرقين في النوم - بعد منتصف الليل - باغتتهم القوات الروسية بإغارة قوية ، واشتبكت معهم بقتال عنيف سقط فيه عدد كبير من الافرنسيين ، وانسحب الروس بمثل السرعة التي ظهروا فيها .

علم نابليون بحجم الجيش الذي يتولى (كوتوزوف) قيادته ، فأخذ في الاستعداد لمجابهة الموقف . وبعد منتصف النهار ، توسطت قوات القوزاق بين جيش نابليون ومقدمته ، فامتطى نابليون جواده ومضى إلى مرتفع يشرف منه على قواته ، وإذا به يباغت بقوة من فرسان القوزاق تنقض عليه كالضواري وهي تصرخ بصيحة الحرب (هورا) ، فتهجم على رجاله ، وتقتل جماعة منهم ، وتجرح قائد مقدمته . فيعقد نابليون مجلساً حربياً يقرر فيه التراجع عن طريق (كالوغا) ، والتوجه إلى الطريق الوحيد المتبقي له وهو طريق (سمولنسك) ، حيث أخذ كوتوزوف في التحرك للضغط باستمرار على القوات الافرنسية التي ما فتئت عرضة لهجمات فرسان القوزاق . ولما ضاق نابليون ذرعاً بهذه الحرب ، كتب إلى كوتوزوف - بتوقيع برتييه - يسأله تنظيم القتال وفقاً للأساليب المعروفة ، وتخليص الامبراطورية الروسية من شر تلك الفوضى . وقد أجابه كوتوزوف : « **انني لا أستطيع صد الروسيين عن إظهار حبهم لوطنهم** » .

لم يفتح طريق (سمولنسك) أمام القوات الافرنسية إلا بعد

معركة (فيازما) في ٣ - تشرين الثاني - نوفمبر - . وفي الخامس منه هبت ريح عاصفة ، رافقها برد قارس وانخفاض في درجة الحرارة إلى ما دون (١٨) درجة . وتساقط الثلج عند منتصف الليل بكثرة ، فأطفأ نيران الجيش المعسكر في العراء ، وعندما طلع النهار حجبت الغيوم الكثيفة ضوء الشمس ، وسار الجيش على غير هدى ، والريح الباردة تصفع الوجوه ، والثلج المتساقط يخترق الأجسام شبه العارية فيجمد الدم في العروق . وعلى هذا النحو سقط الكثيرون وهم يتعثرون فدفنتهم الثلوج - بالآلاف - مع خيولهم الهالكة . وزاد من بلاء الجيش الافرنسي ومحنته الهجمات المستمرة للقوزاق الذين كانوا يتصيدون الجرحى والمتساقطين على الطريق والمفارز المنعزلة ، حيث كانوا ينقضون عليهم بحرابهم ويساعدونهم على التخلص من متاعبهم . وعندما أقبلت الليلة التالية (٧ - تشرين الثاني - نوفمبر) انطرح البعض على الثلج من شدة الاعياء ، ولم يستفيقوا أبداً . وعندما أشرق الفجر ، كانت الأرض المحيطة مغطاة بالجثث ، والغربان قد خرجت من أوكارها لتنهش جثث المطروحين على الثرى ، وفيهم من لم يمت بعد .

واضطر الجيش الافرنسي عندما استأنف مسيره ، وهو في حالة من الارهاق لا توصف ، إلى ترك مدافعه وأسلحته لعجزه عن حملها . فتلقاها القوزاق غنيمة باردة . ووصلت القوات الافرنسية إلى (سمولنسك) في يوم ٩ تشرين الثاني - نوفمبر - وهي تأمل أن تجد في المدينة بعض احتياجاتها ، غير أنها لم تجد المأوى ولا الكساء أو الطعام . فمات في الشوارع مئات الجنود . وأثناء ذلك لم تنقطع عصابات الانصار والقوزاق عن توجيه الضربات الأليمة إلى فلول الجيش الممزقة .

لم يبق من جيش نابليون إلا (٤٠) ألفاً ، قسمهم نابليون إلى أربعة جيوش أسند قياداتها إلى (مورات وأوجين ودافوست وني) ثم

غادر سمولنسك يوم ١٤ - تشرين الثاني - نوفمبر - وكانت عصابات القوزاق أثناء هذا التوقف الذي استمر خمسة أيام تمارس عملها في هدم الجسور واحراق القرى وإتلاف كل ما يمكن للجيش الافرنسي أن يستفيد منه خلال تحركه . وهنا كان كوتوزوف قد تقدم بجيشه (الذي أصبح يضم تسعين ألفاً من الجنود بعد أن تناقص عدده) وأحاط بنابليون وأرغمه على أن يشق طريقه عبر الدنيبر (بقوة الحراب) للوصول إلى (اورشا) .

زال الخطر عن روسيا ، وجلس (كوتوزوف) ينشد بعض الراحة ، والتف حوله قادته فقال لهم : « أين يضطجع ابن الكلب - الليلة ؟ اسمعوا أيها الأصحاب هذه الحكاية الظريفة التي أرسلها لي الروائي كرايلوف : دخل ذئب إلى مرقد للكلاب فأزعجها ، أما كيفية الدخول فوجدها سهلة ، ولكن الخروج تعسر عليه جداً . إذ اجتمعت عليه كل الكلاب ، وحشروه في زاوية ضيقة ، فنفش شعره ، وقال لهم : ما هي الحكاية يا أصحابي ، ولماذا سخطتم عليّ ، إنني أتيت لأرى ماذا تصنعون . والآن أنا منطلق في سبيلي . وكان زعيم الكلاب قد أسرع حينئذ . ودخل المرقد . وقال له : لا يا صديقي الذئب ، لا يمكنك أن تخدعنا . نعم إنك خبيث ماكر ، وذو شعر أشيب غير أنني أنا أيضاً أشيب ولست أكثر منك بلادة » وعندئذ نزع كوتوزوف قبعته وأراهم خصائل شعره الأشيب ، وتابع القول : « انك لا ترجع كما أتيت لأنني أرسلت كلابي في أثرك » .

قامت القوات الافرنسية بقيادة (سان سير) بالجلاء عن طريق (دونيا) بعد معركة دموية طاحنة في يوم ١٩ تشرين الثاني - نوفمبر - . وفي الجنوب ، تقهقر (شوارتزنبرغ) عن طريق (وارسو) والذي كان يهمه سلامة بولونيا أكثر من سلامة نابليون . واستطاع الجيش الافرنسي

عبور (بريزينا) بالقرب من (ستياستودنياكا) من (٢٦) إلى (٢٩) تشرين الثاني - نوفمبر - وذلك بعد معركة ضارية مع القوات الروسية التي كان يقودها (كوتوزوف) . وعندما وصل نابليون إلى (سمورغوني) سلم القيادة إلى (مورات) ورجع مع قوة صغيرة إلى باريس .

دخل الجيش الافرنسي بقيادة (مورات) إلى (ولنا) عاصمة بولونيا . غير أنه لم يكد يستقر فيها حتى دوت أصوات المدفعية الروسية من ثلاث جهات . واضطر مورات للانسحاب بجيشه على عجل ، تاركاً الجرحى في رعاية أهل المدينة . ولما كان أكثر أهل المدينة من اليهود ، فقد خافوا من بطش الروس ، فقذفوا بالجرحى من نوافذ البيوت إلى الشوارع . وبلغ عدد الجرحى الذين تم إحراقهم (٣٠) ألفاً .

واضمحل (الجيش الكبير) .

وعند هذه المرحلة وضع (كوتوزوف) بالاتفاق مع (رومانتسوف) مخططه لضم أقاليم بروسيا وبولونيا الشرقية إلى روسيا ، ودفع حدودها إلى الفستولا ، وعقد الصلح بعد ذلك مع نابليون . لكن القيصر الكسندر كان قد وضع مخططاً آخر للقضاء على نابليون نهائياً .

ج - كوتوزوف وإدارة الحرب :

شرع الجيش الافرنسي في تحركه طوال ليلة السادس إلى السابع من تشرين الأول - أكتوبر - ١٨١٢ : دمروا المطابخ والمباني ، وحملوا عربات النقل ، ثم بدأ الجنود والاحمال في السير ، لقد بدأ الجلاء عن موسكو .

كان كوتوزوف - مثله كمثل كل الأشخاص المسنين - قليل النوم ليلاً ، يغفو غالباً في النهار . لكنه يقضي الليل ممدداً في سريره ، دون أن ينزع ثيابه . وهو في أغلب الأحيان مشغول في التفكير بدلاً من النوم .

كان على تلك الصورة في تلك اللحظة ، مستلقياً فوق سريره ، ورأسه الضخم الثقيل الذي يحمل آثار جرح كبير ، مرتكز على يده المنتفخة ، مستغرقاً في خواطره ، وعينه الوحيدة محدقة في الظلام .

أصبح كوتوزوف أكثر هدوءاً منذ أخذ (بينيجسن) الذي كان يتصل مباشرة مع القيصر ، . ويتمتع بأكبر نفوذ في الأركان العامه ، يتجنبه ، هدوءاً بمعنى أنه ما من أحد بات يدفعه إلى إلقاء جيوشه في معركة هجوم عقيمة . فكر بأن درس معركة (تاروتينو) والأحداث الأخيرة التي كانت ذكراها أليمة الوقع على نفسه ، تنفعهم على كل حال .

راح كوتوزوف يحدث نفسه : « **يجب أن يذكروا تماماً أننا سنخسر كل شيء إذا تحولنا إلى الهجوم . إن الصبر والوقت هذان هما الجنديان الشجاعان اللذان سيحاربان من أجلي** » وكان يعرف تماماً ، انه لا يجب قطف تفاحة عندما تكون فجة . إنها ستسقط من نفسها عندما تنضج . أما بانتزاع التفاحة الفجة ، فاننا نشوه الشجرة ، ولا تصلح الثمرة إلا لاضراس الأسنان . وكان (كوتوزوف) يعرف ، بوصفه صياداً خبيراً أن الحيوان الجريح جرحاً بليغاً من الصعب تقدير درجة خطورته . فهل الاصابة قاتلة أم لا ؟ ذلك هو السؤال الذي ظل واجب الايضاح . لقد كان يجمع الشواهد طوال فترة شهر ، وبات واثقاً أن الجرح مميت . ولكن كان لا يزال في حاجة إلى البراهين . وإذن ! ما عليه إلا أن ينتظر .

حدث كوتوزوف نفسه قائلاً : « ليس بهم إلا تلهف واحد ، أن يجروا لرؤية طريقة قتل الحيوان . انتظروا ، وسترون تماماً ! أبداً - مناورات - وأبداً - هجمات - ! ولماذا ؟ بقصد إظهار الذات دائماً . وكأن في القتال شيئاً يحمل على البهجة . انهم أشبه بالأطفال الذين لا يكادون يميزون شيئا من شيء لشدة رغبتهم في إظهار معرفتهم بلعب القتال . في حين أن الأمر لا علاقة له الآن بكل هذا . ويا لها من مناورات بارعة تلك التي يعرض هؤلاء الأشخاص عليّ تطبيقها . انهم يظنون أنهم بمجرد الاعتماد على طارئين أو ثلاثة من الحوادث العارضة أو الطارئة ، باتوا يدركون كل شيء ، كل شيء - وتذكر مخطط الحملة العام الذي أرسل من بيترسبورغ - لكن الحوادث الطارئة أكثر من أن تحصى » .

ظل هذا السؤال معلقاً فوق رأس كوتوزوف ، منذ أكثر من شهر : هل الجرح الذي أصيبوا به في بورودينو قاتل أم لا ؟ ان الافرنسيين يحتلون موسكو ، وهذه واقعة ملموسة ومع ذلك ، فان كوتوزوف كان على ثقة مبعثها كل جارحة من جوارحه ، بأن الضربة التي وجهها بمجموع القوات الروسية يجب أن تكون قاتلة . ولما كان في حاجة ماسة إلى البراهين ، وكان ينتظر منذ شهر طويل ، فقد أخذ ينفد صبره أكثر فأكثر كلما مر وقت أطول . وهكذا أخذ يعمل طوال لياليه البيضاء وهو متمدد فوق سريره ، مثل ما يعمله قادته الشبان ، الشيء بعينه الذي يأخذه عليهم . كان مثلهم يتصور كل الفرضيات والاحتمالات الممكنة مع فارق واحد : وهو أنه لم يكن يبني شيئاً على تلك الافتراضات . وانه بدلاً من أن يرى احتمالين أو ثلاثة ، يرى الألوف . وكلما ازداد تفكيراً كلما زاد عدد الافتراضات في خاطره . كان يتصور كل إمكانيات حركة جيش نابليون ، سواء كان مركزاً أو مقسماً إلى جمهرات موجهة ضد (بيترسبورغ) وضده هو للاحاطة به ، ويستعرض الافتراض الذي كان

يخشاه أكثر ، وهو عودة نابليون بكل قواته إلى موسكو ، والبقاء فيها بانتظاره ، بل كان كذلك يفكر في حركة تقهقر من جيش نابليون على (ميدين) في كالوجا ، وعلى (ايوخنوف) في سمولنسك . لكن الشيء الوحيد الذي لم يكن يفكر باحتمال حدوثه مسبقاً ، وهو ما حدث فعلاً : ذلك التنقل التشنجي المخالف للصواب والذي قام به نابليون وجيشه طوال أحد عشر يوماً تلت إخلاءه لموسكو . ذلك التنقل الذي جعل بالمستطاع التفكير فيما لم يكن كوتوزوف يجرؤ قط أن يتصوره حتى ذلك الحين : التدمير الكامل للجيش الافرنسي .

كان ذلك بدقة هو ما يفكر به كوتوزوف في ليلة ١١ تشرين الأول - أكتوبر - وهو ممدد ورأسه مستند إلى يده ، عندما ندت حركة في الحجرة المجاورة تفضح مسير بعض الرجال . وصاح كوتوزوف : هيه ! من هناك ؟ ادخلوا ! ادخلوا! ماذا ؟ هل من جديد ؟ وبينما كان وصيفه يضيء الشمعة ، كان كبير الضباط المناوبين ومعه مراسل قادم من موسكو قد وصل تواً وهو يحمل أنباء هامة لعظيم الرفعة - وها هما يقفان أمام كوتوزوف الذي جلس على سريره ، وقد تدلت ساقه وثنى الأخرى تحت بطنه الضخم المتهدل . رف بعينه السليمة ليتسنى له تأمل الرسول على نحو أفضل ، وكأنه يريد أن يقرأ على قسماته ما كان يشغله .

وشرح المراسل بالتفصيل ما يحمله من معلومات : لقد غادر نابليون موسكو . وقامت القوات الافرنسية بالجلاء التام عن العاصمة . وعندما انتهى المراسل من إفراغ ما في جعبته ، وانتهى من الاستجواب الدقيق الذي حصل كوتوزوف به على ما يريده من معلومات تفصيلية . قال كوتوزوف بصوت مرتعد وهو يضم يديه :

«مولانا ، ربي يا خالقي ، لقد سمعت صلاتنا . . . لقد أنقذت روسيا . أشكرك يا ربي» وانخرط في البكاء .

انصرفت حيوية كوتوزوف ونشاطه ، اعتبازاً من هذه اللحظة وحتى آخر الحملة ، إلى كبح جماح قطعاته ، سواء أكان ذلك بالسلطة أو بالخدعة أو بالرجاء . ومنع قادته من القيام بهجمات أو مناورات أو اشتباكات غير مجدية ، مع عدو هالك لا محالة .

لم يكن من السهل على (كوتوزوف) كبح جماح قادته وقواته بصورة مستمرة لتجنب (المعارك العقيمة) فقد اضطر في (فيازما) إلى خوض المعركة ، رغم إرادته ، فكانت النتائج (عقيمة) كما توقعها .

استمر تقهقر الجيش الافرنسي بعد (فيازما) واستمرت مطاردة الجيش الروسي له حتى (كراسنواييه) وكان الجيش الافرنسي سريعاً في فراره ، حتى أن الجيش الروسي الذي كان يطارده ، لم يكن قادراً على اللحاق به . فباتت الجياد تهلك تحت فرسانها ، وتعجز عن عملها في جر المدفعية . وكانت المعلومات عن تحركات الافرنسيين خاطئة دائماً . وبلغ الاعياء بالجنود الروسيين من هذا الانتقال اليومي المستمر الذي كانوا يقطعون خلاله أربعين فرسخاً في اليوم مبلغاً جعلهم عاجزين عن زيادة سرعتهم . ولادراك درجة إنهاك الجيش الروسي ، يكفي معرفة حقيقة أن هذا الجيش - منذ تاروتينو - لم يخسر إلا خمسة آلاف رجل بين قتيل وجريح ونحو مائة أسير . وأنه عندما خرج من تاروتينو بقوة (١٠٠) ألف رجل ، بات عدده الآن في (كراسنواييه) لا يتجاوز الأربعين ألفاً . وإذن ، فقد كانت سرعة المطاردة ذات أثر مذيب على الجيش الروسي بمثل ما كان تأثير الفرار على الجيش الافرنسي ، مع فارق واحد ، وهو أن الجيش الروسي كان يتقدم دون الخوف من الفناء الذي كان يتهدد الجيش الافرنسي . الأمر الذي ينجم عنه أن المتخلفين الافرنسيين كانوا يقعون بين أيدي الروسيين (الانصار والقوزاق) . أما المتخلفون من هؤلاء ، فيمكثون في بلادهم . والسبب الرئيسي إذن

لانحلال جيش نابليون ، كان ناجماً عن سرعة هذا الجيش .

كان نشاط (كوتوزوف) كله يهدف فقط (كما في تاروتينو - وفي ميازما) إلى عدم إعادة التقهقر الافرنسي بقدر ما يقع ذلك في نطاق طاقته ، خلافاً لما كانوا يريدون في (بيترسبورغ) ولما كان يريده قادة الجيش الروسي - جنرالاته - بل مساعدة قطعات العدو على تقهقرها وتراجعها .

لم يكن الانهاك الذي كان يعانيه الجيش الروسي من جراء المطاردة ، أو الخسائر الفادحة التي سببها له سيره السريع ، هي وحدها الأسباب التي حملت (كوتوزوف) على إبطاء حركة قطعاته وكبح جماح اندفاعاتها . بل كان هناك سبب آخر وهو جهل الروس بالطريق التي ستسلكها القوات الافرنسية ، حيث كانت هذه القوات تحاول الابتعاد قدر المستطاع لترك مسافة كبيرة بينها وبين القوات الروسية . فكان من العسير على القوات الروسية السير على الخطوط المتعرجة التي كان الافرنسيون يرسمونها في سيرهم . وكانت التحركات (العاقلة) التي كان يضعها القادة الروس ويعرضونها على (عظيم الرفعة) تتلخص في حركة تقدم طردية وعكسية عديدة ، تتوافق مع تحركات القوات الافرنسية ، وتزيد من طول مراحل المسير . أما كوتوزوف فكان يعمل لتحقيق هدف ثابت ، وهو تقصير طول هذه المراحل . ونحو هذا الهدف تركزت حيوية (كوتوزوف) خلال كل الحملة - من موسكو إلى فيلنا - ولم يحد عن هذا الهدف ولو مرة واحدة .

كان يعرف - ليس بفضل استنتاجاته الفكرية أو بمعرفته العسكرية ـ بل بفطرته الروسية . يعرف ويشعر بما يشعر به كل جندي روسي وهو أن الافرنسيين قد هزموا . ان الأعداء يفرون ، ويجب مطاردتهم . لكنه كان يحس في الوقت ذاته ، مثل جنوده ، بثقل هذه

الحملة كلها ، الفريدة بسرعتها ، وبالفصل الشتوي من السنة التي وقعت فيه الحملة .

كان القادة – الجنرالات – أثناء ذلك – وبصورة خاصة غير الروسيين منهم – يرغبون في إظهار تفوقهم وإحداث الدهشة المثيرة بأسر (دوق) أو (ملك) ليحصلوا بواسطته على بعض المغانم المادية التافهة – في نظر كوتوزوف على الأقل – فكانوا يفكرون على عكس ما كان يفكر به : لقد أزفت اللحظة المناسبة لخوض المعركة الحاسمة ، والانتصار على عدو ما . ولا يهمهم في سبيل ذلك ارتكاب الأخطاء المروعة . لكن كوتوزوف كان يكتفي بهز كتفيه عندما كانوا يفدون واحداً إثر آخر ، ليقدموا له مشاريع تحركات جديدة ، وتنفيذ مخططاتها برجال ، شبه عراة ، محرومين من الألبسة الدافئة ، وهم نصف جياع ، ذابوا خلال شهر واحد من غير قتال فتناقص عددهم إلى النصف تقريباً . وكان يجب أن يقطعوا حتى الحدود مسافة أطول كثيراً من تلك التي قطعوها حتى الآن – هذا إذا ما استمرت مطاردة الهاربين ضمن أفضل الشروط .

هؤلاء الناس الذين تدفعهم أهواؤهم ، ما كانوا إلا أدوات عمياء لأسوأ الضرورات ، وأكثرها إثارة لمشاعر الحزن والشفقة ،ذلك لأنهم كانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم أبطال ويتصورون أنهم قمينون بأكثر المآثر نبلاً واستحقاقاً للثواب . ولهذا فلا غرابة إن هم وجهوا اتهامهم إلى (كوتوزوف) وزعموا أنه هو الذي منعهم من هزيمة نابليون – منذ بداية الحملة – وانه لا يفكر إلا في إرضاء أهوائه . الأمر الذي حمله على التوقف لبعض الوقت في اقليم (فيلاتور) على طريق (كالوجا) حيث كان يرغب العيش بسلام – على حد زعمهم – وكذلك توقفه في (كراسنواييه) لأنه أضاع صوابه تماماً – على حد زعمهم أيضاً – عندما

علم بوجود نابليون ، وقد افترض هؤلاء ، ومعهم بعض القادة الانكليز ، ان (كوتوزوف) قد باع نفسه لعدوه نابليون - إلى آخر ما هنالك من افتراءات .

كان كوتوزوف ينطلق دائماً ، في إدارته للحرب ، من أصالته الذاتية ، وخبراته المكتسبة . ولعل في خطابه عشية معركة (كراسنواييه) ما يبرز هذه الحقيقة . ففي مساء يوم (٥ - تشرين الثاني - نوفمبر - ١٨١٢) امتطى صهوة جواده وتبعته حاشية ضخمة من القادة - الجنرالات ، واستعرض (كتلة الأسرى الفرنسيين) ثم استعرض جنده ، ووقف أمامهم - ثم صاح وهو يخاطب الجنود أولاً ثم الضباط :

« **أشكركم جميعاً ! . . . أشكركم جميعاً على خدمتكم الشاقة المخلصة . ان النصر تام . وروسيا لن تنساكم . المجد لكم إلى الأبد** »

ثم صاح بالجنود ، وقد ارتجت ذقنه بحركة مباغتة : « **هورا ، أيها الأولاد** » فزمجرت ألوف الأصوات « هور - را - . . . » وعندما توقف الضجيج - عاد كوتوزوف للقول : « **هذا كل ما هنالك - أيها الاخوان !** » وارتفعت في الصفوف وبين الجنود ، وبين الضباط أيضاً ، حركة تدل على رغبة هؤلاء في الاصغاء إلى ما سيقوله بشكل أفضل . فاستأنف - عظيم الرفعة - حديثه :

« **وهذا كل ما هناك أيها الاخوان ! انني أعرف أن هذا قاس عليكم . ولكن ما العمل ! اصبروا ! سنبلغ الغاية قريباً . سوف نستريح بعد أن نشبع ضيوفنا . أما ثمن خدماتكم . فان القيصر لن ينساكم . هذا قاس . لكنكم رغم ذلك في وطنكم ، أما هم - وأشار إلى الأسرى - انكم ترون إلى أي حال وصلوا . لقد باتوا أسوأ من أسوأ المتسولين ! ما كنا نشفق حتى على أنفسنا،ما زالوا أقوياء . أما الآن ، فيجب أن نشفق عليهم أيضاً . إنهم بشر كذلك ، أليس كذلك**

يا أولاد ؟ » .

ونظر حوله مرة أخرى ، فقرأ في العيون المتيقظة الخاشعة المتسائلة الشاخصة إليه الانفعال الذي أيقظته كلماته في النفوس . فازداد وجهه إشراقاً بابتسامته العجوز الطيبة التي رسمت نجوماً من التغضنات عند ركن شفتيه وعينيه . صمت . ثم أطرق برأسه وكأنه في حيرة من أمره . ثم صرخ فجأة وهو يرفع رأسه :

« **ولكن ، من الذي دعاهم إلى المجيء إلينا ؟ انهم يستحقون ما نالهم ، يا للألف لعنة !** » ثم همز جواده ومضى جارياً لأول مرة خلال الحملة . وسط عاصفة من الضحك البهيج ، والهتافات المدوية المنطلقة من حناجر الجنود الذين تفرقت صفوفهم .

***

أثارت طريقة (كوتوزوف) لادارة الحرب ، كثيراً من الخصومات . وبدأت السحب في التجمع فوق رأسه . وكان القيصر الكسندر ذاته في جملة الغاضبين على طريقة كوتوزوف ، والمعارضين لأهدافه النهائية . وجدير بالذكر أن الروح العدائية ضد كوتوزوف كانت مركزة وموجهة من داخل هيئة أركان جيشه ذاتها ، وذلك بفضل رئيس هيئة أركان الجيش (بينيجسن) الذي كان على اتصال مباشر بالقيصر . وكان كوتوزوف يشعر بذلك ، ويكتفي بهز كتفيه ويتنهد . ولقد سخط مرة واحدة بعد بيريزينا فكتب الرسالة التالية إلى (بينيجسن) : « نظراً إلى حالتكم الصحية المؤقتة ، أرجو سعادتكم الذهاب إلى - كالوجا - وذلك فور تلقيكم هذه الكلمة ، والانتظار هناك . وسيتخذ جلالة الامبراطور القرار المناسب بشأنكم » .

لقد كان هذا الأمر بمثابة تحد للقيصر ذاته ، غير أن القيصر عالج

الموقف بأسلوبه فأرسل (الدوق الكبير كونستانتان بافلوفيتش) ليحل محل (بينيجسن) في رئاسة هيئة الأركان . وما أن وصل (الدوق الكبير) حتى أبلغ (كوتوزوف) بأن الامبراطور غاضب بسبب الانتصارات التافهة التي يحرزها الجيش ، وبسبب تحركاته البطيئة جداً . وأعلمه أن الامبراطور - القيصر - عازم ، على اللحاق شخصياً بالجيش . وعندما حاول (الدوق الكبير) ممارسة دور أكبر من حدود عمله ، أقدم كوتوزوف على طرده . فما كان من القيصر إلا أن عين الاميرال البارز (ويتجنستن) - بطل بيترسبورغ - ليعمل في قيادة جيش كوتوزوف .

أدرك عظيم الرفعة كوتوزوف - الذي كانت خبرته في شؤون البلاط تضاهي خبرته في شؤون الحرب ، أن دوره قد انتهى ، وأن زمنه قد انصرم . وتذكر أنه تسلم مركزه ضد إرادة القيصر للقيام بعمل محدد ، وأن هذا العمل قد تم إنجازه . كما تذكر ما قام به من دور في إبعاد وريث العرش عن قيادة الجيش الأمر الذي أزعج القيصر إلى حد بعيد ، ثم تذكر أيضاً أنه قام بإخلاء موسكو ضد إرادة القيصر . وإذن ، فقد جاءت الريح لتجمع السحب المتفرقة فوق رأسه . وبات عليه انتظار انفجار العاصفة .

١٢ - لقاء القيصر الكسندر بكوتوزوف في فيلنا (ولنا) :

دخل كوتوزوف إلى فيلنا (ولنا) يوم (٢٩ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٨١٢) . وعاد إلى مدينته الطيبة - كما كان يقول - ولقد تولى مرتين في حياته العملية ولاية هذه المدينة . كان يستعيد في هذه المدينة الغنية والتي ظلت سليمة من كل أذى ، ذكرياته القديمة ، ويستقبل فيها أصدقاءه القدامى . كما كان يتمتع فيها بقسط من الراحة والرفاهية ، مما افتقده طوال شهور عديدة . واستغرق فجأة في حياة

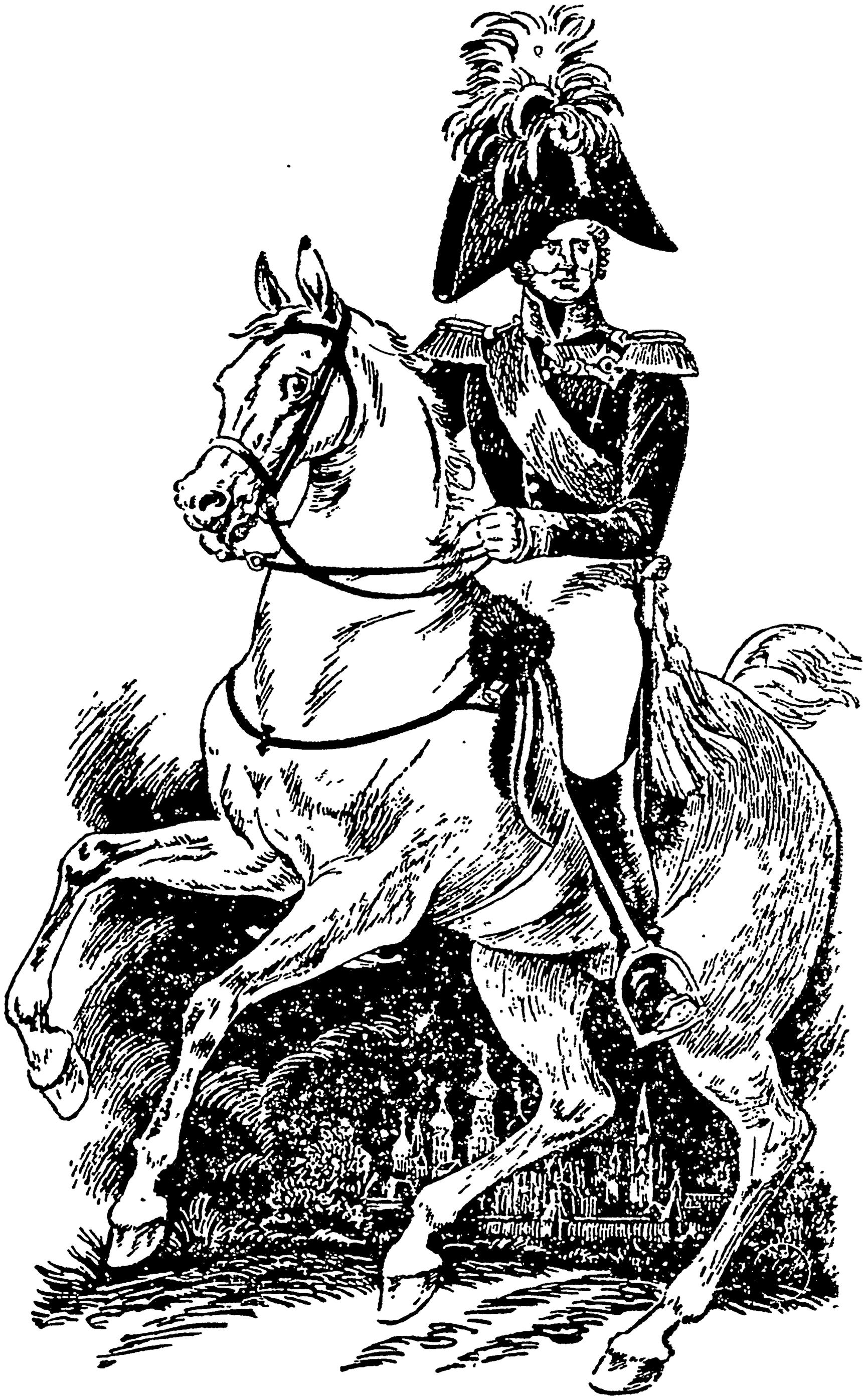

الكسندر الاول قيصر روسيا

منتظمة هادئة بعد أن تحرر من كل مشاغله السياسية وأعبائه العسكرية . وتجاهل كل ما كان يدور حوله آنذاك وكأن ما كان يشغل العالم كله قد بات من الأمور التي لا تمسه من قريب أو بعيد ..

كان (تشيتشاجوف) هو أول من استقبله في قصر (فيلنا) حيث كان يجب أن يحل، وسلمه - وهو في ثوب أميرال - مفاتيح المدينة الذهبية ، كما قدم له تقريراً عن حالة الحامية . وعلى الرغم من مظاهر الاحترام التي حاول الأميرال تشيتشاجوف إسباغها على تصرفاته تجاه كوتوزوف - نظراً لما كان يربط بينهما من مشاعر الالفة والتقدير الّتي تعود إلى أيام خدمة الأميرال تحت قيادة كوتوزوف في تركيا سنة ١٨١١ . فقد استطاع كوتوزوف أن يلمس في تصرفاته نوعاً من الاستهتار الذي يعود إلى ما كان يتم توجيهه من اتهامات إلى كوتوزوف - من قبل جيل الضباط الشباب بصورة خاصة .

عمل (كوتوزوف) من جديد ضد إرادة القيصر خلال إقامته في (فيلنا) فأوقف سير معظم قطعات جيوشه . ولقد ضعف وخار بشكل مذهل - على حد زعم المحيطين به - خلال مكوثه في تلك المدينة . فكان يهتم مرغماً بشؤون الجيش ، ويحيل الأعمال كلها إلى قادته - جنرالاته - ليحيا حياة التحرر من الأعباء والقيود ، بانتظار وصول القيصر .

غادر القيصر الكسندر عاصمته (بيترسبورغ) ترافقه حاشيته (في يوم ٧ كانون الأول - ديسمبر - ١٨١٢) ووصل إلى (فيلنا) يوم (١١ كانون الأول - ديسمبر -) فمضى مباشرة إلى القصر في زحافة السفر ، حيث كان ينتظره أمام القصر - بالرغم من البرد الشديد - أكثر من مائة جنرال وضابط أركان حرب وهم في ثياب العرض ، إلى جانب حرس الشرف . وعندما وصل رسول يعلن اقتراب موكب القيصر ،

اندفع كبير ضباط الجيش عبر الدهليز لاخطار (كوتوزوف) الذي كان ينتظر في غرفة البواب الصغيرة . ومضت دقيقة ، ظهر بعدها كوتوزوف بجثته الضخمة ، وهو يرتدي ثوب العرض، تزين الأوسمة صدره ، ويلفّ بطنه وشاح ، وتقدم نحو المرقاة بخطوات غير ثابتة ، ووضع العمرة الملائمة لثوبه ، وأمسك بقفاز في يده ، ونزل الدرجات بصعوبة وهو يمشي متمايلاً . فبلغ أسفل السلم ، وهو يمسك بيده الطليقة التقرير الذي سيقدمه إلى القيصر .

عاد الهمس من جديد ، ومرت زحافة كبيرة بأقصى سرعة ، وانتقلت الأنظار إلى زحافة كانت تقترب ، وكان شبح القيصر فيها ظاهراً ، وعلى الرغم من اعتياد (كوتوزوف) على تلك المظاهر طوال خمسين عاماً ، فان ذلك أحدث اضطراباً حسياً على الجنرال العجوز ، فراح يتحسس نفسه بحركة محمومة ، وأصلح قبعته ، ثم رفع عينيه إلى القيصر في اللحظة التي كان ينزل فيها من الزحافة . واستعاد ثقته ، فاتخذ وضعية الاستعداد ، ومد يده بالتقرير ، وراح يتكلم بصوت متزن وفرط في المجاملة .

شمل القيصر كوتوزوف بنظرة سريعة من رأسه إلى أخمص قدميه ، وقطب حاجبيه ثانية ، لكنه لم يلبث أن تمالك نفسه ، ففتح ذراعيه ، وطوق الجنرال العجوز . ومرة أخرى ، أحدثت حركة العناق في نفس كوتوزوف أثرها المألوف . إذ انفجر منتحباً تحت تأثير عادة قديمة ، مدفوعاً بفكرته الشخصية .

حيا القيصر الكسندر الضباط والحرس ، وعاد فشد مرة أخرى على يد العجوز ، ودخل معه إلى القصر . ولما انفرد بكوتوزوف ، راح العاهل يعرب له عن استيائه لبطء مطاردته ، وللأخطاء التي ارتكبت في (كراسنواييه) و (بريزينا) . وأطلعه على آرائه حول حملة مقبلة في

الخارج . فلم يعترض كوتوزوف ، ولم يقدم أية ملاحظة . كان وجهه يعكس مثل ذلك الخضوع السلبي الذي ظهر عليه قبل سبع سنين ، عندما كان يصغي إلى أوامر مولاه على ساحة القتال في (أوسترليتز) . وعندما خرج (كوتوزوف) بخطاه الثقيلة المترنحة ، وغادر الحجرة ، واجتاز البهو مطرق الرأس ، سمع صوتاً يستوقفه : « **يا صاحب السمو !** »

رفع (كوتوزوف) رأسه ، وحدق طويلاً في وجه (الكونت تولستوي) الذي كانِ واقفاً أمامه ، وهو يقدم له شيئاً على طبق فضي . بدا على (كوتوزوف) انه لم يدرك ما يطلبونه منه . وفجأة ، وكأنه استعاد حواسه ، طافت على وجهه الممتقع طيف ابتسامة لا تكاد ترى . وبالغ في الانحناء وهو يلتقط ما هو مقدم له بمزيد من الاحترام – من فوق الطبق الفضي . لقد كان ذلك هو (**صليب القديس جورج من الدرجة الأولى**) .

أقام الماريشال في اليوم التالي حفل عشاء ساهراً، أعقبه حفل راقص شرفه القيصر بحضوره . وقد أظهر القيصر تجاه كوتوزوف الرعاية والعناية ، ومنحه أرفع وسام في الدولة ، غير أنه ما من أحد كان يجهل أن الامبراطور مستاء من (كوتوزوف) . وعلى ذلك ، فان اللياقة كانت مرعبة ، والامبراطور نفسه أعطى المثال عليها ، لكنهم كانوا يعرفون جميعاً أن العجوز مذنب ، وأنه لم يعد صالحاً لشيء . خلال الحفلة الراقصة ، وتبعاً لتقليد قديم يرجع إلى عهد القيصرة كاترين ، عندما ولج القيصر الكسندر – الامبراطور – قاعة الرقص ، أمر كوتوزوف أن تلقى عند أقدامه الأعلام التي غنمت من العدو ، فنطق القيصر ببضع كلمات وهو مقطب حاجبيه تقطيبة عدائية ، خيل إلى بعضهم أنه جاء فيها : « أيها المهرج العجوز ! » .

ازداد استياء العاهل من (كوتوزوف) في فيلنا أيضاً : لا ريب أن العجوز ما كان يريد ، ولا يستطيع فهم معنى الحملة المزمع القيام بها .

قال الامبراطور للضباط المجتمعين حوله في صبيحة اليوم التالي : « انكم لم تنقذوا روسيا فحسب ، بل أنقذتم كذلك أوروبا » . ففهموا جميعهم حينذاك أن الحرب لم تصل إلى نهايتها .

بيد أن (كوتوزوف وحده) ما كان يريد فهم ذلك ، فكان يعلن عن رأيه بصراحة في موضوع الحملة الجديدة التي لا يمكن لها أن تحسن من وضع روسيا - بحسب رأي كوتوزوف - ولا أن تزيد من مجدها ، بل انها على العكس ، لا تصلح إلا لزيادة الحالة سوءاً ، وإلا لتقليل درجة المجد الرفيعة التي بلغتها روسيا الآن - كما كان يقول - . وكان يحاول جاهداً أن يبرهن للقيصر الكسندر ، أنه بات من المحال تجنيد قطعات جديدة ، وأن الشعب بات مذعوراً بسبب الحرب وهو يجابه موقفاً عسيراً . كما كان يتحدث عن إمكانية السقوط في مأزق خطير . . . إلى آخر ما هنالك من حجج وذرائع . فكان واضحاً أن كوتوزوف بات يمثل عبئاً مزعجاً بما يحمله من أفكار لا تساعد على استمرار دوران عجلة الحرب المقدرة .

كان لا بد من تجنب الصدام المباشر مع (العجوز - عظيم الرفعة) وقد وجدوا المخرج المناسب بشكل طبيعي ، وهو ذات المخرج الذي لجأوا إليه من قبل في - أوسترليتز - وفي بدء الحملة مع (باركلاي) : لقد سحبوا من القائد الأعلى أدوات سلطته ، دون جنبة ، ومن غير حاجة لتقديم تفسير ، ليسندوها إلى القيصر الكسندر بالذات .

وبدأ العمل لتحقيق هذا الهدف على مراحل . فتم تشكيل هيئة أركان جديدة ، وأحيلت كل السلطة التي كانت لهيئة أركان كوتوزوف - إلى لا شيء -وأصبح للقيصر الكسندر اليد العليا في (إدارة الحرب) . وتم تعيين (تول) و (كونوفينستين)و (ايرمولوف) في مناصب

جديدة ، فكان كل واحد منهم يعلن جهاراً أن (الماريشال) كوتوزوف ، بات شديد الضعف ، شديد المرض .

كان يجب أن تكون صحته - في الواقع - معتلة تماماً حتى سلم مناصبه إلى خلفه بهذا الشكل . وبمثل البساطة التي شرع فيها كوتوزوف من قبل في ممارسة أعماله تدريجياً في الوزارة وتأسيس فرق المتطوعين ليعود إلى الجيش في اللحظة التي كان لا بد من وجوده فيه . (وكان ذلك إثر عودته من تركيا إلى بيترسبورغ) ، بمثل تلك البساطة ، وبذلك الشكل الطبيعي ، أقاموا بدلاً عنه سيد الابداع الجديد الذي كانت تتطلب الظروف وجوده . لقد انتهى دور (كوتوزوف) الآن .

لقد وجب أن تأخذ حرب عام ١٨١٢ ، إضافة إلى معناها الشعبي العزيز على النفس الروسيةُ ، معنى أوروبياً كذلك ، كان يجب أن يعقب سير شعوب الغرب إلى الشرق ، سير مضاد من شعوب الشرق نحو الغرب . وكان يجب لهذه الحملة الجديدة ، رجل جديد ، يتحلى بصفات أخرى ، وله وجهات نظر أخرى ، ويحمل حوافز جديدة مغايرة لصفات (كوتوزوف) وحوافزه .

كان القيصر الكسندر الأول بالنسبة إلى سير شعوب الشرق إلى شعوب الغرب ، وبالنسبة إلى إعادة تنظيم الحدود ، الشخص الذي لا بد منه . تماماً كما كان كوتوزوف شخصاً لا بد منه من قبل لانقاذ روسيا .

ما كان كوتوزوف يدرك أبعاد كلمات : أوروبا ، توازن ، نابليون . وما كان على استعداد لفهمها . الآن ، وقد هزم العدو ، وتحررت روسيا ، لم يعد لصانع المجد ما يفعله - بوصفه روسيا وممثلاً للشعب الروسي . لم يبق لذلك الذي تجسدت فيه الحرب الشعبية إلا أن يموت - ولقد مات .

١٣ - إنصافاً لكوتوزوف والصفحة الأخيرة (*) :

كان القيصر الكسندر الأول شديد الاستياء من (كوتوزوف) . ولقد جاء في تاريخ حرر بناء على رغبة سامية « اتهام صريح خلال سنتي ١٨١٢ - ١٨١٣ ، بأن كوتوزوف هو رجل بطانة ماكر وكذاب ، يروعه مجرد ذكر اسم نابليون ، حرم الجيش الروسي في - كراسنواييه - وفي - بيريزينا - بسبب أخطائه ، من مجد هزيمة الافرنسيين هزيمة كاملة » .

ليس ذلك الوصف هو الوصف الصحيح للرجل العظيم الذي ترفض حتى العقلية الروسية الاعتراف به - قديماً - كرجل من الرجال النادرين ، دائمي الانفراد ، والذين يخضعون مشيئتهم الشخصية لمشيئة القدر التي يتفهمونها . ان حقد الجمهور المضلل يعاقب أمثال هؤلاء الرجال على تفهمهم للنظم العليا التي يرسمها (القدر) .

إنّ نابليون - أداة التَاريخ التافهة تلك ، والذي لم يظهر في أي مكان حتى ولا في المنفى ما يدل على الكرامة الانسانية ، نابليون هذا (في نظر المؤرخين حتى الروسيين منهم - وهو غريب أن يقال وبشع) موضع إعجاب وحماسة ، وهو رجل عظيم . أما كوتوزوف ، هذا الرجل الذي لم يناقض نفسه مرة واحدة ، من البداية حتى النهاية ، وطوال نشاطه عام ١٨١٢ ، من بورودينو وحتى فيلنا ، في كل تصرفاته وأقواله ، هذا الرجل الذي يبدو في التاريخ كمثال خارق للتضحية بالذات ، وللتعمق في معرفة المستقبل . فانه يبدو لهم على العكس متردداً يستحق الرثاء (بحسب ما كتب عنه في سنة ١٨١٢) .

ومع ذلك ، فانه من العسير تصور شخصية تاريخية التزمت بهدف

(*) عن (الحرب والسلم) - ليوتولستوي - ٤ / ٣٠٠ - ٣٠٤ .

واحد ، بمثل ذلك الدأب والثبات ، ومن العسير أيضا تصور غاية أكثر نبلاً وأكثر انسجاماً مع إرادة شعب بأكمله . وكذلك فانه أمر أشد عسراً ، إيجاد مثال في التاريخ لشخصية تاريخية بلغت هدفها المحدد مسبقاً بمثل ذلك الكمال الذي بلغه كوتوزوف بفضل ما بذله من الجهود والتي استنزفت قوته طوال سنة ١٨١٢ .

لم يتحدث (كوتوزوف) قط عن القرون الأربعين التي تطل علينا من أعالي الاهرام ، ولا عن التضحيات التي كان يبذلها في سبيل وطنه ، ولا عما فعله أو ما كان ينوي عمله . ما كان يتحدث عن نفسه قط بصورة عامة . ولا يبحث عن الدور الذي يجب عليه أن يمارسه . كان يتصرف دائماً على نحو ما يسلكه أكثر الرجال بساطة وسلامة نية . كان يكتب لبناته ، ويقرأ الروايات ، ويحب عشرة النساء الجميلات ، يمزح مع قادته - جنرالاته - وضباطه وجنوده ، ولا يناقض أبداً أشخاصاً يتحدثون إليه بشيء من الأمور . ولما جاء (الأمير روستو - بتشين) راكضاً على ظهر جواده عند جسر (أياووزا) يكيل له اللوم الشخصي ، ويتهمه بأنه كان سبب ضياع موسكو ، **ويقول له : « كيف ؟ لقد وعدت أن لا تهجر المدينة من غير قتال ؟ » أجابه كوتوزوف : « لست أنوي هجر موسكو دون قتال ! » رغم أن موسكو كانت حينذاك في أيدي الأعداء** . ولما جاء (ارا كتشييف) من لدن القيصر ليقول له بأنه يجب أن ينيط قيادة المدفعية إلى (ايرمولوف) أجابه : « نعم ، هذا تماماً ما كنت أقوله شخصياً منذ حين » رغم أنه كان قبل دقيقة واحدة يقول عكس ذلك . وأية أهمية كان لذلك في نظره ، هو الذي كان وحده يدرك المعنى الرائع للأحداث وسط الحشد الأبله الذي كان فيه . أية أهمية لأن يبرىء (روستو بتشين) نفسه من المصائب التي حلت بالعاصمة وأن يعزوها إليه وهو البريء منها ؟ فكم بالأحرى أن لا يأبه لمعرفة من سيتولى قيادة المدفعية .

لقد كانِ ذلك (العجوز) - وليس في هذه المناسبات فحسب - بل بصورة مستمرة ، يتفوه بالكلمات العارية عن أي معنى ، أول ما يتبادر إلى ذهنه من كلمات ، وهو الذي اكتسب من الخبرة في الحياة ، الايمان بأن الآراء والكلمات التي تعبر عنها ليست هي التي توجه البشر . لكن هذا الرجل نفسه ، والذي كان قليلاً ما يأبه لما يقول ، لم يدع خلال حياته العملية كلها ، كلمة تفلت منه دون أن تكون متفقة مع الهدف الأوحد الذي كان ينشده طوال مدة الحرب . ولقد كشف في مناسبات عديدة عن حقيقة فكرته ، حيث تسلط عليه التأكد الأليم بأنه ما من أحد يفهمه . واعتباراً من معركة (بورودينو) التي هي السبب الرئيسي لاختلافاته مع المحيطين به ، كان وحده الذي قال : « **ان معركة بورودينو نصر** » . وكرر ذلك بإلحاح وبصوت مرتفع في تقاريره ، وفي اتصالاته حتى ساعة موته . وهو وحده الذي قال : « **إن ضياع موسكو لا يعني ضياع روسيا** » .

وفي جوابه على عروض الصلح التي قدمها (لوريستون) أعلن : « **ان السلم غير ممكن ، لأن تلك هي إرادة الشعب** » . وهو وحده الذي أعلن عن تقهقر الافرنسيين : « **ان كل تحركاتنا عقيمة ، وأن كل شيء سيسوى تلقائياً على نحو أفضل مما نتمناه ، وأنه يجب أن نصنع للأعداء جسراً من ذهب . وأن معارك - تاروتينو - و - فيازما - و- كراسنواييه - ليست ضرورية . وأن الأمر يتطلب الوصول إلى الحدود بقوات كافية ، وأنه لا يعطي جندياً روسياً واحداً لقاء عشرة جنود افرنسيين** » .

هذا الرجل وحده ، والذي يصورونه على شكل منافق مذنب ، لأنه كذب على (اراكتشييف) ليرضي القيصر ، هو وحده الذي تجرأ في فيلنا على مجابهة غضب القيصر حين قال : « **ان حرباً تدفع إلى ما وراء**

الحدود ، ستكون حرباً ضارة ولا غاية لها » . لكن كلماته لم تكن وحدها هي التي تشكل برهاناً على تفهمه لمعنى الأحداث . ان تصرفاته كلها ، ومن غير استثناء ، تتلاقى عند الهدف الثلاثي نفسه :
١ - تركيز كل قواته بانتظار اشتباك منتظر مع الافرنسيين .
٢ - إلحاق الهزيمة بهم . ٣ - طردهم من روسيا مع الاقلال من آلام الشعب والجيش - قدر المستطاع - .

انه هو ، كوتوزوف المتمهل ، الذي كان شعاره (الصبر وطول الوقت) .

إنه هو ، كوتوزوف ، عدو كل نشاط حاسم ، يشتبك في معركة (بورودينو) فيضفي على استعداداته جلالاً لا مثيل له . انه هو ، كوتوزوف ، هذا نفسه الذي أعلن في (أوسترليتز) قبل خوض المعركة ، أنها ستكون هزيمة ، والذي أكد في (بورودينو) رغم ما أكده قادته - جنرالاته - كلهم من أن المعركة قد خسرت ، ورغم المثل الفريد في التاريخ والذي شوهد فيه جيش ظافر يغادر ساحة المعركة مرغماً . انه هو وحده ضد الجميع ، والذي أكد حتى الموت : « ان معركة بورودينو - كانت نصراً » . انه وحده الذي ألح طوال تقهقر الافرنسيين على وجوب تحاشي القتال ، الذي أصبح منذ بدأ التقهقر ، كيلا تبدأ حرب جديدة ، وكيلا يوغل في ما وراء الحدود الروسية .

ولكن كيف استطاع ذلك العجوز ، أن يقف وحده ضد الجميع ، وأن يميز ومنذ البداية وبمثل تلك الدقة المتناهية ، غاية الشعور الشعبي في ذلك الحدث التاريخي . وأن يسير نحو تلك الغاية ولم ينحرف عنها ولو مرة واحدة طوال فترة نشاطه كلها ؟ . . . لقد كان مصدر فهمه العميق لمعاني الأحداث الجارية هو ذلك الشعور الشعبي الذي كان يحمله في نفسه على غاية النقاء وفي كل قوته .

ولمعرفة الشعب بهذا الاحساس في نفسه ، انتخبه الشعب بوسائله الغريبة ، هذا العجوز المغضوب عليه ، ضد رغبة القيصر ، ليجعل منه بطلاً (للحرب الشعبية) ونموذجاً لها . ان هذا الاحساس وحده هو الذي سما به إلى الدرجة القصوى من الرفعة الانسانية التي كان القائد الأعلى - عظيم الرفعة - يدير من فوقها كل جهده بكل قواه ، لا يقتل الرجال ويبيدهم ، بل لينقذهم ويوفر عليهم حياتهم .

وهذه الصورة البسيطة ، المتواضعة ، وبالتالي العظيمة عظمة حقيقية ، ما كان لها لتنطبع في قالب البطل الاوروبي الكاذب ، الذي زعم أنه مسير الشعوب ، كما تصوره كتب التاريخ .

***

وبعد ، تلك هي صورة (تجربة تاريخية فردة) في سيرة رجل خلق ليكون قائداً . وتلك هي سيرة قائد شكل بصدق (تجربة تاريخية فردة) فبين (الرجل) و (التجربة) علاقة جدلية ثابتة في الاطارين الزمني والجغرافي . مما يجعل من العسير استخلاص دروس ثابتة يمكن الاعتماد عليها وتعميمها . على أن ذلك لا ينتقص أبداً من أهمية هذه التجربة . فالمعاناة التي عاناها القائد وشعبه من مرارة الهزيمة والخروج منها إلى النصر هي في حد ذاتها من التجارب الجديرة بالتعلم والاهتمام . وشيء آخر لا يقل عن ذلك أهمية : لقد جعل (كوتوزوف) من عاملي (الوقت والصبر) جنديين مخلصين في خدمة قضيته . وهما عاملان ثابتان من عوامل النصر في كل الحروب . ولكن بشرط ربط الوقت بعامل الحركة . وربط الصبر بعامل الجهد المبذول . وليس ذلك هو كل ما يمكن تعلمه من (كوتوزوف) و (تجربته التاريخية الفردة) .

قراءات

١ - منشور من حاكم موسكو - روستوبتشين - إلى السكان .

٢ - نداء نابليون إلى سكان موسكو حتى يعودوا إلى مدينتهم المهجورة .

٣ - نداء نابليون إلى سكان موسكو لاستئناف حياة السلم .

٤ - بيان (كوتوزوف) عظيم الرفعة إلى مواطنيه ، بعد انسحابه من موسكو .

٥ - رسالة نابليون إلى كوتوزوف .

قراءات

(١)

منشور من حاكم موسكو - روستوبتشين - إلى السكان

عين القيصر الكسندر ، النبيل الافرنسي (روستوبتشين) حاكماً على موسكو . وكان هذا من ألد أعداء نابليون . وقد بذل مجهوداً كبيراً لتنظيم الدفاع عن موسكو . وأقام شبكة من الجواسيس لمطاردة أنصار نابليون (من الماسونيين والليبراليين) وتنظيم القوات ، وإصدار البلاغات والبيانات - الصادقة أحياناً والكاذبة في أحيان كثيرة للمحافظة على الروح المعنوية على حد زعمه - ولمجابهة أساليب الحرب النفسية التي كان يروج لها جواسيس نابليون في العاصمة الروسية . وكان من بين تلك المنشورات - البيان التالي :-

« أيها المواطنون ! لا تخافوا من العاصفة القادمة . إننا سنزيلها قريباً ، وسيطحن القمح فيصير دقيقاً . إنما احذروا السكارى والحمقى الذين لهم آذان كبيرة ، ويسرون بآذان بعضهم بعضاً أخباراً سداها التلفيق ولحمتها الحماقة ، فبعضهم يعتقدون بجهلهم بأن نابليون قادم لخيرنا ، والحقيقة أنه مواف لسلخنا . وهو كثير المواعيد قليل الوفاء . فيعد الجندي البسيط بترقيته إلى رتبة قائد عام ، والمتسول بمنحه كثيراً من الذهب . ثم لا يلبث أن يمسك برقبة كل واحد منهم ويقذف به إلى هاوية الموت وهو ينتظر وفاء تلك المواعيد . وبناء عليه : أرجو منكم إلقاء القبض على أي واحد منكم أو من الأجانب ممن يمدح نابليون

أو يردد وعوده الكاذبة ، وتسليمه إلى إدارة الشرطة - البوليس - . أما المجرم - نابليون - فأنا أعرف كيف تجب معاقبته ، إنني أراهن على حياتي أن ذلك الوغد لن يدخل موسكو . وإليكم الأساس الذي بنيت عليه نبوءتي . . . وإذا لم يكن ذلك كافياً ، فسأستصرخ (دروجينا موسكو) قائلاً : هيا بنا إلى الأمام ، لنزحف نحن أيضاً ، فيجتمع لدينا مائة ألف جندي . فنأخذ أيقونة مريم العذراء ، وخمسين مدفعاً ، ونقضي الأمر معاً . . . » .

ونشر (روستوف) بياناً بعد موقعة (بورودينو) جاء فيه ما يلي :

« يا إخوة ، نحن كثيرو العدد ، على أتم استعداد للتضحية بأنفسنا من أجل إنقاذ الوطن ، ولصد ذلك المشؤوم ومنعه من دخول موسكو ، إنما تجب عليكم مساعدتي . ان موسكو هي أمنا التي أرضعتنا من ثدييها ، وغذتنا ، وأغنتنا ، فباسم العذراء مريم أدعوكم للدفاع عن المقدسات والكنائس ، وعن موسكو ، وعن كل روسيا . تسلحوا بأي شيء كان مشاة وفرساناً . خذوا معكم زاداً يكفي واحدكم مدة ثلاثة أيام فقط ، اذهبوا مع الصليب ، تتقدمكم الأعلام التي تأخذونها من الكنائس . واجتمعوا حالاً على الجبال الثلاثة وأنا سأكون معكم . ونسحق المهاجمين معاً . المجد والكرامة في السماء ينتظران من يذهب إليهما . وسلام أبدي للذين يموتون . وسيحل العقاب الخالد بأولئك الذين يجبنون ويحجمون عن المساعدة ويتراجعون إلى الوراء » .

قراءات

(٢)

نداء نابليون إلى سكان موسكو

حتى يعودوا إلى مدينتهم المهجورة .

« ان محنكم قاسية . لكن جلالة الامبراطور يريد أن يضع حدا لها . لقد علمتكم الأمثلة الرهيبة كيف يجب أن يعاقب العصيان وكيف يجب أن تقمع الجريمة . وعلى هذا فقد تم اتخاذ إجراءات صارمة من أجل وضع حد للفوضى ، وإنعاش الأمن العام . وستقام إدارة أبوية يتم انتخاب أعضائها من بينكم ، وتشكيل بلديتكم - أي حكومة مدينتكم - لتعمل على الاهتمام بكم وبتأمين احتياجاتكم وضمان مصالحكم . وسيعرف أعضاؤها من الوشاح الأحمر الذي سيضعونه متقاطعاً . أما رئيس البلدية فسيتمنطق فوقه بنطاق أبيض . غير أن أعضاء البلدية ، لن يحملوا خارج عملهم إلا إشارة حمراء حول الذراع الأيسر .

لقد نظمت شرطة البلدية على النظام القديم تماماً . وأمكن بفضل نشاط رجالها تحقيق الأمن بأفضل مما كان عليه في النظام السابق . وعينت الحكومة مستشارين عامين - قوميساريين - أو أصحاب شرطة عددهم عشرون مستشاراً ، تم توزيعهم على كل حي من أحياء المدينة . وستعرفونهم من الشارة البيضاء التي يضعها كل واحد منهم على ذراعه

الأيسر . ثم إن عدداً من الكنائس - لمختلف الملل - قد فتحت وأقيمت الطقوس الدينية فيها ، واستؤنفت الصلوات الدينية دون عارض .

لقد أخذ مواطنوكم في العودة كل يوم ، لتأثيث مساكنهم ، وأعطيت الأوامر لحمايتهم عند الحاجة وتقديم العون لهم عند المحنة .

تلك هي الوسائل التي استخدمتها الحكومة لاعادة النظام ، وتسوية أوضاعكم . ولكن ، ولبلوغ هذه الغاية ، فانه من الضروري أن تضيفوا مجهوداتكم إلى مجهوداتهم . وأن تتناسوا قدر المستطاع تلك الآلام التي عانيتموها . وأن تملأوا نفوسكم بأمل الوصول إلى نهاية أقل قسوة . كونوا على يقين من أن الموت المحتوم سينال كل الذين يحاولون الاعتداء على أشخاصكم أو على ما تبقى من مقتنياتكم - وممتلكاتكم . ويجب ألا يتطرق الشك إلى نفوسكم بأن هذه المقتنيات ستحفظ لكم ، لان هذه هي إرادة أكبر سلطان وأعدل ملك .

أيها الجنود والسكان ، من أية ملة كنتم ، أعيدوا الثقة العامة ، هذا المصدر لسعادة الدولة ، وعيشوا اخواناً ، وتبادلوا المساعدة والحماية ، واتحدوا لمقاتلة المشاريع الاجرامية . أطيعوا السلطات العسكرية والبلدية . فلن تلبث عيونكم حتى تكف عن ذرف الدموع » .

ولكن ، وبينما كان نابليون يعلن هذا النداء ، كان يصدر أوامره في الوقت ذاته إلى كل قواته للتوجه إلى موسكو بصورة دورية ، وبطريقة غير ملحوظة ، من أجل السلب وجمع المواد التموينية ، لتأمين متطلبات الجيش واطعامه .

قراءات

(٣)

نداء نابليون إلى سكان موسكو لاستئناف حياة السلم

إعلان

« إليكم يا سكان موسكو الوادعين ، ورجال العمل والعمال الذين أبعدتكم المحن عن المدينة . وأنتم يا عمال الأرض الذين لا يزال خوف هيبتي يجعلكم مبعثرين في الأرياف ! لقد عاد الهدوء إلى العاصمة واستتب فيها النظام . إن مواطنيكم يخرجون دون خوف من ملاجئهم وهم واثقون من أنهم سيحترمون . وان كل شدة تستخدم ضدهم أو ضد ممتلكاتهم تقمع من فورها . إن جلالة الامبراطور يشملهم بحمايته ، ولا يعتبر أعداء من بينكم إلا أولئك الذين يعصون أوامره . إنه يريد أن يضع حداً لآلامكم ، وأن يعيدكم إلى بيوتكم وعائلاتكم . تقبلوا إذن تدابيره الرفيقة وتعالوا إلينا بكل طمأنينة .

أيها السكان ! نظموا مساكنكم بهدوء ، وستجدون فور ذلك إمكانية القيام بأودكم . أيها الصناع والعمال المجدون ! عودوا إلى أعمالكم على الفور : إن بيوتكم وحوانيتكم تنتظركم وإن دوريات المراقبة تقوم بحمايتكم . وستتلقون لقاء عملكم الأجر الذي سيتم الاتفاق عليه معكم . وأنتم أخيراً أيها الفلاحون أخرجوا من الغابات التي دفعكم الخوف للاختباء فيها وعودوا إلى أكواخكم دون خوف أو وجل . وكونوا على ثقة تامة بأنكم ستجدون فينا حمايتكم .

لقد أقيمت في المدينة مستودعات كبيرة يستطيع الفلاحون أن يحملوا إليها فائض محاصيلهم ، واتخذت الحكومة التدابير التالية لتأمين بيعها بصورة حرة :.

١ - يستطيع الفلاحون والمزارعون وسكان ضاحية موسكو الآخرون ، اعتباراً من اليوم ، أن يحملوا دون أي خوف إلى المدينة ، حاصلاتهم من أي نوع كانت ، إلى المستودعين القائمين لهذا الغرض في شارع (موخوفاييا) وشارع (الاخوتنيرياد) .

٢ - سيتم شراء هذه المحاصيل منهم بأسعار تحدد بالاتفاق بين البائع والشاري . فإذا لم يحصل البائع على السعر الذي يطالب به بحق ، فإنه حر في إعادة بضاعته إلى بيته ، الأمر الذي لا يستطيع أحد أن يمنعه من ممارسته بتأثير أي اعتبار .

٣ - تم تخصيص يومي الأحد والأربعاء من كل أسبوع لاقامة السوق الأسبوعية العامة : ولهذا الغرض ، ستقام فصائل من الجند بعدد كاف على الطرق العامة أيام الثلاثاء والسبت من كل أسبوع لحماية القوافل . وقد اتخذت هذه التدابير ذاتها لتأمين عودة القرويين في عرباتهم مع جيادهم دون أية صعوبة .

٤ - ستتخذ تدابير مستمرة لاعادة التجارة الطبيعية .

يا سكان المدينة والقرى ، وأنتم يا رجال الصناعة والعمال من أية ملة كنتم ! . إن جلالة الامبراطور يدعوكم إلى التقيد بتدابيره الأبوية ، وأن تتعاونوا معه لاعادة الرفاهية العامة . احملوا إلى أعتابه احترامكم وثقتكم ولا تترددوا في الاتحاد معنا » .

قراءات

(٤)

بيان كوتوزوف - عظيم الرفعة - إلى مواطنيه بعد انسحابه من موسكو

بيان إلى المواطنين

« إن الأمير عظيم الرفعة ، بغية الالتحاق بالقطعات التي تتقدم للقائه بأسرع ما يمكن ، قد اجتاز - موجائيسك - وتمركز في موقع حصين لا يستطيع العدو أن يداهمه فيه . ولقد أرسل إليه من هنا ثمانية وأربعين مدفعاً مع ذخائرها . ان عظيم الرفعة يؤكد أن موسكو سيدافع عنها حتى آخر قطرة من الدم ، وانه على استعداد للقتال حتى في الشوارع .

أيها الاخوان ! لا تقلقوا إذا ما توقفت الخدمات العامة : كان لا بد من وضعها في مكان أمين . أما نحن ، فسنسوي حسابه ، ذلك اللص . عندما يحين الوقت ، أكون بحاجة إلى فتيان أشداء مدنيين وقرويين . سوف أطلق صرخة النداء في غضون يوم أو اثنين . أما الآن ، فانني أصمت لأنه لا لزوم لذلك ، سيكون من المناسب أن يمتلك المرء فأساً ، ولا بأس من أن يكون لديه حربة ، بل وأفضل أن يكون مسلحاً بمنجل ، فالافرنسي ليس أثقل وزناً من حزمة من الخرطال . غداً بعد الغداء ، سأنظم موكباً دينياً يحمل أيقونة ايبيريا للجرحى في

مستشفى كاترين ، وهناك سنبارك الماء فيشفون بسرعة أكبر . انني أنا الآخر قد شفيت الآن : لقد أصبت بألم في عيني ، والآن بت أرى بعينيّ الاثنتين (*) » .

(*) الحرب والسلم - ليوتولستوي - ٣ / ٤٤٦ - ٤٤٧ - وجملة : (لقد أصبت بألم في عيني) يقصد منها - عظيم الرفعة - ما صادفه أثناء المعركة من ظهور (شحاذ العين) فسبب له ألماً كبيراً . وعندما علم المواطنون بذلك أسرعوا للاستفسار عن صحته ، فتأثر بهذه الظاهرة تأثراً عظيماً . وأشار إليها في بيانه .

قراءات

(٥)

رسالة نابليون إلى كوتوزوف

لم تكن موهبة (كوتوزوف) فيما يسمونه (المناورة الاستراتيجية العبقرية) . ولكن في أنه وحده كان يفهم معنى الوقائع الدائرة حوله . كان وحده حينذاك الذي يفهم أهمية جمود الجيش الافرنسي ، وهو وحده الذي كان يؤكد أن (معركة بوردينو) هي نصر للروس . وهو وحده الذي رغم كل ما كان يفرضه عليه مركزه بصفته قائداً أعلى للتحيز نحو فكرة الهجوم ، ظل يستخدم نفوذه ونشاطه لتجنب زج الجيش الروسي في معارك عقيمة لا طائل تحتها .

كان الحيوان الجريح في (بوردينو) مسجى الآن حيث تركه الصياد الفار . ما لا زال حياً ؟ وهل يحتفظ ببعض قواه أم تراه يتظاهر بانعدام تلك القوى ؟ لم يكن الصياد - كوتوزوف - يعرف شيئاً عن ذلك . لكن الحيوان الجريح - نابليون - أطلق فجأة زمجرة .

كانت زمجرة الحيوان الجريح الكاشفة عن نهايته الوشيكة تتلخص في عرض الصلح الذي حمله (لوريستون) (*) إلى معسكر (كوتوزوف) .

(*) لوريستون : (JACQUES LAW , MARQUIS DE LAURISTON) من مواليد بونديشيري : (PONDICHÉRY) (١٧٦٨ - ١٨٢٨) برز اسمه في معركة واغرام . ومنح لقب (ماريشال فرنسا) عند عودة الملكية إلى فرنسا . وهو ابن أخ المالي الكبير لاو .

كتب نابليون إلى كوتوزوف ، متأثراً بقناعته بأن الخير ليس ما هو خير في الحقيقة بل ما يخطر له على بال . الكلمات الأولى التي طافت بذهنه ، فكانت تلك الكلمات مجردة من كل معنى - عارية من كل مضمون :

« سيدي الامير كوتوزوف ، أوفد إليك أحد مساعدي العسكريين - الجنرالات - ليتحدث معك حول عدد من الأشياء المهمة . انني أرغب أن تثق سعادتك في كل ما يقوله ، خصوصاً عندما يعرب عن عواطف التقدير والاعتبار الخاص التي أكنها لشخصكم منذ أمد طويل . ولما كانت هذه الرسالة لا تهدف إلى غرض آخر ، فإني أرجو الله يا سيد الأمير كوتوزوف ، أن يكلأك بحمايته القديرة المقدسة » .

موسكو - في ٣٠ تشرين الأول - أكتوبر - ١٨١٢

التوقيع : نابليون (*)

وكان رد (كوتوزوف) أكبر من الكلمات .

لقد صمت كوتوزوف . وأخذ في تحريك الاداة الضخمة لسحق نابليون وجيشه .

(*) الحرب والسلم - ليوتولستوي - ٤ / ١٠٦ - ١٠٧ .

هوامش الكتاب

المراجع الرئيسية للبحث

١ - تاريخ روسيا - الخوري باسيليوس خرباوي - مطبعة جريدة مرآة الغرب في نيويورك ١٩١١ .

٢ - تاريخ فن الحرب - آ . آ . ستروكوف - نقله عن الروسية العميد الركن صباح الدين الاتاسي - ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي - دمشق - ١٩٦٨ .

٣ - الحرب والسلم - ليوتولستوي - دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر - دمشق - سورية - ١٩٥٦ .

٤ - نابليون - اميل لودفيج - ترجمه عن الالمانية محمود ابراهيم الدسوقي - دار الكاتب المصري - ١٩٤٦

٥ - رواد الاستراتيجية الحديثة - ادوارد ميدايرل وآخرون - ترجمة الاميرالاي اركان الحرب محمد عبد الفتاح ابراهيم - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٧ .

6 — THE DECISIVE BATTLES OF THE WESTERN WORLD — J. F. C. FULLER PALADIN — 1970 .

7 — NAPOLÉON , JEAN TULARO (FAYARD) 1977.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
الوجيز في حياة كوتوزوف	١١
١ - النبأ العظيم .	١٤
٢ - كوتوزوف تلميذ سوفوروف .	١٩
٣ - تطور الجيوش :	٣٠
٤ - ذرائع الحرب .	٤٨
٥ - الجيش الكبير .	٦٠
٦ - انسحاب القوات الروسية .	٦٣
٧ - المنقذ (كوتوزوف) .	٧٢
٨ - موقعة بوردينو .	٧٩
٩ - نابليون في موسكو .	١١٤
١٠ - كوتوزوف في (تاروتينو) .	١٢١
١١ - كوتوزوف يدمر جيوش نابليون .	١٢٥
١٢ - لقاء القيصر الكسندر بكوتوزوف في فيلنا (ولنا)	١٥٢
١٣ - انصافاً لكوتوزوف - والصفحة الأخيرة .	١٥٩
قراءات	١٦٤
المراجع الرئيسية للبحث	١٧٥

ولد كوتوزوف عام ١٧٤٥ في سانت بيترسبورغ من أب جنرال خدم تحت قيادة بطرس الأكبر، ثم سلك الطريق نفسه الذي سلكها أبوه فانخرط في الجيش الروسي وما زال يرقى في سلم الرتب حتى بلغ رتبة القائد «عظيم الرفعة».

لقد برز اسمه سنة ١٨١٢ حين طبق استراتيجية هائلة تمكن بواسطتها من استنزاف قدرة جيوش نابوليون وتعطيل تقدمها، ثم إرغامها على الانسحاب مقهورة مدحورة. وتقديراً لهذا القائد فقد احدثت القيادة السوفياتية العليا إبان الحرب العالمية الثانية وساماً رفيعاً حمل اسم كوتوزوف يمنح لأبطال الصمود والمقاومة.

لم يصب كوتوزوف من الشهرة العالمية مقدار ما أصابه نابوليون، إلا أن تقدير الشعب له عوض من تلك الشهرة التي تمتع بها غيره من القواد العالميين، وحسبه ما كتبه عنه «تولستوي في الياذته «الحرب والسلم»

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقياً "موكيالي" بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

الثمن ١١ ل.ل.
أو ما يعادلها